

كلية الدراسات العليا
كلية اللغة العربية

قسم الدراسات الأدبية والنقدية

البطولة والقيم الإسلامية في شعر البارودي

دراسة أدبية ونقدية

بحث مقدم للحصول على درجة الدكتوراه في الأدب والنقد

إعداد الطالب : النوراني عبد الكريم كبور .

إشراف البروفسير : صالح آدم بيلو

٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ م .

١٤٢٥ . ١٤٢٦ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ فِي الزَّمانِ لَنَا حُكْمٌ فَشَتَرْتُ؟ * أَمْ تِلْكَ أُمْنِيَّةٌ فِي طَيِّهَا قَنَطُ
نَبْكِ عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ ثُمَّ يُضْحِكُنَا * مَا لَيْسَ فِيهِ لَنَا بَقِيَا فَخَتَلَطُ
وَكَيْفَ نَرْجُو مِنَ الْأَيَّامِ عَافِيَةً * وَصَحَّةُ الْمَرْءِ مَقْرُونٌ بِهَا السَّقَطُ؟
نَرَعَى مِنَ الدَّهْرِ غَيْثًا نَبْتُهُ أَسْفُ * لِلرَّائِدِينَ وَرَوْضًا زَهْرُهُ شَطَطُ
فَلَا يَغُرُّكَ مِنْ دَهْرٍ بِشَاشَتُهُ * فَإِنَّمَا هُوَ بَشَرٌ تَحْتَهُ سَخَطُ

(البارودي)

إهداء

إِلَى الَّتِي حَمَلْتَنِي وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ وَوَضَعْتَنِي كُرْهًا
إِلَى الَّتِي أَرْضَعْتَنِي حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ وَسَهَرْتَ لَأَجَلِي
إِلَى الَّتِي لَقَبْتَنِي بِ(دكتور) وَأَنَا فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا
إِلَيْهَا أَهْدِي ثَمَرَةَ هَذَا الْجَهْدِ الْمُنَوَّاضِ

ع .

أَمْدًا لِلَّهِ فِي أَيَّامِهَا ، وَمَنْعَهَا بِالصِّحَّةِ ، وَالْعَافِيَةِ

آمين

مُتَكَلِّمًا

الحمد لله رب العالمين ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ﷺ . إمام المرسلين ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

بحمد الله قد نلت درجة الماجستير في الأدب والنقد في كلية اللغة العربية ، في جامعة أمدرمان الإسلامية ، وقد اخترت لموضوع الدكتوراه هذا الموضوع الذي يتناول (البطولة والقيم الإسلامية في شعر البارودي) ، والبارودي . كما هو معلوم . هو رائد النهضة الأدبية الحديثة :

وإذا تتبعنا مسيرة الأدب العربي من العصر الجاهلي مروراً بعصور الانحطاط وصولاً إلى عصر البارودي ؛ لأدركنا القفزة الهائلة التي قفزها البارودي بالشعر العربي ، والنقلة النوعية التي أحدثها فيه ، مما جعل شعره مادة خصبة للدراسات الأدبية ؛ فشعره يمثل نقطة محورية للشعر العربي كله ، فإن كان نوح . عليه السلام . يمثل بداية جديدة للبشرية بعد الطوفان المدمر ، فإن البارودي يمثل بداية جديدة للأدب بعد طوفان الانحطاط المدمر هذه من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن التطور الشعري ، وانقسامه إلى حديث وقديم قد استوى على سوقه بعد نهضة البارودي ؛ فشعره قد أسهم في فتح آفاق جديدة للشعراء ، وفتح الطريق أمامهم نحو التطور ، ومواكبة الحياة العصرية المتجددة .

❖ موضوع البحث :

(البطولة والقيم الإسلامية في شعر محمود سامي البارودي) .

❖ أهمية البحث :

١. تأتي أهمية هذا البحث من ناحية أنه يعدّ إضافة من شأنها أن تكمل صورة التراث الشعري لهذا الشاعر الرائد في مسيرة شعرنا العربي الحديث ، وتعطي الملامح الروحية ، والسمات النفسية لتكتمل صورته .

٢. وكذلك تأتي أهمية هذا البحث من أهمية شعر البارودي نفسه ؛ فقد تناول في شعره العديد من الموضوعات ، وتعرض للعديد من القضايا التي تهم الإنسان المعاصر ، وأظهر من خلال ذلك موهبته الفنية مما جعل لشعره قيمة كبيرة ؛ فقد التقى في شعره تيارات عدة ، منحت شعره ربيعاً دائماً ، وشباباً لا يشيب ، وجمال لا ينقطع ؛ ففيه التيار الديني بقيمه السمحاء النضرة ، وفيه التيار الذاتي بحماسه ، وفخره ببطولته ، وشكواه ، ومآسيه ، وفيه التيار الاجتماعي الذي عالج فيه القضايا الاجتماعية عبر النصيح ، والإرشاد ، وفيه التيار السياسي ، وما فيه من استنهاض الهمم ، وبناء الفكر السياسي من خلال المنظور الإسلامي الواعي ، فهذه التيارات جعلت لشعره أهمية خاصة شملت النواحي المذكورة .

٣. هذا البحث يقدم دراسة في جانب مهم من جوانب الأدب العربي ، وهي تمثل حلقة في سلسلة الدراسات الأدبية التي تعني بتحقيق التراث الأدبي ، وهي عملية ضرورية في عصرنا الحاضر ؛ لأن ذلك يصل الأمة بماضيها ؛ فتجدد حيويتها ، ويتجدد فيها العطاء ، وتنوع ظل أمة شابة قادرة على التفاعل ، والعطاء هذه من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهذه الدراسة تلفت انتباه الجيل المعاصر إلى عظيم انجازات

السابقين في ضروب الشعر ، وإلى ما رُزقوا من المواهب ، والمقدرات ، كما تنبهم إلى المراحل التي مر بها أدبنا العربي في عصوره المختلفة .

٤. دراسة شعر البارودي من خلال منظوري البطولة ، والقيم الإسلامية إيذاناً بإعادة دراسة شعره ، وإخضاعه لهذين العاملين مما قد يسفر عن نتائج جديدة تعزز ما وصلنا إليه في هذا الصدد .

كما أن الأغراض الدينية ، والبطولية التي نظم فيها البارودي تشير إلى اهتماماته الفكرية ، والأدبية ، وتدلنا على عميق ثقافته الدينية ، والأدبية ، واشتغاله بالعلوم ، والمعرفة كما تدل على آراء فلسفية حاول الشاعر بلورتها في أمثال ، وحكم مزجها بواقع الناس ؛ فقد كان للبارودي اهتمامات ببعض المسائل الفلسفية خاصة ما يتعلق بالمثاليات ، وعلاقتها بالعقل ، والبارودي يحاول أن يزواج بين مقاييس المثاليات الإسلامية ، وأنماط المثاليات التي نادى بها الجاهليون ، والفلاسفة فاستخدم العقل ، والمنطق في تقرير كثير من القيم الإسلامية ، والحماسة من خلال تصوير بياني ، وخيالي ترجمها شعراً ، سار به من لا سير مشمراً ، وغني به من لا يغني مغرداً ؛ فلشعره أهمية من هذه الناحية إذ يعين الدارس على تلمس هذه الجوانب في شعره .

❖ أسباب إختيار البحث :

وهناك أسباب دفعتني لاختيار هذا الموضوع لبحث الدكتوراه منها:

١- أهمية شعر البارودي باعتباره باعث النهضة الأدبية في العصر الحديث ، وإعجابي بملكته الشعرية الفذة ، ومقدرته الفنية البارعة في ابتداع الصور الشعرية ، وتوليد المعاني .

٢. حاجتنا إلى المزيد من البحث في أدب شعراء النهضة الحديثة ، ومعرفة العوامل التي أثرت في إنتاجهم الأدبي .

٣- بيان الجهد الذي بذله هذا الشاعر ، وبيان العبء الكبير الذي إضّلع به في مضمار الأدب ، ولا يقف ذلك في حد كونه بعث الشعر العربي من حيث الأخيلة ، والمعاني ، ورد الأصالة فحسب بل لأنه حرص كل الحرص على سلامة اللغة ؛ فوجود الأمة كقوة فاعلة في ميدان الأدب مرهون بقوة لغتها ، وسلامة هذه اللغة ، وانتشارها ، وقدرتها على استيعاب اللغات الأخرى ، واخضاع اللغات الأخرى لها ، واللغة العربية . بفضل القرآن . لغة حيّة متجددة ، وأصيلة ، ولكن ليس كل الشعراء العرب هم من المسلمين ، أو من المهتمين بقراءة المصحف الشريف ، ومن هنا فشعر البارودي قد ساعد على سلامة اللغة ، واستخدامها الفصيح ، وحافظ على لغة الشعر من هيمنة العامية ، واللغات الأخرى ، وهذا يبدو بجلاء ، ووضوح في تلاميذ مدرسته الذين التزموا نهجه اللغوي السليم .

٤. أهمية شعر البارودي من الناحية التربوية ، لما اشتمل عليه من مظاهر البطولة العريقة ، ومخايل القيم الإسلامية ، وهذا يقودنا إلى الغوص في أعماق ثقافته الدينية ، وانعكاساتها على شعره ، وهذا يسلمنا بدوره إلى الوقوف على عصره و قضاياها .

٥. رغبتني في إيضاح سمات وملامح هذا الشاعر ، وكشف هذين الجانبين في شعره حتى يكون نموذجاً يحتذيه أجيالنا في الشجاعة ، والبطولة ، والقيم الفاضلة .

٦. رغبتني في تقديم دراسة ذات نفع لمكتبتنا العربية حتى يجد النشئ ، والجيل القادم ما يعينهم ، ويمهد السبيل أمامهم لتقديم المزيد في هذا المجال .

❖ الجهود السابقة :

هناك جهود سابقة ، ومهمة ، ومقدّرة قام بها عدد من الدارسين ، والباحثين في شعر البارودي ؛ فقد حظي بالعديد من الدراسات لمكانته في الأدب العربي ، وقد تناولت تلك الجهود جوانب عدة من حياة الشاعر ، وشعره سواء كان ذلك في كتب ، ودراسات وبحوث عامة ، أو في رسائل جامعية ، ولم أجد من بينها ما يجمع شتات هذا الجانب من شعره في بحث ، أو رسالة ، هذا مع أهمية هذا الجانب .

❖ مكانة البحث :

تأتي مكانة هذا البحث من جهة كونه يتناول شعر البارودي بالدراسة الأدبية ، والتحليل أبرز ما حفل به شعره من المظاهر البطولية ، والقيم الإسلامية الفاضلة ، وتحليل بعض النصوص الشعرية التي تعبر عن تلك الملامح ، بما في ذلك الناحية الفنية المتعلقة بالأساليب ، والمعاني ، والموسيقى ، والوزن ، وغيرها لأن الشعر الإسلامي هو شعر أولاً قبل أن يكون إسلامياً .

❖ منهج البحث :

اتبعت في هذا البحث المنهج النقدي القائم على التفسير ، والتحليل ، بحيث يجد القارئ شيئاً من المتعة ، واللذة ، وهو ينتقل من فكرة إلى أخرى ، وقد اشتمل على الناحية النظرية في تناول الملامح العامة للبطولة ، والقيم الإسلامية .

واتبعت المنهج التاريخي اللازم لمثل هذه الدراسات ، فلا بدّ من الاستعانة ببعض الحقائق التاريخية فيما يتعلق بالشاعر ، وعصره ، وحياته ، وفيما يتعلق بالنواحي السياسية ، والدينية ، الاجتماعية ؛ لأجل ربط هذه الحقائق بعملية النقد ، والتحليل ، فالإلمام بصورة عصر الشاعر ، وحياته ، والوقوف على العوامل المؤثرة فيه تعين على الدراسة الأدبية ، وعلى إصدار الأحكام النقدية ، وبذلك نتقي القصور الناجم عن إغفال هذا الركن المهم من أركان الدراسة المنهجية المتكاملة . والكمال لله وحده . وهو المعين .

❖ أهم المراجع :

اعتمدت في هذا البحث على ديوان الشاعر (أربعة أجزاء) وعلى عدد من الكتب القديمة ، وبعض آراء النقاد ، وقد أشرت إليها في نهاية البحث .

❖ خطة البحث :

قسمت هذا البحث إلى ثلاثة أبواب ، تسبقها مقدمة ، وتمهيد ، وتعقبها خاتمة ، وفهارس ، وقد قسمت كل باب إلى فصلين ، وهذا تفصيل الخطة :

المقدمة :

وتناولت فيها أهمية الموضوع ، ومكانته ، ومنهجه ، والأسباب التي دفعتني لاختيار موضوعه ، وأهم المراجع التي اعتمدت عليها ، والجهود السابقة في هذا المجال ، ومكانة هذا البحث بينها ، وخطته ، وكلمة شكر وامتنان .

التمهيد :

وتناولت فيه البطولة ، والقيم الإسلامية في العصور العربية القديمة ، ثم أثر الإسلام فيها ، ثم تناولت بعض الجوانب المتعلقة بالبارودي باعتباره النموذج الذي يمثل في شعره البطولة ، والقيم الإسلامية ؛ فتناولت مولده ، وشخصيته ، وشاعريته ، وعصره ، وشعره ، وأهم فنونه الشعرية ، وأغراض شعره ، ومميزات شعره ، ومكانة البارودي في الأدب ، وآثاره .

الباب الأول : البطولة في شعر البارودي

وفيه فصلان :

الفصل الأول : أبرز الملامح البطولية في شعر البارودي .

١. وصف المعارك الحربية .
 ٢. إيضاح سبل البطولة ، ومناهجها .
 ٣. الاعتداد بالنفس .
 ٤. تمجيد البطولة ، والحضّ عليها .
 ٥. الاعتداد بالأهل والعشيرة .
 ٦. تصوير الهمة ، والتعبير عن الخلجات النفسية .
 ٧. وصف الفرس .
 ٨. حب المعالي ، وركوب الصعاب .
 ٩. التمسك بالمواقف الصلبة .
 ١٠. وصف السلاح ، وآلة الحرب .
 ١١. المنهج الشعري .
- أثر البطولة في شعر الباروي .

الفصل الثاني : النصوص الشعرية ، وتحليلها .

١. شعر المعارك والحروب .
 ٢. شعر السيف والفرس .
 ٣. شعر تمجيد البطولة ، والحضّ عليها .
 ٤. شعر الاعتداد بالآباء ، والعشيرة .
- منهجه في التعبير عن البطولة .

الباب الثاني : القيم الإسلامية في شعر البارودي .

وفيه فصلان :

الفصل الأول : أبرز ملامح القيم الإسلامية في شعر البارودي .

١. الزهد .
٢. الاتجاه المثالي التربوي .
٣. المبدأ السياسي .
٤. تقبيح الرذائل ، والتنفير منها .
٥. تمجيد الفضيلة .
٦. الدعوة إلى التأمل ، وتقرير القيم الدينية .
٧. النزعة الروحية .
- ٨ . الموعظة .
- ٩ . الحكمة .

أثر القيم الإسلامية في شعر البارودي .

الفصل الثاني : النصوص الشعرية ، وتحليلها .

١. شعر الزهد .
 - ٢ . شعر الثناء على الله .
 - ٣ . شعر التأمل والموعظة .
 ٤. شعر الحكمة .
 ٥. شعر المواقف الروحية .
 - ٦ . شعر النصيح والإرشاد .
 - ٧ . مدح النبي صلى الله عليه وسلم .
 - ٨ . شعر تقبيح الرذائل .
- طريقته في التعبير عن القيم الإسلامية .

الباب الثالث : الدراسة الفنية

وفيه فصولان :

الفصل الأول : بناء القصيدة .

- ١ . المطلع .
- ٢ . المقدمة .
- ٣ . الخاتمة .
- ٤ . اللغة وألفاظ .
- ٥ . الأسلوب .

الفصل الثاني : الصور ، والأخيلة ، والموسيقى والوزن والمعاني .

- ١ . الصور والأخيلة .
- ٢ . الموسيقى .
- ٣ . الوزن .
- ٤ . المعاني .

أثر النواحي الفنية في شعر البارودي .

صياغة البارودي للمعاني .

الفهارس .

ويشرفني في هذا المقام أن أتقدم بأسمى آيات الشكر ، والعرفان لكل من أعان في إنجاز هذا البحث ، وأتوجه بالشكر الجزيل إلى فضيلة البروفسير / صالح آدم بيلو ؛ الذي تكرم بالإشراف على هذا البحث فوجدته بحراً زاخراً بالعلم يقذف للقريب جواهر ، ويبعث للبعيد سحائباً ، وكان نعم المعين ، وخير المرشدين ، كما أشكر مقدما اللجنة الموقرة التي تقيم هذا البحث ، وأشكر جامعة أم درمان الإسلامية ، وأسرة كلية اللغة العربية التي أتاحت لي المجال لتقديم هذه الدراسة .

كما أشكر الصديق المخلص الدكتور / سليمان يوسف خاطر ، والشيخ / إبراهيم عبد الله أحمد ، والدكتور / بابكر البدوي دشين ، وأخي قطبي عبد الكريم كبور ، والشكر لله بدءاً ، وختماً ، فمنه التوفيق ، والسداد ، بيده العون ، والخير كله ، وهو الذي يعلم الإنسان ما لم يعلم ، وفوق كل ذي علم عليم .

مَهَيِّدٌ

قامت حياة العرب في الجاهلية على مبدأ البطولة ، ومفهوم الشجاعة التي كانت تعمقها في نفوسهم الأنفة ، والعنفوان ، والحمية فجرّتهم إلى الويلات ، والحروب ، فكانوا يتمادحون بالموت في ميادين القتال ، ويتهاجون بالموت حتف الأنف .

ويقول الألويسي عن كون العرب أشجع من غيرهم : " فلأنّ الشجاعة من الصفات الغريزية ، والسجايا الطبيعية ، وقوة للنفس معنوية ... والعرب لم تزل رماحهم متشابكة ، وأعمارهم في الحروب متهاكة ، وسيوفهم متقارعة ، وأبطالهم في ميادين الغوغاء ^(١) متنازعة ... " ^(٢) . والبطولة عندهم تشمل النجدة ، وإجابة الصرخ ، والتغني بالشجاعة ، والمروءة ، ووصف الحروب ، والمعارك ، وما فيها من الشدة ، والهول ، ووصف المغامرات ، والمخاطر المشتعلة عليها ، والصبر على القتال ، ومجالد الكماة ، وكان شعرهم ينطق بما كان لهم من سبق القدم في هذا المضمار .

ومع ذلك فإن مفهوم البطولة في الجاهلية ينطوي على كثير من التهور ، والغرور ، والطيش ، وحب الظهور ، وتأتي الكثير منها على أذيال الباطل . وعندما جاء الإسلام رشّد البطولة ، ووجهها التوجيه السليم الذي يسهم في خدمة الدين ، والمسلمين ، ويبقيهم أقوياء على الأعداء ، محافظين على كياناتهم ، فنجد البطولة بكل ملامحها القديمة مثل وصف المعارك ، والسطوة في الحرب ، والاثخان في العدو ، وتحمل المخاطر ، والشدائد ، مع انتفاء بعض العوامل المسببة لها مثل العنصرية ، والسفه ، فقد استطاع الإسلام أن يضع للبطولة إطاراً زاهياً ، وجعل لها أهدافاً سامية ، وخالدة . وفي المقابل كان الجبن مكروهاً في الإسلام ، ولكن لا يصل إلى حد —

(١) الغوغاء : الأصوات المختلطة في الحرب ، ونطلق مجازاً على الحرب من باب تسمية الشيء باسم المسبب عنه .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، السيد محمود شكري الألويسي ٣ / ١ ، شرح محمد بهجة محمد أثري ، المطبعة الرحمانية . مصر ، (ط٢) سنة ١٩٢٤ م .

التشهير بالجبان ، والانتقاص من قدره ، أو حتى التعرض له ، وهذه من سماعة الإسلام ، ولكن الإسلام يذم القعود عن القتال في المواضع التي تجب فيها ، وقد ساعد الإسلام على إشاعة الروح البطولية بما أعدّه الله للمجاهدين ، وأهل النجدة والبأس من جزيل النعم ، والثواب ، فتسابق الشباب المسلم ، بل والكهول إلى إرتياد آفاق المجد ، والدوران حول قطب فلك البطولات .

وقد ظلت البطولة في الجاهلية ، والإسلام زينة الرجل ، وحلية فضله يرتفع بها إلى مراقي النجوم ، ويخلد بذكره في سجل الخالدين ؛ فقد كانت الظروف ، والأحوال السائدة حينذاك تتيح للأبطال إثبات بطولاتهم ، والتدرب عليها ، وإذا قارنا بين العصر الجاهلي ، والعصور الإسلامية السابقة من ناحية ، وبين العصر الحديث من ناحية نجد أن هناك بعض السوانح تلوح من حين لآخر في مجال البطولة ، أما في العصر الحاضر فمجالات البطولة بمفاهيمها القديمة لم تعد متاحة ، ولكن مع ذلك ظهرت مجالات أخرى كالرياضة الخطرة . مثلاً . وما فيها من حمل أثقال ، ومصارعه ، وسباق ، وغيرها .

أما الأخلاق ، والقيم الفاضلة فقد وُجدت مع الإنسان منذ بدأ الخليقة ، ففي العصور الجاهلية القديمة نجد الكرم بمفهومه الواسع الذي يصل إلى حد التبذير ، وإتلاف المال ، يقول الألوسي عن كرم العرب ، وسخائهم : " فذاك الذي لا يحتاج إلى بيان ، ولا يعوز إلى إقامة دليل ، ولا برهان ، فقد شهد لهم به الأوداء ^(١) ، والأعداء ، واعترف لهم الأقربون ، والبعداء ، إذا ألمّ بهم ضيق حكموه على أنفسهم ، واستهانوا له ما وجدوه من أنفسهم ... " ^(٢) .

ومن القيم القديمة أيضاً الصدق ، والوفاء ، وصيانة العهد ، فتفاخروا بذلك إلى أبعد مدى ، حتى لكانها لا توجد في أنفسهم سواها ؛ فهي عقيدة الجاهليين تمدّحوا بها ، وافتخروا بتمسكهم بها ، وكان غاية ما يكرهونه الكذب ، والغدر ، ونقض العهد ، حيث يرونها من مساوئ الذنوب ، وكبائرها .

(١) الأوداء : أهل المودة ، والمراد به الأحباب ، والأصدقاء .

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٤٦ / ١ .

ومن أخلاقهم الفاضلة في الجاهلية الحلم ، وسعة الصدر ^(١) ، وتحكيم العقل في القول والفعل ، وكانوا يمدحون ساداتهم بها ، ويضمنونها مفاخرهم ، وقد لهجوا بها ، ولو لم يكونوا بالغين به مبلغاً عظيماً لما ذكروه في أشعارهم ، وفي مقابل الحلم عندهم الجهل ، والخفة ، والطيش .

والحلم عندهم يسع الصفح عن المسيئ ، والإمساك عن ردّ الإساءة بمثلها ، وامتلاك النفس عند الغضب ، وتحمل الأذى ، والتوسط بين الخصوم إلى جانب الوقار ، والرزانة .

ومن القيم الفاضلة في الجاهلية ؛ إسداء النصح ، والإرشاد ، وتقديم الحكمة ، والموعظة ، والدروس المفيدة في الحياة الكريمة ، ونجد هذا في بعض خطبهم ، ووصاياهم ، وبعض أشعارهم ، ولا يقتصر تناول هذه الأمور في أغراضهم الأدبية المرتبطة باعتقاداتهم الدينية فحسب ، بل نجدها في كثير من الأغراض الأخرى ، وهذا يعود لطبيعة العمل الأدبي في العصر الجاهلي حيث تتعدد الموضوعات ، وهذا لا يتنافى مع دعوتهم في كثير من الأغراض إلى المفاصد ، والشرور .

وكل هذه القيم الفاضلة امتلأت بها أشعارهم ، وعندما اندلعت الشعوبية اعتمد عليها العرب في الدفاع عن عنصرهم ، ومجدهم ففضلوا بها على غيرهم من الشعوب . عندما جاء الإسلام أقرّ كل هذه القيم ، وحثّ عليها ، ولكنه وضع لها الحدود ، والقيود بالقدر الذي يحفظ على المسلمين حياتهم، ويحقق لهم مصالحهم ، و تصلح لهم شؤونهم قال ﷺ: " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ " ^(٢) .

ومنذ فجر الإسلام ، وإلى العصور التالية تغنى الشعراء بالبطولة ، والحماسة ، والفروسية في أسمى معانيها ، وأفخم صورها ، فسجلوا الوقائع ، وتركوا صفحات بيضاء في سجل التاريخ . وتغنوا كذلك بالشيم ، والقيم النبيلة التي هذبها الإسلام

(١) تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري ٤٢/١ ، وما بعدها ، الطبعة البوليسية سنة ١٩٥٥ م ، وبلوغ الأرب للألوسي ٩٩ / ١ .

(٢) الموطأ ، للإمام مالك بن أنس ٦٩٠/٢ ، طبعة دار الحديث . القاهرة ، بدون تاريخ .

، ودعا إليها ، واستمرّ الشعر العربي يزدهو بالبطولة ، والقيم الإسلامية حتى جاءت العصور المظلمة في حياة الأدب .

وقد أحيا البارودي كل القيم البطولية ، والإسلامية في شعره ^(١)، فبعد تلك العصور المظلمة خبا بريق الأدب العربي ، وانطفأت جذوته ، ونسج العنكبوت عليه خيوطه ، وباض الحمام ، وضرب الجهل ، والقهر عليه بجرانه ، وتضاءل الشعراء أمام الأدب ؛ فقد نكرهم الأدب ، وأوجس منهم خيفة حين رأى أساليبهم الغثة لا تصل إليه فمالث البارودي أن جاء بعجل حنيد ، جاء بعصا موسى فضرب به على بحر الركاقة ، والضّحالة فانلق فكان كل فرق كالطود العظيم فوجدت النهضة الشعرية طريقها يبسا فخرجت إلى برّ الأمان .

فالبارودي هو خير من يمثل البطولة ، والقيم الإسلامية في شعره عبر مدرسته الإحيائية ؛ فهو يعد . بحق . النموذج المثالي لهذه القيم مجتمعة . وفي السطور التالية نلقى بعض الضوء على بعض الجوانب في حياة هذا الشاعر .

(١) الشعر واللغة ، لطفي عبد البديع ص : ١٥٥ ، طبعة دار المريخ للنشر ، الرياض سنة ١٩٩١م .

١. المولد والنشأة :

هو محمود سامي بن حسن بن حسني بك بن عبد الله بك الجركسي ، والبارودي نسبة إلى (أيتاي البارود) من مديرة البحيرة التي كانت خاضعة لأحد أجداده قديماً ^(١) ، وينتمي محمود سامي إلي المماليك الذين حكموا مصر قبل أن يطيح بهم محمد علي باشا ^(٢) .

ولد البارودي سنة ١٨٣٨م بمصر ^(٣) ، مات أبوه وتركه يتيماً ، ولكن اليُتم لم يسلمه إلى الضياع ، فقد تعهدته أمه بأفضل المؤدبين ، والفقهاء ، والعلماء ، فنشأ نشأة علمية رائدة ، ثم دخل المدرسة الحربية وتخرج منها ضابطاً صغير السن ، وكان لقوة شخصيته ، وصبره ، وثبات جنانته ، وذكائه أثراً مباشراً في نيله الرتب العسكرية ، وتمتعه بثقة رؤسائه وقادته ^(٤) .

وعندما تخرج من المدرسة الحربية لم يجد عملاً على الفور ، فاشتغل بدراسة الشعر العربي في عصورها النضرة ، وسافر إلى الأستانة ونهل من معين مكتبتها الضخمة التي كانت تحوي نفائساً من كنوز التراث العربي في أزهى عصورها ^(٥) .

وندرك مما سبق أن البارودي نشأ عسكرية صقلت إحساسه بالبطولة ، ونشأ نشأة دينية عمقت في نفسه الإحساس بقيم دينية ، ونشأ نشأة أدبية أعانته على التعبير الشعري الجيد ، ونشأ نشأة علمية أمدته بالثقافة ، والمعرفة اللازمة للعابرة ورواد النهضة .

(١) الأدب العربي وتاريخه ، محمود مصطفى ٣/ ٤١٤ ، طبعه مصطفى الحلبي . مصر سنة ١٩٣٧م .

(٢) شعراء خالدون . السيد علي إبراهيم ص: ١٤٨ ، (ط ١) . دار حمد ومحيو . بيروت سنة ١٩٧٣م .

(٣) الأدب العربي المعاصر في مصر ، د. شوقي ضيف ص : ٨٣ طبعة دار المعارف ، بدون تاريخ .

(٤) الأدب العربي ، وتاريخه ٣ / ٤١٥ .

(٥) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٨٤ .

وقد تقلّب البارودي في عدد من المناصب العسكرية والسياسية ، واشترك في الثورة العربية ، وبعد فشل الثورة نفى إلى جزيرة سرنديب ^(١) بالهند ، وبقي بها سبعة عشر عاماً ، ثم عُفي عنه ، وعاد إلى بلاده وتوفي سنة ١٩٠٤م .

شخصيته وشاعريته :

تكاملت شاعرية البارودي بنفس الطريقة التي كانت يصطنعها الشعراء العرب الفرسان ، فلم تكن أشعاره ظلالاً مطموسة لنفسه ، ولا انعكاسات ممسوخة لغيره ؛ بل هي صور دقيقة لشخصيته بحقائقها ، وقيمها البطولية والإسلامية ، ونزعاته النفسية ، فقد شيّد لنفسه بشعره عدة تماثيل يحكي كل منها عن بطولة فذة ، ويكشف عن نبل عريق ، وقدم راسخ في أرض الفضائل والمكارم ، أما بقية الشعراء قبل البارودي ؛ فقد ضاعت شخصياتهم في أشعارهم حتى توارت بالحجاب ، بعد أن تهالكوا بها على أعتاب السلاطين .

فقد اعتمد البارودي كما اعتمد الشعراء القدامى ؛ من جاهليين ، وإسلاميين على تكوين سلفيته الشعرية باحتذاء أشعار النابهين حتى انطبع ملكتهم الشعرية في ذهنه ، وبالتالي فإن شاعريته لم تتكون بالطريقة التقليدية المتبعة في عصره التي كانت تتردد بين النحر والصرف ، والبديع والعروض ^(٢) .

وقد تهيأت لشاعرية البارودي عوامل عديدة جعلت من شعره النفخة التي بعثت الشعر العربي من أجدائه ، وخرجت بالبارودي من نطاق الشاعر العادي إلى رحاب الشاعر العبقرى الذي اقتحم على التاريخ أبوابه ، وتربع على عرش المجد الشعري ، وكان بذلك الممهد الأول لنهضة جديدة لم تخب بريقها إلى اليوم . ومن تلك العوامل التي هيأت شاعرية البارودي لأداء رسالتها الفنية :

١. الموهبة الفنية ، والمقدرة الشعرية على ابتداع المعاني ، وتوليدها كيفما شاءت له إرادته الأدبية ، إلى جانب خياله الخصب المحلّق في سماوات الإبداع ، والهائم في كل واد .

(١) سميت بعد ذلك (سيلان) ثم أطلق عليها (سري لانكا) أي : جزيرة الزهور .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ، د. شوقي ضيف ص: ٩٨ ، (ط ٢) . دار المعارف . مصر ، بدون تاريخ .

٢. ما اكتسبه من قراءاته في الشعر العربي القديم ؛ حيث وجد فيه مظاهر البطولة ، ومخايل الشهامة ، والأساليب الشعرية الفخمة ، والألفاظ الجزلة ، والصياغة المتينة ، والأخيلة الرحيبة المستمدة من البيئة القديمة ؛ فأثر في توحيد شعره وتوظيف خياله ، وأثر كذلك في موسيقي شعره ، وأسلوبه .

٣. سعة آمال الشاعر وطموحه في الحياة ؛ فقد كان عالي الهمة ، طمّاح النفس .
٤. إحساسه بكرم أصله ، واعتزازه بماضي أسلافه من المماليك الذين عرفوا بالفروسية ، والشجاعة ، فأورثه ذلك حدّة المزاج ، والطموح الكبير ، ومنحه ميلاً إلى التغني بحياة الفروسية ، والحرب ^(١) .

٥. الثقافة الإسلامية التي قوامها القرآن الكريم وعلومه ، الذي درسه في مقتبل عمره ^(٢) ، والقرآن الكريم يوصل المواهب الأدبية ، ويسهم في تكوين شخصيّة الأديب .
والقرآن بحر زاخر بالقيم ، والشمائل الفاضلة .

٦. إلمامه باللغتين : التركية ، والفارسية اللتين أتاها له الأخذ من الثقافة التركية ، والفارسية ، وعلى الرغم من أن تأثره بالآداب التركية ، والفارسية لم تكن في عمق تأثره بالثقافة العربية الأصيلة ، إلا أنها أضافت لشعره سمات جديدة .

٧. ما لاقاه من الأذى ، والعراقيل ^(٣) وما حال بينه وبين ما تشتهيه نفسه ؛ فكثير من الشعراء غير البارودي تفنّقت شاعريتهم ، وتهذبت طباعهم ، ونما تفكيرهم ، واتسعت آفاق أخيلتهم ، وصفت قرائحهم ، وجاد ببيانهم على إثر المحن والخطوب التي ألمّت بهم .

٨. الحركة السياسية المائجة في مصر ؛ فقد حرّكت في نفس البارودي النزعة الوطنية فازدادت عاطفته حرارة وقوة ، وامتدت لتشمل كل ما تجيش به نفسه يعينه على ذلك حسّه المرهف ، وشعوره المتدفق ؛ فتفجرت فيه ينابيع الحماسة ،

(١) في الأدب الحديث ، عمر الدسوقي ١٧٨/٣ ، طبعة دار الفكر العربي . القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص: ٩٧ .

(٣) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ، د. إبراهيم أبو الخشب ص: ٢١٧ ، وما بعدها ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (ط٤) سنة ١٩٩٢ م .

والتغني بسماحة الإسلام^(١) .

٩- اتصاله بالشيخ حسين المرصفي^(٢) صاحب كتاب (الوسيلة الأدبية في علوم العربية) فقد أخذ بيده في مجال الأدب ، والثقافات ، وشجّعه على اقتحام حلبة الشعر ، واحراز قصب سبقها^(٣) .

١٠- الصحوة الحضارية في المشرق العربي ، وحركة بعث التراث العربي ، والإسلامي ؛ فالنهضة الأدبية التي قادها البارودي لم تأت من فراغ بل أتت تحت مظلة هذه النهضة التي تراوحت فيها درجات التقليد ، والاقتباس ، والتوليد ، والتجديد في مختلف أضرب الأدب ؛ فنضج ذوق البارودي ، وتكامل حسه الشعري^(٤) .

٣. عصره :

جاء البارودي في عصر كانت كل العوامل فيه مهيأة لأن يصدح فيها بقيمه الإسلامية ، ويتغنى ببطولته ؛ فقد جاء في عصر اكتمل فيه الإحساس بالشعور الوطني ، والقومي ، وتبلورت فيه الرؤى لمستقبل مصر السياسي ، وبدأت فيه الحياة الفكرية الحديثة ؛ فقد شهد عصر البارودي النهضة الكبرى في كافة المجالات ؛ خاصة العلمية ، والثقافية ، واضطربت فيه الفتن السياسية الهوجاء التي كانت لها انعكاساتها الخطيرة على الحياة العامة ؛ فهناك التدخل الأجنبي السافر في شؤون البلاد ، وهناك الخديوية ومن والاهم من الشعب في سدانة الحكم يسبحون بحمد المستعمر المتربص ، وهناك سوء الإدارة المالية الذي كان يهدد

بانهيار الاقتصاد إلى جانب القهر ، والتسلط على أفراد الشعب المقهورين ؛ فظهرت الصحافة المناوئة لتردي الأحوال^(١) .

(١) دراسات في الأدب العربي على مر العصور ، د. عمر الطيب الساسي ص: ٧٩ ، طبعة مكتب دار زهران ، سنة ١٩٩٥م .

(٢) الشيخ حسين المرصفي أحد رواد النهضة ، وحاملي مشاعل الجهاد ، والفكر ، وكان صديقاً شخصياً للبارودي ، وقد رثاه البارودي مع عبد الله فكري بقصيدة جاء فيها :

أين مني (حسين) بل أين (عبد الله) م رب الكمال والآداب .

(٣) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ص: ٢١٧ .

(٤) الشعر العربي الحديث ، والمعاصر ، د. محمد شوكت ، د. رجاء عيد ص: ٦٢ ، وما بعدها ، طبعة دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

وتحركات المقاومة الوطنية لإنقاذ البلاد من ورطاتها مع وجود الأيدي الخفية التي تتقضى ما غزله الوطنيون بعد قوة أنكاثاً .

وخلال هذه الأوضاع المتردية في مصر كانت البلاد في حاجة إلى قيادات شابة قوية مترعة بالشعور الوطني لتقودها في هذا الخضم إلى بر الأمان ؛ فبرزت عدد من القيادات على رأسها البارودي الذي صقلته تلك الأوضاع ، وخلقت منه شخصية قيادية متكاملة .

وكان قادة العمل الوطني حينذاك لا يملكون إلا عزائمهم حيال عدو لا يرقب فيهم إلاّ ولا ذمة ، فاتجه البارودي إلى الاعتماد على الناحية الروحية ، والتمسك بالمثل والقيم في تعبئة الناس ، وتبصيرهم بالحق .

وعليه فإنّ عصر البارودي كان يتميز بشيئين : النهضة في مختلف مجالات الحياة ، واضطراب الأحوال السياسية ، وكان لكل من هذين العاملين أثره على أدب البارودي .

٤ . شعره :

كان شعر البارودي سجلاً لحياته الحافلة الطويلة ؛ فقد كان لكل ما يجري في حياته أثر في تكوين وجدانه ، وخياله ، وتحديد نزعتيه وميوله ، وقد كان قلب البارودي نهباً للمطامع والطموح^(٢) ، وكانت نفسه مقسمة بين هموم وطنه ، وآمال شعبه ، وبين آماله ، وأمنيّاته الشخصية ؛ فجاء شعره صدى لذلك .

شعر البارودي بما يحويه من قيم ، ومثل إسلامية ، وبما اشتملت عليه من سمات البطولة ، وملامح الفارس العربي الأصيل يمثل ثلاثة تيارات :

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١١ ، وما بعدها .

(٢) الأدب العربي وتاريخه ٤١٦/٣ .

أولاً: التيار القديم الموغل في الجزالة ، و الصورة الشعرية التي تعبر عن العزة ، والشمم وبلوغ المآرب بحد السيف ، وأسِنَّة الرماح ، وصبّ السياط على ظهور الجياد حتى تعكر بركضها صفاء أفق الصحراء .

ثانياً : التيار الديني المتحدر من قم الإسلام ، المنسابة على سهول الأخلاق تعانق شواطئ الفضيلة ، وضاف الإنسانية تلك الينابيع العذبة التي ترى في قوة الروح الإيمانية أكبر باعث على النصر والتقدم .

ثالثاً: تيار المدنية الأوروبية التي أخذ بها بأطراف أنامله ؛ والمدنية الأوروبية قائمة على مبدأ الحريات العامة ، وتتاضل بقوة ضد الظلم ، والاستعباد ، وكافة أشكال الاستعمار ، وتتادي بالثورة على انتهاك حقوق الإنسان ، تلك المدينة التي تربي في الإنسان الشعور الوطني ، والحس القومي .

التقى في شعر البارودي كل تلك التيارات فكانت بحراً واحداً تشابهت مياهه ، واتحد مذاقه ، وقوي مدّه وموجه ، وفي أعماقه الدرّ كامنٌ .

ومن هنا كان البارودي يمثل حلقة وصل مهمة بين أضلاع مثلث الفكر العربي المعاصر وهي : البطولة بصورها القديمة ، والقيم الإسلامية بمذهبها التربوي للسلوك الإنساني ، ومواكبة الحياة المتجددة لخدمة القضايا المعاصرة . وهو عندما يعبر عن بطولته ، وقيمه العليا إنما يصور هذه النواحي في شعره ، ومن هنا كان شعره نقطة تلاق حتمية لكل التيارات التي لها تأثيرها الكبير على الحياة الأدبية .

وشعر البارودي ينم عن فلسفته في الحياة ، وأسلوبه الشعري ، ومنهجه الفني ؛ ففلسفته قائمة على أن التعاليم الإسلامية هي الأساس التي تقوم عليها صرح المجتمعات ، والأمم المتحضرة ، وتُبنى عليها حقوق الشعوب ، ومن هنا حاول البارودي إيجاد علاقة عكسية بين المفاصد الاجتماعية ، والقيم الإسلامية التي يدعو إليها ؛ فأخضع الهجاء ، والشكوى ، والحكمة لإرساء فلسفة أفكاره . أما أسلوبه فقائم على المزوجة بين القديم ، والحديث بحيث يعالج القضايا المعاصرة ، ويعبر عن آماله في قالب قديم لا يفقد أدبه الرونق والبهاء ، والقوة ،

ويستعين بالجزالة ^(١) التي لا توغل في الغريب والوحشي ؛ فقد كان البارودي مقلداً حقاً ، ولكن تقليده في غير جمود ، أو سقم بل تقليد يحتذى الأفضل ، وينتقى الجوهر ^(٢).

وكان شعر البارودي مفعم بالثقافة الإسلامية التي تشرب بها منذ نعومة أظفاره ، وكان مفعماً بالثقافة العربية التي تنقف بها ، وظل ينهل من معينها زمناً طويلاً ^(٣) .

كان يعتني عناية فائقة بتنقيح شعره وصقله حتى تستوي نماذجه ، وتكتمل لوحة معانيه بإطارها الزاهي ، وهذه العناية جعلت أعماله قوية كالبناء الموطد ، وجعلت نسيجه محكماً ^(٤) ، وهو في اهتمامه بتجويد شعره أشبه بعبيد الشعر في العصر الجاهلي .

وإحساس البارودي بشجاعته وبطولته ، واعتزازه بماضي أجداده ، واعتزازه بماضي تاريخ العرب ، ورغبته في نيل قطوف المجد ، جعله ينصرف عن احتراف الشعر النمطي إلى تصوير خلجات نفسه وتجاريه ومن ثم ربط بين الشعر ، والطموحات النبيلة ، والحياة من حوله وبذلك وضع حداً لقصيدة المديح معلناً بدء عهد التجربة الشعرية متخذاً من القومية ، والبطولة ، والنوازع الإنسانية مدخلاً لإرساء قواعدها ، وتثبيت دعائمها .

والبارودي بما فيه من انسياق وراء الفخر ، والحماسة ، وبيان المواقف البطولية ، و وصف المشاهد المتصلة بها ، حقق لشعره نوعاً من التلاحم ، والترابط بين موسيقاه ، وموضوعاته ، وصوره الشعرية ، ولغته ، ووقّر له وحدة المزاج ، ووحدة العاطفة ، أو ما يُعرف عند النقاد المعاصرين (بالوحدة العضوية) وهو بذلك قد أدار ظهره للقاعدة التي تتخذ من البيت وحدة القصيدة .

(١) الأدب العربي وتاريخه ٣ / ٤١٦ .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص: ٧ .

(٣) المرجع السابق ص: ٧٧ .

(٤) المرجع السابق ص: ٧ .

تمسك البارودي بقيم الإسلام ، وإيمانه برسالة الشاعر المسلم الذي يجب أن يبلغ عن الرسول ﷺ . ولو آية دفعه إلى التزام الأمانة في التعبير عن مشاعره ، وتجسيد آرائه الدينية ، والاتجاه إلى مخاطبة القاعدة الاجتماعية العريضة بالقواسم المشتركة في إدراكها للفضيلة ، ودفعه ذلك أيضاً إلى التزام الأسلوب التقريري ، والخطابي ، والتغني بالقيم الإسلامية ، وبذلك طور وظيفة الشعر العربي الحديث ، وبعث القديم بعثاً جديداً ، وانتقل بالشعر من غاية جمالية إلى أداة تسهم في تربية المواقف النفسية ، وترتقي بالذوق العام إلى درجة تذوق المعاني التي ربما لا يلتفت إليها لو جاءت في قوالب تعبيرية أخرى .

واستطاع البارودي أن يقيم علاقة قويّة بين البطولة ، والقيم الإسلامية في شعره باعتبار أن القيم الدينية تعطي شخصيته ملامحها ، وخصائصها ، وتبقي عليها لامعة ساطعاً ضوءها تغشى البلاد مشارقاً ومغارباً.

٥ . أهم الفنون الشعرية :

اشتمل ديوان البارودي على عدد من الفنون الشعرية التي ضرب في كل نواحيها بسهم نافذ ، وكان خياله قيد أوابد المعاني ، ومن أبرز تلك الفنون :

١- **الشعر الوطني** : الذي تغني فيه بالمشاعر الوطنية ، والقومية السامية ، واستتهض فيه الهمم ، وتناول فيه ماضي الأمة المصرية ، وأمجادها الخالدة .

٢- **شعر المقاومة** : الذي كان يهاجم فيه مساوئ المستعمر ، ويحارب فيه الفساد الاجتماعي ، والاستبداد السياسي ، ويحرّض فيه قومه على الثورة ، والمطالبة بحقوقهم المشروعة .

٣. **الشعر الاجتماعي** : الذي أظهر فيه مسئوليته التربوية تجاه مجتمعه ، وحثه على التحلي بمكارم الأخلاق ، وأظهر فيه تعاطفه مع أبناء شعبه .

٤. **الشعر الديني** : الذي كان ينصح فيه ، ويرشد ، ويقدم الحكم والمواظ ، ويدعو إلى الصبر والمعروف ، والزهد ، ويكاد يكون شعر الزهد عنده فنّاً منفصلاً ذا أسلوب خاص ، وقد سلك فيه مسلكاً وسطاً بين اليأس ، والأمل وحتّى عندما انهزمت الثورة وذهبت أحلام الثوار أدراج الرياح ظلت الآمال تطل برأسها في سماء القنوط ،

وتشوبها النزعات الإيمانية التي تتمثل في الرضا بما قسمه الله ، والاستسلام لمشيتته .

٥- **شعر الصبا** : وهو الذي كان يعبر فيه عن صباه ، وما تخلله من مغامرات ، ومواقف عاطفية ، ولهو ، ونجد في هذا النوع من الشعر حنيناً شديداً إلى تلك الأيام . وشعر البارودي في هذه الناحية لا يختلف عن غيره من الشعراء إلا ما فيها من لمحات فنية .

٦ . الأغراض الشعرية :

ضم ديوان البارودي ذو الأجزاء الأربعة عدداً كبيراً من القصائد ؛ اشتملت على أغراض عديدة تدل على شاعرية عظيمة خصبة ، ومقدرة هائلة على القول ، وابتداع الكلام ، كما تدل على استجابة بديهية تتفاعل مع كل الأحداث ، وهذا العامل جعل أغراض البارودي تتعدد ، وتتنوع .

ومن هنا كان ديوانه يمثل عصرًا كاملاً ؛ لما فيه من تنوع في الأغراض ، والموضوعات :

١. **الفخر الذاتي** : المنهج التقليدي في الشعر عموماً يمنح الشاعر مفهوم الذاتية من حيث تصوير المشاعر ، والخواطر النفسية ، وهذا ما كان يفعله شعراء العرب في غابر عصورهم عندما يعبرون عن أنفسهم ، والبارودي جنح إلى تصوير ميوله النفسية في البطولة ، والزعامة ^(١) .

٢. **معالجة القضايا الاجتماعية** : وذلك من خلال المنظور الديني فهو يرى أن التزام الأفراد بالجانب الأخلاقي القويم هو السبيل الوحيد إلى تجاوز المحن ، والعقبات ؛ فكان يحاول معالجة القضايا ، والأمراض الاجتماعية عبر النصيح ، والإرشاد ، والموعظة .

(١) أضواء على الأدب العربي المعاصر ، أنور الجندي ص : ١٤١ ، مطبعة : دار الكتاب العربي ، القاهرة

٣. **الزهد** : تناول البارودي الزهد في شعره كثيراً ؛ فقد كان ينظر إلى الدنيا ، وما يجري فيها بمنظور ديني واقعي ، وقد رأى بعينه كيف تبدو الأشياء وتزول ، وعاش محناً ، و ابتلاءات عمقت في نفسه هذه النظرة ؛ فأخذ يدعو إلى التأمل فيما مضى ، ويخوف من الموت ، والحساب ، ويدعو إلى التأمل والاعتبار .

٤. **الحكمة** : وجاءت الحكمة في أثناء العديد من قصائده ؛ فهو شاعر أنضجته التجارب ، وكانت حياته الطويلة حافلة بمختلف الأحداث المتناقضة ، ونال حظاً وافراً من الثقافة والعلوم مما أهله ليكون شاعراً حكيماً يصدر القول عن نفس ممتلئة بالتجارب ، والعبر والنظرات الصادقة .

٥. **الوصف** : وهي من الأغراض الأصلية في شعر البارودي ، حيث كان يجيده كأمرء الشعر في العصر الجاهلي ، ويتركز وصف البارودي في وصف المعارك الحربية التي شارك فيها حيث يبرز فيها بطولته ، وفي وصف المشاهد الطبيعية التي يعبر من خلالها عن عظمة الخالق ، وفي وصف أيام صباه وغابر حياته ، وكان يعبر فيها عن الحنين ، والوفاء ، وفي وصف آثار مصر ، وغيرها .

٦. **الشكوى** : ومن من الناس لا يشكو ، أو يتألم من وطأة الحياة ومرارتها ؟ وكذلك البارودي ، و لكن الملاحظ أن معظم شكوى البارودي كان محصوراً في تبرمه من الظلم ، والتعسف ، والرذائل التي تخالف قيم الشرف ، والأصالة الدينية ، وهي بذلك ثورة على الشرور ، والمفاسد ، وكان يشكو أيضاً من قسوة الأقدار ويتجلى ذلك في شعر المحن ، والخطوب التي ألمت به ولكن شكواه شكوى القوى الذي يفرغ إلى الله في الشدائد ، وفي كل مالا يطيق له دفعاً ، و نلمح أيضاً في هذا النوع من الشعر دعوة إلى الصبر ، والاستسلام لمشئئة الله ، وهي من أروع القيم الإسلامية .

٧. **الدعوة إلى الفضيلة** : وهي أيضاً من الأغراض الأصلية في شعر البارودي فهو يزين للناس المكارم ، والأخلاق وخصال الشرف ، ويقدم النصيح ، والإرشاد ، والموعظة الحسنة ؛ فقد أفاد من علومه في القرآن ، والفقه ، والأدب الإسلامي ، ومن تجاربه في الحياة .

٨- **المَدح** : لم يكن البارودي مستجدياً بشعره متكسباً به ، ولم يكن متملقاً متزلفاً يبتغي به جاهاً أو قربى عند الوجهاء ، بل كان يمدح بدافع الإعجاب بما يتحلى به ممدوحه من الصفات الكريمة ، وهو من خلال ذلك يمجّد تلك الصفات المحمودة ، والقيم الرفيعة ، ويقدمها نماذج للناس حتى يحتذوها . ومع ذلك فالمدح قليل في شعره .

٩- **الهجاء** : لم يكن البارودي يهجو بدافع الحقد ، والاعتداء الصارخ على الأعراض ؛ بل كان هجاؤه بدافع الغيرة على الفضيلة ؛ فهو ينتقد فيمن يهجو كل الرذائل ومن جهة أخرى يحذّر الناس من تلك الرذائل . وهو وإن كان مع ذلك يشفي غليله . إلا أنّه مع ذلك يكون قد حارب شكلاً من أشكال المفاصد ، وفي المقابل يعتبر ذلك دعوة إلى السماحة ، والأخلاق الفاضلة .

١٠- **الغزل** : تغزل البارودي في النساء ، وعبر عن عاطفته تجاههن ، ولكنه ليس غزلاً فاضحاً يخدش الذوق ؛ بل غزل عفيف سلك فيه مسلك الشعراء الفحول الفرسان الذين يعبرون عن عواطفهم نحو المرأة . ونجد في غزل البارودي عاطفة نبيلة شريفة لم تتدنس بالشهوات ، أو تخضع لوساوس النفس الآثمة ؛ فقد سما بعاطفة الحب إلى الطهر ، ونادى بالعفاف ، والبعد عن الرذائل في العشق ، وهو هنا يدعو إلى الفضيلة ، ويُعدّ أفضل من غيره من الذين يدعون إلى الفساد ، ويزينون الشهوات .

١١- **الرثاء** : رثى البارودي أصدقاءه ، وأهله في قصائد تعبر عن الحب ، والوفاء ، والحسرة ؛ يبرز من خلالها محاسن المتوفى ، وله في الرثاء فلسفة جديدة ! فهو يرى أن إظهار الجزع على الميت . في حدود الدين . هو دليل المحبة والوفاء .

ونلاحظ أن هذه الأغراض في عمومها ، و على اختلافها تحمل في مضمونها الفكري هدفين : إبراز البطولة وما ترتبط بها من معاني الحماسة ، والعزة ، والإباء ، والتطلع إلى الأمور ، والثانية : الدعوة إلى المكارم ، والفضائل ، وما تشتمل عليه من القيم الإسلامية الفاضلة . وقد استطاع البارودي أن يجد رابطاً بين كل هذه الأغراض المتنوعة ، وأن يسخرها ، ويطوعها للتعبير عن أفكاره .

٧. مميزات شعره :

ولعل أهم ما يَتميّز به شعر البارودي هو صدق التجربة ؛ فقد كانت أشعاره نابعة من أحداث واقعية عاشها الشاعر ^(١) ، وامتزج بها ، ولذا فهو في فخره يستهويننا بصدق لهجته ، وما تملأ تلك اللهجة من قوة ، وطموح . وكذلك كان البارودي لصيقاً بحياة الناس ^(٢) فصار قديراً على التعبير عن آلامهم ، وآمالهم ؛ فاشتمل شعره على كثير من الحكم ، والمواعظ ، وكثير مما ينفع الناس ، وعليه فإن شعر البارودي ينبع عن معاناة ذاتية عاشها الشاعر .

وكذلك يتميز شعره بجمعه الموفق بين روح التجديد في قالب عصري ، والحفاظ على تراث الأقدمين وبعثه ، ويتجلى ذلك في تصوير البطولة حيث اعتمد على الصورة الشعرية القديمة ، وفي تناوله للمعاني الإسلامية اعتمد على المفهوم العصري للأخلاق ، ومزج بين هذا وذاك .

ومما يميز شعر البارودي أيضاً روعة الخيال ، ودقة التصوير ، وسعة الثقافة الإسلامية ، والعربية التي نجدها في طيّ المعاني . وكذلك النزعة الإيمانية التي تدفعه لأن يسخر بعضاً من معانيه في سبيل الدعوة إلى الفضائل فاشتمل شعره على هدي الدين ^(٣) ، وشعره في هذه الناحية يعبر عما يحلم به من مثاليات أخلاقية تعكس بدورها حبّه للإنسانية ، وكذلك يتميز شعره بامتزاج الوطنية عنده بمعاني الحماسة ، والبطولة ، والقيم الإسلامية ؛ فالوطنية عنده لا تعني فقط الجهاد في سبيل البلد ، والفخر بالوطن ، والشعب ؛ بل تعني عنده كذلك إرشاد الأمة ، وتوجيهها لما فيه صلاحه .

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٨٠ .

(٢) دراسات في الأدب العربي على مر العصور ص : ٨٢ .

(٣) المرجع السابق ص : ٨٥ ، وما بعدها .

٨ . مكانته :

لا شك أن البارودي هو النموذج الحي الذي احتذاه الشعراء ، واقتفوا أثره ، وساروا على نهجه في أسلوبه في العصر الحديث ؛ فقد أتى بشعر متين ، متماسك ، عذب النغم ، حلو المعاني ، رائع الديباجة ، في زمن سيطر فيه الضعف ، والضحالة ، والصنعة على أساليب الشعراء ، وتحكمت فيها تفاهة المعاني ، وعقم الخيال ، وجدبه .

واستطاع البارودي أن يعلم جيله ، والأجيال من بعده كيف يردون مناهل الأدب العربي في عصوره الزاهية ، وكيف ينقبون عن كنوزه وذخائره ، وكيف يحيون المعاني القديمة ، ويبعثونها بعثاً جديداً ملائماً لأذواق حاضريهم ، واستطاع أن يؤسس مدرسة شعرية صارت لها تلاميذ يلتزمون نهجها ويدافعون عنها ^(١) .

وقد قفز البارودي بالعبارة الشعرية قفزة عالية حلق بها بعيداً عن وهاد الضعف ، والاضمحلال ، والركاكة ، و غداها بلبان خياله ، وجودة صياغته ، وكساها بروعة ألفاظه ، بعد أن تردت في مطامير الركاكة والضعف ، وجنحت إلى طريق الابتذال ^(٢) ، والبارودي وإن كان قد تأثر كثيراً بنماذج القدامى إلا أن ذلك لا ينتقص من ريادته ! فالشعر كان في حاجة إلى البعث ، والإحياء ، والتجديد ^(٣) فهو قد جمع بين القديم وخير ما فيه ، وبين الجديد وخير ما فيه ، وهذه رسالة أدبية جديدة تحملها البارودي ، وأرسى دعائمها .

ولا يقف فضل البارودي عند هذا الحد بل له . إلى جانب ذلك . فضل الانتقال السريع بالشعر من وهدة التردّي إلى قمم الإبداع ؛ فقد كان رسول النقلة من عصر إلى عصر ، ومن حال إلى حال وقد ظهرت على يديه المعجزة الأدبية الحديثة ^(٤) .

(١) في الأدب الحديث ٣ / ٢٣٧ .

(٢) الشعر العربي الحديث والمعاصر ص : ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص : ٨١ .

(٤) الأدب العربي وتاريخه ٣ / ٤٢٠ .

ومن هنا فإن مكانة البارودي في الأدب العربي لا تُخفى ، ونعمته لا تُجحد ، وآثاره لا تُمحى ؛ فهو شيخ المحدثين ، وصانع المدرسة الإحيائية ، والجسر الذي ربط بين ماضي الأمة ، و حاضرها في مجال الأدب ^(١) ، وأعاد للشعر النضارة و الاخضرار ، والشباب ، و خلصها من أشواك البديع ، وفكَّ أسرها من سجون الابتذال ، والانحطاط ، وهو يستحق بلا منازع لقب (رائد الشعر الحديث) ، ولقب (الممهد الأول للنهضة الشعرية الحديثة) ، وكل النعوت ، والألقاب التي تؤدي المعنى نفسه .

قال عنه الدكتور شوقي ضيف : " ... إنه يعدّ حامل لواء الشعر العربي الحديث مهما اختلفت مدارس ، وتفاوتت مذاهبه بين المحافظة ، والتجديد ؛ إذ يشرف عليها جميعاً ، وكأنه المنارة الهادية بأضوائها إلى الطريق القويم ، ولا غلو إذا قلت إنه هو الذي مكّن لمصر أن ينشأ فيها شوقي ، وحافظ ، وغيرهما ... " ^(٢) .

٩ . آثاره :

للبارودي ديوان كبير من أربعة أجزاء ؛ تناوله كثير من الأدباء ، والباحثين ، والنقاد بالشرح ، والتحليل ، والدراسة ، والنقد ، وأسرف بعضهم في ذلك ^(٣) . واشتمل الديوان على العديد من القصائد الجيدة .

وللبارودي كذلك مختارات من الشعر العربي ضمّنها في مجلدات بلغت الأربع ، جمع فيها ما استحسّنه من شعر ثلاثين شاعراً من شعراء العصر العباسي ، ورتبها على سبعة أبواب حسب أغراض الشعر المعروفة ، ورتب فيها أقوال الشعراء في كل باب على غرار ترتيب وجودهم ، وحلّى مختاراته بتعليق لطيف بليغ يدل على ثقافته الواسعة ، وعلمه الزاخر .

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص : ٧ .

(٣) الأدب العربي وتاريخه ٣ / ٤٢٥ .

- وللبارودي أيضاً بعض الأعمال النثرية التي نشرت ، ولكنها لم تلق اهتماماً كبيراً من النقاد ، والدارسين وذلك لبعض الأسباب ومن ذلك :
- ١- تلك الأعمال نشرت في حدود ضيقة ، ولم تعاد نشرها مرة أخرى منذ ثمانينات القرن الماضي .
 - ٢- صغر تلك الأعمال النثرية وقلتها .
 - ٣- ما صاحبت تلك الأعمال من الشطب ، والطمس بحيث لم يتمكن الناشر من طبعها بالطريقة الصحيحة . فاعتمد على سليفته اللغوية في إكمال العبارات المطموسة .
 - ٤- لم تكن تلك الأعمال النثرية كلها من تأليف البارودي ؛ ففيها رسائل ترجمها عن أصحابها .
 - ٥- ضعف أهمية تلك الموضوعات النثرية التي تناولها .
- كانت تلك بعض المقتطفات لبعض الجوانب في حياة هذا الشاعر الكبير ، وقد تناولتها بإيجاز كتمهيد ، ومدخلاً إلى البحث الذي بصدد دراسته وهو (البطولة والقيم الإسلامية في شعر البارودي) وأسأل الله التوفيق ، والسداد ... إنه سميع مجيب .

الباب الأول

البطولة في شعر البارودي

وفيه فصلان :

الفصل الأول : أبرز الملامح البطولية في شعر البارودي.

الفصل الثاني : النصوص الشعرية وتحليلها .

الفصل الأول

أبرز الملامح البطولية في شعر البارودي

١. وصف المعارك الحربية .
٢. إيضاح سُبُل البطولة ، ومناهجها .
٣. الاعتداد بالنفس .
٤. تمجيد البطولة ، والحضُّ عليها .
٥. الاعتداد بالأهل ، والعشيرة .
٦. تصوير الهمة ، والتعبير عن الخلجات النفسية .
٧. وصف الفرس .
٨. حب العالي ، وركوب الصعاب .
٩. تمسّكه بالمواقف الصلبة .
١٠. وصف السلاح ، وآلة الحرب .
١١. النهج الشعري .

❖ أبرز الملامح البطولية في شعر البارودي :

للبارودي بصمات واضحة على أدبنا الحديث ؛ فقد عزف على فيثارة الأدب أروع الألحان في الشعر البطولي ، وولّد المعاني المترعة بالمفاخر ، والمآثر المحموده ، وسقى شجرة الأدب بعد ذبولها من فيض عبقريته الشعرية فأورقت فإذا هي تساقط رطباً جنيّاً ، فقرر عينه من بعد أن ألجأ الضعف إلى ركن الركافة ، والاضمحلال .

ولا شك أن البارودي هو ربّ السيف ، وشاعر الحروب ، والبيداء ، سجّل في عصره أسمى آيات البطولة ، والفروسية بمعانيها السامية ، وخلّد لنفسه مجداً باذخاً ، و نظم قصائد بقيت ذخيرة للأجيال من بعده .

ولبطولة البارودي في شعره سمات واضحة ، وملامح لا تخفى ، تناولتها بشيء من الدراسة ، والتحليل .

١. وصف المعارك الحربية :

جاءت طفرة البارودي الشعرية من صدقه الفني ؛ فقد جعل من شعره سجلاً لتجاربه ، وأحداث حياته ، فعبر عن المعارك التي خاضها ، وعن الأهوال التي واجهها في تلك المعارك ، وعمّا فعله بالأعداء فيها ، وهدف البارودي من ذلك إبراز التحديات التي لاقاها في المعارك ، وكيف أنه تمكن من تذليلها ليعكس بطولته (١) ، وشجاعته في ميادين الحروب ، وأراضي النزال .

والبارودي متأثر إلى حد بعيد بالشعراء الفرسان في العصور العربية القديمة ، وذلك التأثير نابع من إعجابه بالمنهج الفني عندهم (٢) .

يقول البارودي في تأثره بالشعراء القدامى :

وَالْيَكْ مِنْ حَوْكِ اللّٰسَانِ حَبِيرَةً يُغْنِيكَ رَوْفُهَا عَنِ التَّشْنِيبِ
حَضْرِيَّةَ الْأَنْسَابِ لِأَنَّهَا بَدْوِيَّةٌ فِي الطَّبْعِ وَالتَّرْكِيبِ

هذان البيتان وغيرهما مما قاله البارودي في هذا الصدد تعبر عن افتتانه بالنمط الشعري التقليدي من حيث البناء الفني ، والصورة الشعرية ، والقاموس اللفظي .

(١) في الأدب الحديث ٢٠٢/٣ .

(٢) الشعر العربي الحديث والمعاصر ص : ٦٧

ومن أشرف المواقف التي ترفع من قدر الرجل آنذاك البطولة في أرض المعركة ، حين يقاتل الفارس أعداءه فيبلي بلاءً حسناً ، فتمتلئ نفسه عزّة ، وشموخاً ، وكان هذا إحساس البارودي عندما يخوض حرباً ويحسن فيه الكرّ ، والفرّ فنجدّه يتدثر بالثوب العربي القديم ، ونسمعه يجلجل بصوت قوي هادر ، يأتي صده من عمق البيان العربي القديم .

ووصف البارودي للمعارك الحربية ^(١) قائم على أساسين :

الأول : وصف القتال وشدّته ، وكثرة الأعداء ، وشراستهم ، وما قام به من القتل ، والفتك ، والكرّ ، والفرّ ، و ما حققه من نصر مادي أو معنوي .

الثاني : وصف أرض المعركة ، وأهوال الطريق ، وما انطوى عليه من مخاطر ، وكذا كان الشعراء القدامى يفعلون ؛ حيث يصفون الصحاري القاحلة ، والأراضي الوعرة التي اجتازوها في سبيل الحرب ، ويصفون المشاهد الطبيعية القاسية المرتبطة بالمعركة .

وكانت هذه المعارك التي شارك فيها تذكي في نفسه نيران البطولة ، والشجاعة ، والروح القتالية فتتحدّر المعاني الحماسية في شعره مثل الحمم حيث يصور البطولة ، والمقدرة القتالية ، وهذا التصوير يأتي متناغماً مع ما يحسّه في نفسه ، ومع ما قرأه في دواوين الفحول الأقدمين ، ومنهما كان البارودي يستمدّ مادّة شعره حيث يستحيل عليه أن يستمد مادته من خارج أحاسيسه ، وثقافته ، وهو الذي جعل من شعره سجلاً لحياته .

(١) خاض البارودي عدداً من المعارك الحربية الطاحنة ، ومن ذلك الحرب الروسية سنة ١٨٧٧م ، والحرب في جزيرة (كريت) سنة ١٨٦٦م وغيرهما من المعارك راجع : البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص :

ويقول الدكتور شوقي ضيف ^(١): " ... ويشترك في حروب الدولة العثمانية فيصف وقائعها وصفاً دقيقاً ، تسعفه مخيلة ماهرة في التقاط المرئيات ، وعاطفة حماسية ملتهبة ، وبذلك يعيد لنا فن الحماسة القديم الذي عفي عليه الزمن ؛ إذ نفخ فيه حياة ، وروحاً جديدة " .

واهتمام البارودي بالمعارك الحربية نابع من كونها حروباً مقدسة ؛ فهي للدفاع عن العقيدة ، والوطن ، قد قدّم فيها تضحيات جسماً ، ولم يكن فيها جندياً عادياً ؛ بل كان ضابطاً ، وقائداً ، وشاهد بأم عينيه شدة القتال ، وشارك فيها مشاركة حقيقية ، فانطبق ما رآه ، وما شارك فيه مع كثير مما قرأه في كتب الشعر العربي ، فجادت قريحته ، وتفجّرت ينباع الحماسة في نفسه ، فطفق يصف لنا تلك المعارك ، ومواقفه في القتال حين يطأها ، فيزيدها من نار حربه شعلة ، ويشيرها حتّى تدور رحاها ؛ فيكون أوّل واقد يصلّى الوغى فيقود أوّل فارس يغشاها ، ويكون أوّل ضارب بمهند يفري الجماجم لا يريد سواها ، فيعلم الفرسان ، و الكماة بأنه شيخ الحروب ، وكهلها ، وفتاها .

واهتمام البارودي بتصوير المعارك أيضاً جاء صدى لما كان يتردد في الآفاق عن إقدامه ، وجرأته ، وما كان يناله من الرتب العليّة ، والنياشين ، والأوسمة ^(٢) ، وهذا كان يدفعه للمحافظة على مواقفه ، وسمعته ، وتزيده ثقة بنفسه فينطلق لسانه بالشعر ليخلّد لنفسه مجداً خالداً على إيقاع تلكم الذكرى . ولعل أبرز ما يميز تصوير المعارك في شعر البارودي شيئان :

الأول : بطولته كانت عربية ، احتذى فيها أمجاد الأمة ، وذلك عن طريق ثقافته ، وإطلاعه الواسعين ، فهو يُعدّ مثالاً رفيعاً للفارس العربي القديم المعاصر .

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٨٩ .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٦٤ .

الثاني : تصوير المعارك ، والنزال لم يكن نقلاً للمشاهد فحسب ؛ بل كان تمثيلاً لنفسه ، ونقلاً لما كان يحسّه ، ويشعر به من صفات النبل ، والسماحة التي كانت لا تقلّ عما كان يحسّه الشعراء القدامى في غابر دهورهم .

٢. إيضاح سبل البطولة ومناهجها :

إن المجد ، والسؤدد ، والفخار لا تأتي إلا عبر التضحيات التي تحتاج إلى عزم حديدي ، ونفس طمّاحة وثّابة . والعزيمة ، والطموح لا تتشأن عن فراغ ! ولا تأتيان اتفاقاً وصدفة ، بل تجيئان عبر تربية النفس على طلب المعالي ، وتهيأتها لنيل الشرف فهي إذاً نزعة نفسية تنمو بنمو عمر الإنسان ، وتترعرع في دواخله حتى تملك عليه كيانه .

وكانت نفس البارودي تحمل هذه النزعة بصدق ؛ فأخذ يدعو إلى بذل النفوس في سبيل المجد ، وللمجد سبله ، ومنافذه ، والبارودي اختار نافذة البطولة فظل ينادي في شعره بسلوك سبيل البطولة لبلوغ أعلى مراتب المجد ، فأخذ يرسم نهج البطولة ، ويبين كيف يستطيع الرجل أن يكون بطلاً تتحدث عنه السماحة ، والسيوف القواطع .

والبارودي قد استفاد من تجاربه في الحياة ، وفي ميادين القتال فوضع لآخرين مناهج البطولة من خلال ما جرّبه ، وخبره ، ولا يخفى أن حياة البارودي كانت حافلة بالبذل ، والتضحيات ، والتجارب .

والزاوية التي ينظر البارودي من خلالها إلى البطولة لا تختلف عن الزاوية التي ينظر العرب القدامى من خلالها إلى البطولة ؛ فالبطل المغوار هو الذي لا يعرف الضعف أو الخور ، ويتخذ من عزيمته مركباً ، سريع البطش بالأعداء ، يذيع الهول في كل أرض يطأها ، كريم النفس ، حلو السجايا ، يسرع إلى نجدة الملهوف ، عفيف النفس ، عزيز ، لا يرضى المذلة والهوان . والالتزام بهذه الخصال ، والعمل بها ، لهي البطولة الحقّة التي يوضح البارودي مناهجها إذ يقول ^(١) :

مَنْ صَاحَبَ الْعَجْزَ لَمْ يَظْفَرْ بِمَاطِلَبَا فَارْكَبْ مِنَ الْعَزْمِ طَرْفًا يَسْبِقُ الشُّهُبَا^(١)

(١) ديوان البارودي ٥٢/١ ، تحقيق : علي الجارم ، محمد شفيق معروف ، مطبعة الأميرة . القاهرة . مصر

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا مَنْ إِذَا هَتَفَتْ بِهِ الْحَمِيَّةُ هَزَّ الرُّمَحَ وَانْتَصَبَا^(٢)
يَسْتَسْنَهُ الصَّغَبَ إِنْ هَاجَتْ حَفِيزَتُهُ وَلَا يُشَاوِرُ غَيْرَ السَّيْفِ إِنْ غَضِبَا^(٣)
يَنْهَلُ صَارِمَهُ حَتْفًا وَمَنْطِقُهُ سِحْرًا حَلَالًا إِذَا مَا صَالَ أَوْ خَطَبَا^(٤)
إِنْ حَلَّ أَرْضًا حَمَى بِالسَّيْفِ جَانِبَهَا وَإِنْ وَعَى نَبَأَةً مِنْ صَارِخٍ رَكِبَا^(٥)
ففي الأبيات السابقة^(٦) وغيرها من الأبيات^(٧) يرسم البارودي للرجل طريق
البطولة ، والفروسية ، ويوضح سبيل المجد ، والخلود ، والبارودي نفسه هو ذلك
البطل الذي خاض المعارك الضارية ، وتسربل بالدماء ، واجتاز الصحاري ،
والفلوات ، و أرغم أنف البيداء ، وله الشرف ، والسطوة في ميادين النزال ، و
صولات ، و مواقف أكسبته أوسمة البطولة ، ومن قبلها حلّة المجد ، وهو من هذه
القاعدة يذيع قيم البطولة ، و لا يرى سبيلاً للبطولة غير ورود حياض الحِمام ،
وامتساق الحسام ، أو كما يقول^(٨) :

دَعِ الْمَخَافَةَ وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَهَا وَإِنْ تَحَصَّنَ لَا يَنْجُو مِنَ الْغِيلِ^(٩)
وَلَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ عِلْمٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى الْعَوَاقِبِ لَمْ يَرْكَنْ إِلَى الْحِيلِ^(١٠)

(١) الطرف : الفرس الكريم الأصيل . الشهب : الكوكب اللامع ، ويضرب به المثل في السرعة .

(٢) الحمية : الأنفة ، والاستكبار . الانتصاب : الوقوف بنشاط وقوة .

(٣) الحفيظة : الغضب ، والشدة .

(٤) ينهل صارمه : يسقيه ، والصارم يسقى عادة بالدماء .

(٥) حمى : رعى . النبأ : الخبر . الصارخ : صاحب الحاجة ، أو الملهوف .

(٦) ديوان البارودي ٥٢/١ .

(٧) راجع ديوان البارودي ٥١/٤ ، ٨/٣ ، ١١ ، ٦٨/٢ .

(٨) ديوان البارودي ٢٢٨/٣ .

(٩) الغيل : من الاغتيال ، وهو القتل غفلة ، أو غدرًا .

(١٠) يركن : يعتمد . الحيل : الحذق ، وحسن التعبير ، والمقدرة على التصرف في الأمور بدهاء .

وقد كان البارودي وطنياً ، شريفاً مخلصاً ، وغيوراً لوطنه ^(١) ، وكان يحضّ شعبه على التخلص من كافة أشكال الظلم ، والاستعباد ، ومن هنا كان يخطط لشعبه نهج البطولة ، والفداء ، وهما السبيل الوحيد لنيل الاستقلال ، والتحرر من قيود المستعمر .

والبارودي في اطلاعه على الأدب العربي القديم أحاط بمدى حبّ العرب للحرية ، والسيادة ، ورأي الأثمان الباهظة التي كانوا يدفعونها في سبيل هذه الحرية ، والسيادة ، واستشفّ من ذلك أنهم اعتمدوا اعتماداً كبيراً على بطولاتهم ، و مقدراتهم الحربية في أن يظلوا محتفظين بهذه الحرية ^(٢) . وكان البارودي يستشعر في نفسه إحساس العرب بالحرية ، وهو خاضع لنوع من التدخل الأجنبي في بلاده ، ولذا كان شعره في هذه الناحية يمثل ثورة فكرية ، وأدبية هائلة ؛ نجد فيه التمرّد ، والثورة ، وليست ثورة على الذل ، والخنوع ، والرضا من الغنيمة بالإياب فحسب ؛ بل هي ثورة تمتد لتشمل أوضاع الشعر قبله ^(٣) فحرر الشعر من قيود البديع ، والركاكة ، والضعف الذي كان يرسف فيه ، ويحجل في قيودها.

وبما أن فاقد الشيء لا يعطيه ؛ فقد كانت نفس البارودي مفعمة بالبطولة ، ولم يكن كذلك وكفى ؛ بل جرّبها ، واصطلى بنارها ، وخبرها في طرقها ، ومراقبها الشاهقة الوعرة ، فشرع يرسم الطريق لمن يريد المجد ، والخلود في سجل الأبطال .

٣. الإعتداد بالنفس :

تبدو ملامح شخصية البارودي بارزة واضحة في كثير من أشعاره التي يعبر فيها عن بطولته ؛ فهي شخصية تغلب عليها الجد ، والصرامة ، وبعد الهمة ، وعشق الحرية ، وحب الحرب ، وآلته ، والنفور من الضعف ، والهوان .

(١) في الأدب الحديث ٢١٦/٣ .

(٢) العصر الجاهلي ص : ٣٦٦ ، للدكتور : شوقي ضيف ، (ط ٩) ، دار المعارف . مصر ، بدون تاريخ .

(٣) أعلام الأدب العربي الحديث ، واتجاهاتهم الفنية ص : ١٥ ، للدكتور : محمد زكي العشماوي ، طبعة دار

المعرفة الجامعية . مصر سنة ١٩٩٧ م .

و للبارودي في اعتداده بنفسه اتجاهات :

١- تصوير شجاعته ، وبسالته في ميادين القتال ، وأرض البطولات ^(١) ، وهي شجاعة تعبر عن جرأة ، وإقدام ، وخبرة واسعة بالحرب ، وأساليب القتال .
ويأتي التعبير عن شجاعته من خلال تصوير بعض المواقف البطولية الدالة على ذلك ؛ فهو يستعرض عضلاته ، ويلوح بقبضته في الهواء ؛ لتلمح من خلال ذلك شجاعة ، وقوة ، وجرأة ، وإقداماً لا يعرف الخوف ، أو الجبن .
ويصور شجاعته كذلك من خلال وصفه لتحمله للصعاب ، وتحديه للأهوال ، والصبر على المشاق ؛ فهو يبدو عنيداً جباراً ، قوي العزيمة .

٢. التغني بصفاته الحميدة الأخرى ؛ فهو كريم ، جواد ، عفيف النفس ^(٢) مستوف لخصال الشرف ، والعزة ، والسيادة ، والحلم والمروءة .

وتظهر عزته في السمو بنفسه ، وبشعره عن مطامع الشعراء الذين كانوا يستجدون بشعرهم ، ويتملقون الساسة ، وذوي الجاه ، والسلطان ، فهو لم يقيد بذلك القيد نفسه ، فلم يقبع تحت أقدام الملوك باسطاً ذراعيه بالوصيد و هذا أكسبه القوة ، والحرية في نقده للحكام ^(٣) ، وأهل السلطان . والمرء لا يكون عزيزاً إلا إذا ترفع عن الذلة ، والهوان ، ومن هنا ؛ فالعزة دعامة أساسيه في تقويم البطولة.

٣. الغطرسة وحدة المزاج ^(٤) وهذا كان يدفعه إلى التعالي ، والاحساس بأنه شخص مهم ، وهذا بدوره كان يولد فيه عاطفة إنسانية خطيرة ألا وهي الشعور بالعظمة ، والكبرياء ، وللبارودي إحساس متنامٍ بعلو الكعب ، ورفعة القدر إذ يقول ^(٥) :

فَلَوْ تَأَمَّلْتَنِي وَالْكَأْسِ دَائِرَةً لَخِلْتَنِي مَلَكًا يَخْتَالُ مِنْ مَرَحٍ ^(٦)
وَكَيْفَ لَا تَبْلُغُ الْأَفْلَاكَ مَنْزِلَتِي وَالْبَدْرُ مَجْلِسِي وَالشَّمْسُ فِي قَدَحِي

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٥٢ . (٢) المرجع السابق ص : ٥٥ .

(٣) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص : ١٤٢ . (٤) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٨٣ .

(٥) ديوان البارودي ١/ ١٠٤ . (٦) المرح : الغرور والاستكبار .

ويظهر إحساسه بالعظمة في تشبيه نفسه بكبار الفرسان الأبطال العرب في العصور الزاهية بالحروب ، والفتوحات ، يقول الدكتور : شوقي ضيف ^(١) " ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابها ضرباً من التسامي ، والاحساس بالمرودة الكاملة ؛ فهم دائماً يعتنون بمجموعة من الفضائل ، والخصال الحميدة ...".

والبارودي حتى بعد أن شرد ونفي ^(٢) ، ونزعت عنه شارات المجد لم تفارقه نخوته ، وإحساسه بالعظمة ، فظل قلبه يضطرب بالبطولة ، وظل لسانه يلهج بها ، ولكن في تحفظ ، واحتراز هذه المرة ؛ فهو منفي في جزيرة نائية لا يرجو منها معاداً ، ولا مجال لعودة الماضي المشرق . كما كان يؤمل . ؛ فنجد في بطولة هذه الفترة شيئاً من الواقعية ^(٣) ، والاحتراز في نحو قوله ^(٤) :

وَإِنِّي أَمْرٌ لَوْلَا الْعَوَائِقُ أَذْعَنْتُ لِسُلْطَانِهِ الْبَدُو الْمُغِيرَةُ وَالْحَضْرُ ^(٥)
فعبارة (لولا العوائق) فيها تحفظ معقول .

واحساس البارودي بالعظمة قاده إلى الخيال ؛ خاصة حين يصور نفسه ؛ كفارس قديم لا يزال يعيش في البيئات العربية الدائرة ، و هذا يعود إلى تأثره الكبير بمعاني الشعر عندهم ، وإلى معارضته للشعراء الفحول منهم ^(٦) فرجع بالشعر العربي إلى أصوله القديمة ؛ فبدأ كأنه واحد منهم ^(٧) ، ولكن هذا لا ينفي جانب الواقعية التي امتاز بها في شعره البطولي ؛ فالبارودي إلى جانب كونه صاحب السيف ، وصاحب الأمر والنهي في كثير من الشؤون العسكرية ، والسياسية نجده أيضاً يعمل قبل أن يتكلم ، ويغذي عقله بالمشاهد ، والحقائق ،

(١) العصر الجاهلي ص : ٣٧١ .

(٢) وكان البارودي قد نُفي إلى جزيرة سرنديب بالهند عقب انهيار الثورة العربية في ديسمبر سنة ١٨٨٢م .

(٣) شعراء خالدون ص : ٣٢٣ .

(٤) ديوان البارودي ٣٣/٢ .

(٥) العوائق : يقصد بها الأسر ، والنفي ، وتقدم العمر ، وانقطاع الرجاء . أذعنت : خضعت .

(٦) شعراء خالدون ص : ١٤٤ .

(٧) في الأدب الحديث ٥٣٠/٣ .

والتجارب قبل أن تتفجّر ينابيع لسانه ، وكان لهذا أثر بالغ في تحقيق قدر كبير من الواقعية لشعره .

وإحساس البارودي بالعظمة ، وإعجابه بنفسه لم ينبع من فراغ ، أو من التمسك بأذيال الغير ؛ بل هما إحساسان ، و اعجابان مبنيان على حقائق شاهدها الجميع حتى حسدوه عليها أو كما يقول (١) .

وَأَصْبَحْتُ مَحْسُودَ الْجَلَالِ كَأَنِّي عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي الزَّمَانِ أَمِيرٌ

فهو بعلو كعبه ، وبتمسكه بالقيم الفاضلة صار ملكاً غير معمم ، وأمير غير متوج ، وهذا الإحساس كان يزعج به لأن يتغنى ببطولته ليؤكد للناس عظمته ، وتفردته في عالم البطولة ؛ فالواقع الذي يعيشه البارودي كان يعمق في نفسه الإحساس بالأهمية ، ويمكن أن نلخص ذلك الواقع في ثلاثة أشياء :

١. **الحياة السياسية :** فقد تقلد عدداً من المناصب السياسية المرموقة ، والمهمة (٢) فنال من جراء ذلك مجداً عظيماً ، ورأى أن ما كان يحلم به قد بدأ يتحقق على أرض الواقع (٣) شيئاً تلو الآخر ، وهو يدرك في الوقت نفسه أنه لم ينل تلك الأمانى إلا باجتهاده ، وهذا كان يزيده ثقة ، وقوة ، وعظمة و ... غروراً .

٢. **طبيعة عمله :** في المجال العسكري قائداً ، ومقاتلاً خاض حروباً شرسة (٤) ، وحقق انتصارات داوية أعادته من عصره الحديث إلى عصر العرب القدماء فعاش كواحد منهم (٥) بنخوته ، وعظمتته ، وعلو قدره .

٣. **النشأة الثرية :** وإحساسه منذ الصغر بالتميّز ، والرفعة ، فاعتدّ بكرم أصله (٦) .

(١) ديوان البارودي ٣٠/٢ .

(٢) فقد عُيّن سر الخديوي إسماعيل الخاص ، وعمل مديراً لمحافظة الشرقية بمصر ، وتولى في عهد الخديوي توفيق نظارة الأوقاف ، ثم صار رئيساً لمجلس النظار .

(٣) الأدب العربي وتاريخه ٤١٧/٣ .

(٤) في الأدب الحديث ٢٠٨/٣ .

(٥) تاريخ الأدب العربي المعاصر في العصر الحاضر ص : ٢٣٦ .

(٦) في الأدب الحديث ٢٠٨/٣ ، أدب وتاريخ محمد صبرة ص : ٣٠ ، طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة .

سنة ١٩٢٧ م .

وإحساس البارودي بالخطورة ، والعظمة كانت تجعله يثور عندما تعترضه الأقدار ، وتظلم الدنيا من حوله ، وعندما يجد نفسه عاجزاً حيال المقادير . وهو الذي يطلب الدنيا كما تشتهيهِ نفسه . فيتحرك للتعبير عما في دواخله ، وكانت دواخله تمور بالقوة ، والعظمة ، والبطولة ، وظلّت هذه الأحاسيس لا تفارقه حتّى في أحلك الظروف ^(١) ، وأشدّ المواقف التي لا يملك حيالها شيئاً ؛ فها هو في غربته منفياً في جزيرة سرنديب . والدنيا حوله مظلمة . نجده يتحدث كأنه ملك ، أو أمير وسط غلमानه ، وأتباعه مرهوب الجانب ، بلغ من السطوة حتّى أنّه إذا ما أشار بأمر بادر أتباعه إلى تنفيذه قبل أن يقوم من مكانه ، وقبل أن يرتدّ إليه طرفه ، وتتصدع الجيوش الجرارة لمجرد سماع اسمه ^(٢) :

مَنَازِلُ كُنْتُ مِنْهَا فِي بُلْهَنِيَّةٍ مُتَمَتّاً بَيْنَ غُلْمَانِي وَأَتْبَاعِي ^(٣)
 إِذَا أَشْرْتُ لَهُمْ فِي حَاجَةٍ بَدَرُوا قَضَاءَهَا قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ الْإِمَاعِي ^(٤)
 يَخْشَى الْبَلِيغُ لِسَانِي قَبْلَ بَادِرَتِي وَيُرْعَدُ الْجَيْشُ بِاسْمِي قَبْلَ إِيقَاعِي ^(٥)

وهذه النزعة المتجبرة المتسلّطة عبّر عنها الشعراء والفرسان العرب في الجاهلية ؛ فهي نزعة تقوم على الإحساس بالعظمة ، والإغراق فيه حتّى يتوهم الفرد منهم أنّ كل الناس خاضعون له ، وأنّه قد لمس الثريّا ، والبارودي يجد في نفسه هذا الإحساس ، وهو القائل ^(٦) :

إِنْ سِرْتُ سَارَ النَّاسُ لِي تَبَعًا وَإِذَا وَقَفْتُ لِحَاجَةٍ وَقَفُوا

وأخذ البارودي يصوّر كل النواحي البطولية التي تدعم هذا الإحساس ، وتقويه .

وأخيراً فإنّ البارودي في اعتداده بنفسه قد احتفظ بالصورة الشعرية البدوية ، وعناصرها ؛ فهو يدرك أنّها قوية الإيحاء ، والتأثير ، فتمثّل في نفسه كل الفرسان الأماجد الغابرين .

(١) في الأدب الحديث ٢١٧/٣ . (٢) ديوان البارودي ٢٢٧/٢ .

(٣) البلهنية : الرخاء ، والرفاهية . (٤) بدرّوا : أسرعوا بقضائها . الإلماع : الإشارة بالإصبع .

(٥) البادرة : ما يبدو من سيما الغضب . يردد : يرتعد من الخوف . الإيقاع : قتل الأعداء ، والفتك بهم .

(٦) ديوان البارودي ٢٤٧/٢ .

وظلّت البطولة متوهّجة في شعر البارودي حتّى بعد أن مضى أزمان فتوته وجهاده ، وحتّى بعد ما انتهت حياته السياسية الحافلة ، واكتنفه المنفى في غياهب النسيان ، ولكن روحه عاش كالصخرة العنيدة التي تحطمت عليها الخطوب ، والأحداث ؛ ففي نفسه روح العظمة ، والأنفة ^(١) التي لا تعرف الهوان ، والذل ، وفي صدره آمال جسام ، وفي عينيه نظرة الواثق بنفسه وقدراته ، وفي ابتساماته بريق المعالي ؛ فظلّت شمس ساطعة ، ومات واقفاً كالشجرة العريقة .

٤. تمجيد البطولة ، والحضّ عليها :

البارودي يرى أن البطولة بمعانيها الواسعة هي التي تزين الفتيان ، ويضمن لهن حياة العزة ، والشرف .

والبارودي لا يقدّم دعوته إلى انتهاج البطولة مجردة من الأمثلة ، و التجارب ، والحكم بل يقدّمها ممتزجة بكل ذلك فضلاً عن عرض بطولته ، وما حقّقه في الحروب من نصر ، ومجد ، وما امتاز به من الخصال الحميدة ، وهو يزيّن البطولة من خلال حديثه عن الفوائد التي يكتسبها المرء ، ويجنيها من التمسك بفضيلة الشجاعة ، والبطولة ، ويستشهد في ذلك بنفسه ، وبغيره من الأبطال الذين اكتسبوا مجداً عالياً ، وخلّدهم التاريخ على أنصع الصفحات .

ويحضّ البارودي على البطولة أيضاً عبر تقديم تجاربه في هذا المضمار ؛ فهو يبيّن علاماتها ، وخصائصها ، ومواطنها ، وما يستلزمها ، وما يجب أن يكون عليه البطل ، ومن هنا فقد كان البارودي يدعو إلى البطولة ، والاستبسال ، ويحضّ من أراد الخلود إلى السير في طريق الخلود ، هذا إذا علمنا أن البارودي فارس قبل أن يكون شاعر ، أو أمير ؛ فهو فارس له في ميادين الجهاد المختلفة تجارب ، ومواقف ، وخبرات مما أهّله لأن يكون رسول البطولة ، والفتوة في زمن وثنية الخوف ، والاستسلام ؛ فأخذ يدعو الرجال إلى ارتياد آفاق المجد ، والفخر ، ويحرّضهم على بناء المعالي عن طريق الفروسية ، وامتشاق الحسام ^(٢) :

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٧٤ ، ١٨٠ .

(٢) ديوان البارودي ٩/٣ .

لَوْ لَا تَفَاوُتُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَا ظَهَرَتْ مَزِيَّةُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَلِيِّ وَالْعَطَلِ^(١)
فَإِنْ هَضُّ إِلَى صَهَوَاتِ الْمَجْدِ مُعْتَلِيَا فَالْبَازُ لَمْ يَأُو إِلَّا عَالِي الْقُلَلِ^(٢)
٥. الإعتداد بالأهل والعشيرة :

امتزج البطولة في شعر البارودي بالفخر بآبائه ، وماضيهم التليد ، و تاريخهم
المجيد ، كما امتزج بفخره بأمتة المصرية وتاريخها الناصع في مجال السيادة ، والقوة
الحربية ، وامتزج كذلك بفخره بجنوده ، ورفاقه في ميادين القتال والنزال^(٣) .

والبارودي في هذه الناحية تأثر بشعراء العرب الفرسان الذين عبّروا عن
أنفسهم ، وعن قبائلهم ، وافتخروا بها . والفخر بالإقدام ، والعشائر والأهل خصلة
أصلية عند العرب ؛ فالفرس الحق هو الذي يرث المكارم ، والفضائل عن قومه ،
ويستمدّ الشجاعة ، والبسالة من آبائه ، وأسلافه ؛ فهم على الرغم من افتخارهم
بأنفسهم لا يفوتهم الإشارة إلى عشائريهم ، وما يشيع فيهم من سمات البطولة ،
والشرف ، والبارودي . كذلك . بطل مغوار ، فارس كزّار يفخر بقومه ، وآبائه ، ويبرز
ما فيهم من القوة ، والشجاعة ليدل على بطولته .

وقد سلك البارودي في هذه الناحية ثلاث طرائق :

١- الاعتداد بأمجاد أمتة المصرية ، وما حققته هذه الأمة على الصعيد الحربي ،
والصمود في وجوه الغزاة ، إضافة إلى حضارتهم الإنسانية المشرقة^(٤) ، وإحساسه
بأصالة تاريخه ، وعظمة مجده صقلت في نفسه الإحساس بالبطولة ، وملأت نفسه
حماسة ، وفخراً وهو القائل^(٥) :

سَلْ مِصْرَ عَنِّي إِنْ جَهِلْتَ مَكَانَتِي تُخْبِرُكَ عَنْ شَرَفٍ ، وَعَزَّ أَقْدَمُ
وقد اتخذ البارودي من عظمة أمتة محوراً بنى عليه شخصيته ، وسلك بها
طريق البطولة^(١) ليؤكد صدق انتمائه إلى هذه الأمة التي بنت أمجادها ببطولة

(١) المزية : التمام ، والفضيلة . الحلي : القلائد الذهبية ، وغيرها . العطل : ضد الحلي ، ويستعمل للخلو من الشيء .

(٢) الباز : ضرب من جوارح الطيور التي تصيد . القل : جمع قلة وهي قمة الجبل .

(٣) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٠٧ . (٤) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٨٩ .

(٥) ديوان البارودي ٤٨٨/٣ .

أبنائها ، وشجاعة رجالها . وهذه العاطفة هي التي أملت عليه واجبه الوطني فشارك في الثورة العربية ، وصار أحد فرسانها^(٢) في المجالين : الحربي ، والفكري .

٢- الاعتداد بأجداده المماليك أصحاب المجد الحربي والبطولي الذين أسسوا دولة قوية في مصر ، كما كان لأبيه ، وجده مجد عظيم في المجال الإداري ، والمجال الحربي^(٣) ، وقد ظلّ البارودي يفخر بأبائه ، وأجداده حتّى بعد أن انهزم ، ونفي فمنهم كان يستمد القوة ، والعزيمة ، ولم تفارقه هذه النخوة الحماسية^(٤) وكل الفرسان والأبطال العرب عبر تاريخهم الحافل المجيد وصلوا أمجادهم بأمجاد آبائهم ، وأكدوا أنّ البطولة في الحاضر ما هي إلّا غرس الماضي تُقتبس من الآباء ، وتؤخذ عن الأجداد ، وتورث للأبناء ، ودلّوا على أنّ البطولة قد تكون لها صلة بكرامة الأصل ، وشرف العنصر .

وعليه فقد كان البارودي سليل أسرة عريقة^(٥) ، كريمة المنبت^(٦) ، فضلاً عن ثرائها ، ومنعتها ، فافتخر بها ، وعزم ألا يكون دون أسلافه في معترك المجد ، والبطولة .

٣- فخره بجنوده ، ورفاقه الذين كانوا يحاربون إلى جانبه ، ويقتحمون معه المعارك الشرسية ، ويستبسلون معه في القتال ، ويقفون مواقف العزة ، والشرف ، وفي مثل هذا النوع من شعره نجد غبار الحروب ، وننتسم عبير التضحيات ، والبطولات ، وتبرز لنا بطولة البارودي شامخة قوية .

(١) الأدب العربي وتاريخه ٣/٤٠٣ . ٤٠٤ .

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٨٦ .

(٣) الموضع السابق .

(٤) شعراء خالدون ص : ٣٢٤ .

(٥) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٧ .

(٦) فهو من أسرة تركية تنتمي إلى المماليك ، وقد بلغ بعض أجداده مناصب عليا في الدولة المصرية ، وكان أبوه فارساً من أمراء المدفعية ، وصار مديراً لمديرية بربر ، و دنقلا بالسودان .

وعليه فقد كان البارودي يعبر عن بطولته من خلال فخره بماضي أمته ، وعشيرته ، وبسالة جنوده ، ورفاقه . والبطل لا ينفصل عن أصوله ؛ فالفارس العربي الحق ، والبطل القومي الفذّ هو الذي يفخر بكل هؤلاء ليدل على عراقته البطولية ، ورسوخ قدمه فيها ؛ ليجعل من بطولته ، وفروسيته امتداداً لبطولة أسلافه ، ولا يبيع ماضيه بثمن بخس دراهم معدودة . والبارودي كما أشرنا متأثر بالصورة القديمة للفارس العربي ؛ فهو امتداد لتلك الصورة .

٦. تصوير الهمّة ، والتعبير عن الخلجات النفسية :

البطولة ليست سطوة في المعارك ! فالجبان قد يجد نفسه مضطراً للقتال ، والبطولة ليست عبارات منمقة ومعاني يصورها الشاعر ، فالرديد قد يكون أبلغ في التصوير ، والتعبير ، ولكن البطولة من ناحية مزيج بين هذا وذاك ، ومن ناحية أخرى إحساس دائم بعدم الجبن ، والعجز ، والاستعداد النفسي ، والمادي الدائمين لاقتحام الحروب ، ودخول المهالك لأجل المجد ، وبُعد الصيت . وكان البارودي يغمره هذا الإحساس ؛ فهو كالمرجل يغلي بطولته ، وحماسه ، تحدثه نفسه بخوض الحروب ، والمعامع ، والاستبسال فيها ، وهذه الروح هي التي تدفعه إلى المواقف البطولية الرائعة و... المخيفة .

والبارودي بعد أن نُفي إلى سرنديب حيث الغربة ، والوحشة ، نجده يثور أحياناً ثورة عارمة ، ويزأر كالأسد الجريح فنفسه كانت متقدة بحب الحرب ، والثورة فانطلق لسانه بشعر قوي في الحماسة ^(١) تعبر عن بطولة صادقة لا تفارق صاحبها ، وظل إحساسه البطولي كالنخلة الشامخة كلما هبت عليها رياح الآلام الحاضرة اهتزت لها في لين ، وكبرياء دون أن تتكسر ؛ فالبطولة ، وحبّ الحرية ، والحرب هي شغله الشاغل في كل مراحل حياته .

والبارودي شاعر بعيد الهمّة ^(٢) ، ينتقل بين خواطر متنوعة ، وأفكار شتى

تعبّر عن أحلامه في بلوغ المجد ، وأعلى مراتب السيادة ، وكسب المحامد ، فنجد في شعره نقلاً واقعياً لما يعتمل في نفسه ، فنجد ثورة ممزوجة بالمرارة ^(١) ، وحنيناً

(١) شعراء خالدون ص : ٣٢٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربي في مصر الحاضر ص : ٢٢٥ .

شديداً إلى أرض البطولات ، وغبار المعارك ؛ فهو يتغنى بما يحسّه في أعماقه ، وهذا الإحساس . وحده . كفيل بأن يمنحه وسام البطولة من الدرجة الأولى حتّى وإن لم يخض حرباً ، وإن لم يجرّد في الحرب صمصاماً .

والبارودي طموح بفطرته ، بعيد الهمة ، له نفس كُؤن مزاجها من غبار الحروب ، واقتحام المعارك ، وقُدّ قلبه من الدروع المسرّدة ، و استمد نبضاته من وقع سنانك الخيل ، وصليل السيوف ، فهذا الطموح ، وهذه النفس العالية المشربة بالبطولات كانا يدفعانه إلى التعبير عن نفسه ، وإخراج ما يحسّ به .

وهكذا تبدو لنا خلجات البارودي النفسيّة من خلال شعره ؛ فهو يعيش بخياله ، ومشاعره في عوالم البطولات ، وميادين الحروب ، يتعشّق صليل السيوف ، وحفيف السهام ، وقطف ثمار النصر ، ونجدة الصريح ، وإذلال الأعداء ، وكسب الشارات ، والأوسمة . وإذا قرأت شعره في المنفى أحسست به جواداً أضّرّ بجسمه طول الجِمام ، يتوق لأن يقتحم الجِمام ، و يدخل من قتام في قتام .

٧. وصف الفرس :

الفرس في الأدب العربي دليل الفروسية ، ورمز البطولة ، وقد تتقف البارودي بأخبار العرب ، وآدابهم ، وقبائلهم ، وقومياتهم ، وتعبيراتهم عن بطولاتهم ، فأنفعلت نفسه بذلك ، وهاجت شاعريته ^(٢) والبطولة كما يفهمها البارودي من ذلك لا تكتمل إلا بامتلاكه لجواد قوي ضخم رشيق سريع جميل اللون ، كريم الأصل ، ذكي الفؤاد ، متمرس بالحروب ، والنزال ، واقتحام نيران الوقائع .

وقد احتل وصف الفرس مكانته عند البارودي ، فقد ورد ذكره في القرآن مقترن بالحرب ^(١) ، والخير ^(٢) ، والزينة ^(٣) ، فهو يدرك أن معظم أبطال الإسلام الأوائل الذين نصرّوا الدعوة الإسلامية ، وأعزّوا الدين كانوا يملكون الجياد الأصيلة ، وعليه فإنّ المجد العربي ، والإسلامي اعتمد على الخيل ، والبارودي يسير على

(١) في الأدب الحديث ٢١٥/٣ .

(٢) المرجع السابق ١٨٥/٣ .

الدرب نفسه ، ويطمع في أن يصل بأمجاده إلى أمجاد فحول العرب ، وأسود المسلمين ، ومن هنا جنح إلى وصف جواده ، وبيان مناقبه ، ودوره في حياته ، واعتمد عليه في إبراز بطولته على طريقة الشعراء القدامى الذين لهم في التاريخ الأدبي علاقة وطيدة بالخيال فهي وسيلتهم لتحقيق بطولاتهم ، ونيل أمجادهم ، واشتقوا من لفظ (فرس) لقب (فارس) ، يقول الدكتور : شوقي ضيف : (٤) " ... وكانوا يحاربون راجلين وركبانا على الإبل ، والخيال ، وكانوا يرون في الثانية مزية على الأولى لسرعتها في الطراد ، والإغارة ، فأحبوها ، وعنوا بها ، وبتربيتها ، وصيانتها ، واستنتاج كرائمها ، وترويضها للحروب والسباق . وقد دارت أوصافهم لها في شعرهم الجاهلي ، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه ... فقد كان لكل قبيلة فارسها ، أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلاً ، وكيف يقفزون عليها ، ويشهرون سيوفهم ، ويلوحون برماحهم ، وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم " .

واهتمام البارودي بالخيال نابع من اهتمام العرب والمسلمين بها ، ووصفه لها مرتبط بالصفات المفضلة عند العرب للخيال ، ونظرته لها لا تختلف عن نظرته لها ؛ فالعرب تنظر إلى الجياد الأصيلة القوية الضخمة السريعة المعتادة على الحرب على أنها عنوان البطولة ، وهي كذلك عند البارودي .

(١) قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ... ﴾ سورة الأنفال الآية : ٦٠ .
 (٢) قال تعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي... ﴾ سورة ص ، الآية : ٣٢ . وقال النبي ﷺ : " الْخَيْلُ مَغْفُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٣ ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١ م .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة النحل الآية : ٨ .

(٤) في العصر الجاهلي ص : ٣٦٦ .

٨. حب المعالي ، وركوب الصعاب :

المجد قمة بعيدة لا يطؤها إلا ذوو النفوس الطمّاحة ، والهمم الغلّابة ، والأبطال في عمومهم يتميزون بحب المعالي ، والسعي إليها مما كان يقذف بهم في أحضان المصاعب ، ويهوّن عليهم المخاطر ، والبارودي يتمتع بنفس عالية الهمة ، بعيدة المطلب ، يود من الأيام ما لا تودّه ، ويطلب ماءً يعجز الطير ورده .

وللعرب في عصورهم السابقة سجلاً حافلاً في حياة المغامرات ^(١) ، واقتحام الصعاب حباً في المعالي ، والبارودي اطلع على حياة العرب في هذه الناحية ، ورأى في ذلك تصويراً حقيقياً للحياة التي ينشدها ؛ فصادف ذلك هوىً في نفسه فسلك السبيل ذاته ، وهو سبيل مليئ بالصعاب ، فسلكه رغبة في المجد ، وفي أن يترك في الدنيا دويّاً هائلاً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر .

ونجد أن البارودي في شعره يفخر بحب المعالي ، وبلوغ القمم العالية في عوالم المجد ، فصوّر ركوبه للصعاب ، واقتحامه للمخاطر ، وعدم مبالاته بها ، فلا شيء يثنيه عن تسنّم المحامد ، والمعالي ^(٢) .

فَلَا زِلْتُ مَحْسُوداً عَلَى الْمَجْدِ وَالْعَلَا فَلَيْسَ بِمَحْسُودٍ فَتَى وَلَهُ نِدٌ ^(٣)

إلى غير ذلك . فالبارودي يستعرض في شعره كثيراً من الأخطار ، والمهالك التي تعرض لها خلال رحلته الطويلة في طلب المجد ، ويظهر ذلك في الحروب التي خاضها ، والشدائد التي كابدها ، يعينه على ذلك صبره ، وتحمله للمشاق ، وركوب المجاهيل ، وورود المناهل الأواجن ، ونزول المنازل في المفاوز التي لا ينزلها إلا أهلها من الفرسان المغاوير ، وكثير من شعراء العرب الفرسان يصفون هذه المشاهد ، ويستعرضون الأخطار التي تعرّضوا لها في سبيل السيادة ، والعزة ، والشرف .

(١) في الأدب الحديث ١٦٨/٣ .

(٢) ديوان البارودي ١٤١/١ .

(٣) الند : الشبيه المماثل .

والبارودي في تصويره لحب المعالي ، واقتحام الصعاب لا يخلو من تقليد^(١) ؛ فهو في هذه الناحية قد اندفع إلى محاكاة الشعراء العرب الفرسان دون تحفظ ، ولكنه أسرف بعض الشيء في تصوير المخاطر التي اقتحمها ، وربما يعود ذلك إلى رغبته في التفوق على السابقين في مجال البطولة ، والفروسية ؛ فالبارودي عندما يصف الأهوال التي لاقاها ، والأخطار التي تعرّض لها يأتي بمعان لا تتفق مع الواقع ، بمعنى أن المعاني التي يأتي بها أحياناً تنافي حقيقة الواقع العصري ، ولكنها تتصل اتصالاً قوياً بنزعات الشاعر النفسية ، ومن هنا أفلح البارودي في خلق صورة شعرية للبطولة بمعناها القديم مع سمات وملامح من الحاضر ، وإن كانت الصورة الشعرية عند البارودي امتداداً للصورة الشعرية القديمة في الأدب العربي^(٢) .

وقد هيأت الحياة السياسية ، والحياة العسكرية المناخ الملائم للبارودي لمزاولة هوايته ، ورغبته في طروق الأهوال ؛ فمعظم الشعراء التقليديين اندمجوا في الحياة السياسية^(٣) ، وعاشوا من أجل شعوبهم ، وبذلك كانوا نماذج عليا احتذتهم مواطنوهم ، والبارودي هو إمام الوطنيين ، ورمز من رموز المقاومة ، عمل على الرفع من مكانته ، والاعلاء من شأنه ليكون قائداً قومياً لامعاً ، فأحب المعالي ، والصعود على ذرا المجد ، واتخذ من ورود الأهوال ، واقتحام أوكار المخاطر وسيلة للتميز عن غيره .

وخلاصة القول أن البارودي عاشر الشعراء القدامى الذين اطلع على شعرهم فوجد فيها صولاتهم ، ومغامراتهم ، و عزيمتهم الماضية ، وإرادتهم الصلبة في مغالبة الحياة ، وعلو هممهم ، وتطلعهم إلى معالي الأمور ، وصناعة المجد فذابت نفسه ، فسار في درب نفسه ، ولكن في وعر عالي المرتقى ، كثير المزالق والأخايد ، فعشق الأهوال ، والصعاب ، وتحدى الشدائد ، ومن ثم ارتبط

(١) الشعر العربي الحديث والمعاصر ص: ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص: ٦٩ .

(٣) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص: ١٤٣ .

حب المعالي بركوب المصاعب في شعره . وبعد المناصب العليا ، والرتب التي تقلدها فقد ألهم البارودي نيران الشعر البطولي التي رمت بشرر كالقصر ، وعبر عن بطولته ، وصورها تصويراً تجعله ماثلاً أمامنا بمغامراته ، واقتحامه للصعاب ، وهو بوصفه للمخاطر ، وحبّه للصعاب يمثل علامة جديدة على طريق التعبير عن البطولة في الشعر العربي المعاصر .

٩. تمسكه بالمواقف الصلبة :

انخرط البارودي في الحياة السياسية ، وكان وطنياً شريفاً ، شجاعاً ، مخلصاً من الذين يقاومون الظلم ، ويردون العدوان ، ولم يكن من الذين يعلّقون على الأحداث بعض وقوعها ، ويقبضون على الأذيال ؛ بل كان من الذين يقودون الأحداث ، ويصنعون الملاحم ، والمواقف البطولية ؛ فهو يتمتع بالروح البطولية القيادية التي تقود ولا تتقاد ، فقد كان يدعو إلى الثورة ، وإلى خلع إسماعيل ^(١) الذي جلب الاستعمار ^(٢) ، والذل لبلاده ، ودعا صراحة إلى الاطاحة به أو قتله ، وهو كثيراً ما كان يصيح بقومه صيحات هادرة ليوقظهم من سباتهم العميق حتى يطالبوا بحقوقهم بلا خوف أو وجل ^(٣) .

وكان البارودي في جل مواقفه السياسية كالطود الشامخ الذي لا تهزه الأعاصير ، ولا تجرفه السيول ؛ فقد كان بطلاً حقيقياً في مواقفه لا يتزعزع إيمانه ، ولا يخيفه تهديد ، ولا يستخفه وعيد ، ولا يتراجع عما ارتضاه لنفسه ، ولأمته

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص: ٦٠ ، وما بعدها .

(٢) وكان إسماعيل باشا قد اقترض أموالاً طائلة من الأجانب بلغت عشرات الملايين من الجنيهات أنفقها ببذخ على ملذاته الخاصة ، ورحلاته الفخمة ، فأباح البلاد للأجانب ، فتدخلوا في شؤونها الداخلية ، وملكوا رؤوس الأموال ، واضطهدوا الفلاحين ، وظلموهم ، وأصبحت البلاد على أعتاب الاحتلال . راجع : البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٨ ، وما بعدها ، وراجع : الزعيم الثائر أحمد عرابي للمؤرخ : عبد الرحمن الرافعي ص: ٢٦ ، وما بعدها ، طبعة دار الشعب . مصر سنة ١٩٦٨ م .

(٣) شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر ، عبد الرحمن حوطش ص: ١٥ ، طبعة مكتبة دار المعارف . الرباط سنة ١٩٨٧ م .

من خير ، وهكذا يحدثنا التاريخ عن سِير الأبطال الذين عاشوا يكافحون الظلم ، وسوء سياسات الحكام لأجل نهضة شعوبهم ، وتحقيق قيم العدالة ، والحرية ، والكرامة .

فبطولة البارودي لم تكن مقصورة في امتشاق الحسام ، ومقارعة العدا في أرض الوغى ، بل كانت تتمثل بطولته في آرائه ، ومبادئه الوطنية ، وهي لا تقل عن بطولته في الوقائع الحربية ، فكثيراً ما كان يشهر سيوف آرائه في وجوه الحكام ، ويتحدى المتربصين بكل جرأة ، فلم يقف بشعره على أعتاب السلاطين ، وذوي الجاه يبتغي الزلفى ، وترفع عن المديح ، والاستجداء الذي كان يكبل الشعراء ، ويخرس ألسنتهم عن النطق بالحقيقة . ويقول النبي ﷺ : " ...أَعْلَى الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ أَمَامَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ " ^(١) ، فهذا هو سيد المرسلين يشهد لقادة الشعوب المخلصين الذين يقاومون ظلم الحكام بالبطولة ، ويضعهم على قمة الهرم .

وإحساس البارودي ببطولته كانت تدفعه إلى تحمّل الأوضاع الصعبة ، والتمسك بأسباب الحرية ، والعزة ، والكرامة ؛ فهو على الرغم مما تعرض له بعد هزيمة الثورة العربية ^(٢) من تنكيل ، وقهر إلا أن ذلك لم يزدّه إلاّ بريقاً ونضاراً ، فلم يفقد آماله ، واعتداده بنفسه ، وتمسكه بمبادئ ثورته .

ومن هنا لم يكن البارودي بطل الحرب ، والنزال فحسب ، ولم يكن بطلاً في الظاهر تكتحل به عيون معجبيه ؛ بل كان بطلاً في كل المواقف الصعبة ، جريئاً لا يهاب ، فبالرغم من كل الصدمات التي تلقاها في مسيرة المقاومة ^(٣) ،

(١) رواه النسائي في سننه ، كتاب البيعة ، باب : فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر ، حديث رقم ٤٢٢٠ ، دار المعرفة . بيروت ، حققه ، ووضع فهارسه مكتب تحقيق التراث الإسلامي ، (ط ٢) ١٤١٢ هـ . ١٩٩٢ م .

(٢) هزمت الثورة العربية سنة ١٨٨٢ م ، وحوكم أعضاؤها ، وقادتها ، والمشاركون فيها محاكمات غاشمة ، وظالمة ، ونفوا إلى جزيرة سرنديب بالهند ، فرحلوا بالباخرة من مصر فبلغوها في العاشر من يناير سنة ١٨٨٣ م ، وفارقوا الأوطان ، والأهل ، والأولاد ، تحوطهم الغربة ، وتكتنفهم مرارة الهزيمة . راجع : البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٧٩ ، وما بعدها .

(٣) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٨٥ .

وعلى الرغم من كل ما قاساه في المنفى ، وما اعترضه من عراقيل ظلّ صامداً كالصخرة الصماء ، فلم ينهزم نفسياً ، ولعل من أقبح الهزائم الهزيمة النفسية ، ولكن البارودي لم يفته شرف البطولة في هذا الميدان أيضاً .

١٠ . وصف السلاح ، وآلة الحرب :

يفخر الشعراء العرب الفرسان بأسلحتهم التي يستخدمونها في حروبهم ، وفي ما يلاقوهم من الأهوال ، والشدائد ؛ فالسيف المرهف ، البتار ، والرمح المعتدل المخطر ، والدرع المتين المسرد ، والسهم المفوق هي التي تُعطي الفارس هيئته ؛ فهي من أهم وسائل البطولة ، والنصر .

والفارس لا يكون كمياً إلا إذا كان كامل السلاح ، والعتاد ، ومن هنا كانوا يفتخرون بقتل الكماة ، ويعدّونه من المناقب . وعليه فإنّ اقتناء الأسلحة الماضية ، والفاعلة دليل الشجاعة ، وشارة ووسام البطولة ، وأشرف هذه الأسلحة السيف ، وكلما كان السيف صقيلاً قاطعاً نمت عن بطولة الفارس ، وجسارته .

ولم يكن البارودي يصف سلاحه مجرداً ؛ بل كان يقرن ذلك بوصف ما يفعله بهذا السيف ، وكيف يقتحم به الأهوال ، ويقطع به الرؤوس ، ويبتر به الأطراف . وإذا نظرنا إلى البارودي بوصفه شاعراً عربياً من الطراز الأول في فنّ الحماسة ، وشعر البطولات ، والملاحم ، وقائداً حربياً حاذقاً ، ومقاتلاً لا يمعن هرباً ، ولا يستسلم ، ومغامراً جريئاً لا يخشى المهلكات ، شديد الاعتزاز بالماضي العربي البطولي ، فإذا نظرنا إلى هذا نجد أن اهتمام البارودي بوصف سلاحه صدى لكل ذلك ، فهو يكمل لنا سمات شخصيته التي تلوح لنا من بين قباب شعره ، وهي شخصية الفارس المغوار المتوشح سيفه ، المتكّتب رمحه ، الآخذ بعنان راحلته ، تهب عليه ريح الصحراء فتعبث بثيابه .

وإذا أراد بطل محارب شجاع أن يعطينا ملامح شخصيته لا يغفل بأي حال من الأحوال عن وصف سيفه ، وسلاحه ، وما يفعله بها في ميادين الحروب ، والشدائد ، فكيف تتصور فارساً يخوض المعارك ، ويواجه الأعداء يتحدى الأهوال بلا سيف ، أو سلاح ...؟

١١. المنهج الشعري :

من الفنون الشعرية التي احتذاها البارودي شعر الحماسة ، والبطولة ، فقد برع في هذا الفن ، وتصرف فيه بكل حذق يعينه على ذلك التجارب الذاتية التي خاضها في هذا المجال ، واستعان بأسلوب قائم على محاكاة الشعراء الفرسان الفحول ، وهذه المحاكاة تعكس بجلاء بطولته ، فقد حاكى بعضهم ، وشبه نفسه ببعض منهم ، وعارض بعضهم .

والبارودي قلّد أبطال العرب الشعراء ^(١) لا لقصور في إبداعه الشعري ، ولا لجذب خياله ؛ بل التماساً للمثل العليا ، ومحاولة لبلوغ أسمى مراتب الكمال في عالم البطولات . والتقليد ليس عيباً إن كان بهدف الرقي مع الاحتفاظ بالشخصية ، والهوية الثقافية ، والفكرية للشاعر وعصره .

ومعارضة الفحول المتقدمين في مجال البطولة ليست سهلة ، أو ذلولة بحيث يمشي الشاعر في مناكبها ، ويأكل من رزقها ؛ بل عليه أن يأتي بما هو أفضل مما احتذاه ، وإلاّ فما عليه إلاّ أن يتقبل تعازي التقصير في مآثم الفشل ، والشعراء الفرسان لم يأتوا بحماستهم من فراغ بل سجلوها من واقع بطولاتهم ، وتجاربهم فيها ، والبارودي مثلهم يستمدّ حماسه من واقع حياته ، ولكنه يلبسه ثوباً قديماً ^(٢) .

وتقليد البارودي لبعض الأقدمين في مجال البطولة نابع من اشتراكه معهم في بعض الصفات ، والخصال ، والمواقف التي ولدت بينهم إحساساً مشتركاً على الرغم من طول العهد ، واختلاف العصر ، والثقافة ، والمؤثرات العامة ، فقد

(١) الأدب العربي وتاريخه ٤٢١/٣ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٥/٣ .

عارض الشريف الرضي ^(١) لما بينهما من صفات النبل ، وخصال الشرف والسيادة ، والإحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع ، فضلاً عن النزعة الدينية التي تربي في الإنسان روح الجهاد ، والقوة ، والتضحية ، وهذه هي أفضل أسس البطولة الإسلامية ، وعارض أبا فراس الحمداني ^(٢) لما كان يجمع بينهما من الشجاعة ، والجرأة ، وكرم النفس ، والتعرض للنكبات القاهرة بسبب الطموح ، وعلو الهمة ، ووقوعها في مطامير الغربة ، فقد أسر أبو فراس ، ونُفي البارودي ، فنجد في شعرهما الفخر ، والتغني بأيام البطولات ، والحنين إليها .

وقد المتنبى ^(٣) لما كان يجمع بينهما من الطموح الجامع ، والهمة الغالبة ، والفروسية ، والقوة ، وحب المغامرة ، وطروق الأهوال ، واقتحام الشدائد في سبيل المجد ، والرغبة في الجلوس على سرير الحكم ، والإحساس بالعظمة ، وعلو الشأن ، كما كان يجمع بينهما فنّ الحكمة ، وإيراد الصور الشعرية البديعة ، والمعاني العميقة .

(١) هو محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي ، ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ ، ونشأ على حب العلم ، والأدب ، وكان أبّي النفس ، عالي الهمة ، رفيع الأخلاق ، أسندت إليه نقابة الأشراف العلويين بعد أبيه . مزج في شعره بين الأسلوب البدوي ، والحضري . من مؤلفاته : كتاب (نهج البلاغة) ، وله ديوان شعر يغلب عليه الفخر ، والشكوى ، توفي سنة ٤٠٦ هـ .

(٢) هو أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي ، ابن عم سيف الدولة ، ولد بالموصل سنة ٣٢٠ هـ ، ونشأ يتيماً فكفله ابن عمه سيف الدولة ، وكان شاعراً وفارساً مقدماً أبلى في قتال الروم بلاءً حسناً حتى وقع في الأسر ، وتباطأ سيف الدولة في فدائه ، فكتب كثير من القصائد ضمنها الشكوى ، والفخر ، والحنين ، قتل سنة ٣٥٧ هـ .

(٣) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى صاحب المفاخر ، والشعر الحكيم ، والمعاني الدقيقة المخترعة ، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ ، واتصل بسيف الدولة فمدحه ، ونال الحظوة عنده ، ثم هاجر إلى كافور فمدحه ، ثم هجاه ، وهرب منه ، وتقل بين فارس ، والعراق حتى قتله فاتك الأسدي سنة ٣٥٤ هـ ، وكانت حياته مفعمة بالطموح ، والمغامرات ، والبطولات ، والعظمة الحمقاء .

وكذلك اتبع البارودي منهج عنتره^(١) في الفخر الذي مزج الفخر بالغزل ، وكثير من البطولات التي تحدث عنها البارودي أتت عبر المقدمات الغزلية وهذا الأسلوب نجده عند بعض الشعراء الأقدمين . فذلك نهجهم في شعرهم ، ولكن عنتره ربط بين الفخر ، والغزل ربطاً محكماً ظاهراً ؛ فقد اعتمد عليه في التقرب من محبوبته ، أما البارودي فاعتمد عليه في إبراز بطولته ، وكلما ربط الشاعر بين الفخر والغزل جاء فخره هادراً قوياً ، وتصرف فيه بحذق لما للمرأة من أثر في إثارة حمية الرجل ، وتفجير براكين الرجولة ، والفحولة في نفسه ، والشعر صورة لما يعتمل في نفس صاحبه .

وتقف مختارات البارودي^(٢) شاهدة على منهجه الشعري الذي ارتضاه ، والصعيد الذي تجشّم الوخيد فيه ، فاخياره لتلك القصائد التي جمعها في حماسته تكشف عن ذوقه ، وتميط اللثام عن ميوله ، وخوالج نفسه ، وخواطره ، وتلك القصائد التي اختارها لثلاثين شاعراً في أزهى عصور الأدب العربي تمثل وحدها مدرسة خاصة في أعماق البارودي في فن الحماسة ، والبطولة .

وهكذا فإن منهج البارودي الشعري القائم على تقليد السابقين ، ومعارضتهم ، والسير على شعاب دروبهم كان بدافع النزعات البطولية التي ملكت على الشاعر أحاسيسه ، وخواطره .

(١) هو عنتره بن شداد بن عمرو بن معاوية ، ولد سنة ٥٢٥م ، وأبوه من أشراف بني عبس ، أمه حبشية تدعى زبيبة سبأها شداد في إحدى غاراته على أطراف الجزيرة ، وكان فارساً مغوراً نُسجت حوله بعض الأساطير ، إلى جانب ذلك كان شاعراً فحلاً ، وأحد الشعراء الذين استجاد العرب شعرهم فوضعوا قصيدته الميمية ضمن المعلقات .

أحب عبلة ابنة عمه ، ولم يتزوجها لسواد لونه ، وكان رقيق العاطفة ، حلو الشمائل ، توفي بين سنتي ٦١١ . ٦١٥م ، وقيل قتله جابر النبهاني الملقب بالأسد الرهيص والله أعلم .

(٢) راجع : مختارات البارودي ، طبعة دار العلم للملايين . بيروت . لبنان ، بدون تاريخ .

وهكذا قد صوّر لنا البارودي بطولته ، وعبر عنها بوضوح ، ورسم لنفسه صورة خالدة محفورة في ذاكرة الأيام صورة ذات ملامح عربية قحّة ؛ فهو يركب جوداً أصيلاً ، ويتوشّح سيفاً صقيلاً ، ويتكبّ رمحاً طويلاً ، يجول في ميادين القتال ببسالة ، ويقتحم المخاطر بكل جرأة ، عفيفاً ، عزيزاً ، ألباً ، كريماً ذا نجدة ، وبأس ، وخلق كريم ، وشمائل حلوة ، وقلب رحيم . والميل إلى تصوير البطولة نزعة أصيلة في نفس البارودي يرتبط بواقع حياته ، وتجاريه ، وميوله النفسية ، وتطلعاته البعيدة .

وقد ذهب الأستاذ : السيد علي إبراهيم في كتابه : (شعراء خالدون) ^(١) إلى أن البارودي لم يصور الحرب ، والبطولة إلا بعد أن ألقته الأيام في مهاوي المنفى بجزيرة سرنديب ، وبعد أن نزعت عنه الأيام شارات المجد ، مدعياً أن كل إنسان لا يدرك ما كان فيه من قوة ، وفتوة ، ونعمة إلا بعد أن تسطو عليه الخطوب .

ولكن هذا القول ليس فيه إنصاف لشعر البارودي المتعلق بالبطولة ، وتقذح في نزعتة البطولية ! ولا شك أن الأسر ، والهزيمة يجددان في نفوس الأبطال الإحساس بالماضي المشرق ، والحاضر المؤلم ، وهذا ليس بغريب فالأسد في حديقة الحيوان يتمثل حياة الغابة ، وهو في قفصه ، وهذا لا ينفي أنه كان أسداً ضارباً مخيفاً قبل أن يؤسر ، فالبارودي كان بطلاً في نشأته ، وإحساسه ، وفي جميع مراحل حياته ، وكان يتغنى ببطولته قبل أن يحقق في عالمه شيئاً ، وظلّ كذلك حتى طوت الأيام صحيفته ، وهو إن لم يتغن ببطولته فيما سبق من عمر الشباب ، والفتوة ، وقبل نفيه ففيم كان يقول الشعر ؟ أفي الطاس ، والقيان ؟ وعليه فإن البارودي عبّر عن بطولته في كل لحظة من لمحاته ، ولكن الأسر ، والنفي ، والإهانة عمقت في نفسه الإحساس بماضيه .

وللنفي ، والهزيمة أثران عميقان في شعر البارودي البطولي الذي صدح به خلال فترة النفي :

(١) ص ٣١٣ .

الأول : جعله يثور ثورة عارمة ليثأر لنفسه فبالغ في تصوير بطولته ، و إبراز سطوته دونما تحفظ ، ولكن مبالغاته كانت حسنة مقبولة تدل على تصوير بديع ، وذوق رفيع .

الثاني : جعله يثوب أحياناً إلى رشده ، ويكف من غلوائه ، فقد أدرك أن كل دور إذا ما تمّ ينقلب ، فكظم غيظه ، ومال إلى الاعتدال في تصوير بطولته ، وفخره بنفسه ، وإن لم يخل شعره من الشكوى .

ونستطيع أن نقول عن شعر البارودي البطولي بعد النفي إنه النار الكامن تحت الرماد ، إلا أننا نستطيع أن نقول عنه أيضاً إنه أكبر رثاء لآماله ، وطموحاته الموعودة ، ولولا أمانى النفس . وهي حياتها. لما طار له فوق البسيطة طائر .

ولعلّ أهم ما يميّز شعر الحماسة ، والبطولة عند البارودي هو مقدرته على التصوير بملكته الخيالية الخصبة ^(١) ، فقد صوّر النزعات البطولية تصويراً ينبض بالحركة ، والحيوية خاصة في المغامرات ، وميادين القتال ؛ فهو يضم المشاهد ، ويؤلف منها لوحة فنيّة معبرة .

❖ أثر البطولة في شعر البارودي :

كان لإحساس البارودي ببطولته ، والتزامه منهج الحماسة في التعبير عن ذلك ، واحتذائه لأساليب الشعراء الأقدمين ، كان له آثار إيجابية في شعره أهمها :

١. الخروج من النطاق الشخصي الضيق إلى مجالات أوسع شملت الفخر بالأجداد ، والأسلاف ، وماضي الأمة ، وتصوير التفوّق الحربي في ميادين القتال ؛ فالنصر الذي يحققه كان يعدّه نصراً لوطنه ، وعشيرته .

٢. منح الشاعر مكانة اجتماعية ، وسياسية حيث صار أمل الأمة ، ورجاء البلاد فهو البطل الصنديد الذي تحتاج إليه البلاد ، ويحتاج إليه الشعب ليقودهم ، فقد تجسدت فيه القيم البطولية ، و المثل العليا التي تؤهله للقيادة ، والتي يجب أن يتحلّى بها القادة الأبطال مثلما يعرفها الناس من التاريخ ، ومن الأساطير أيضاً .

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٨٩ .

٣. حملت البارودي إلى العودة بالشعر العربي إلى منابعه الخضراء ، حيث ازدهار المعنى ، ونضارة الكلمة ، ونضوج الفكرة ، وسلامة التصوير ، وسلاسة التعبير ، وخصوبة الأخيلا ، وجمال الديباجة ، وكل هذه العناصر الفنية هي من متطلبات الحماسة ، والشعر البطولي .

٤. دفعت البارودي لأن يتحدى الشعراء القدامى ، والفحول طلباً للتفوق ، وإثبات أنه لا يقل عنهم فحولة ، وبطولة ، وذلك عن طريق معارضته لهم ، وهذه المعارضة تعد دليلاً آخر على اكتمال ملكته الشعرية ، وعمق ثقافته الأدبية .

٥. دفعت البارودي إلى التجديد في موضوعات القصيدة العربية ، فنجد في شعره البطولي العواطف الوطنية ، والنواحي السياسية ، والمبادئ الثورية ^(١) .

٦. مزج البطولة بالغزل ، والحماسة بالتشبيب كما هو الحال عند الشعراء الفرسان الفحول الذين كانوا يهدفون من ذلك التقرب إلى المحبوبة ، وكان البارودي يعد نفسه واحداً منهم ، وأنه لذلك لولا الفارق الزمني .

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ص : ٢٥٨ .

الفصل الثاني

النصوص الشعرية وتحليلها

١. شعر المعارك والحروب .
٢. شعر السيف والفرس .
٣. شعر تمجيد البطولة والحضّ عليها .
٤. شعر الاعتداد بالآباء والعشيرة .
- منهجه في التعبير عن البطولة .
 ١. مزج البطولة بالغزل .
 ٢. مزج البطولة بمكارم الأخلاق .
 ٣. مزج البطولة بالفصاحة والعقل .
 ٤. المغالاة في تصوير بطولته .
 ٥. التسلي بالذكريات البطولية .

❖ النصوص الشعرية وتحليلها :

لم يكن البارودي بطل الحرب والوقائع وحدها ، بل كان بطلاً في التمسك بالمبادئ ، والقيم الإسلامية ، فهو يستشعر البطولة ، والحماسة في كل خلجة من خلجات روحه ، وفي كل لمحة من لمحات حياته ، ويتمثل العزة ، والأنفة ، والقوة في كل أفعاله ، وأفكاره ، ويلتزم الكرامة في كافة تعاملاته .

ومع أنه صنع مجداً خالداً بجرأته ، وإقدامه ، وأخلاقه ، إلا أنه استمد البطولة أيضاً من أسلافه ، وورثها من آبائه ، وأسس مدرسة بطولية أخذ يدعو إليها ، ويروج لأهدافها ، ومبادئها المتمثلة في طلب المجد عن طريق التضحيات ، وحبب إلى الناس اقتحام المخاطر ، والاستبسال في أرض الحروب ، وأيقظ فيهم الإحساس بالكرامة ، والسيادة ، ونفّرهم من حياة الذل ، والدعة ، والاستسلام ، والخمول .

والبطولة عند البارودي مؤسسة على المفاهيم الإسلامية التي تدعو إلى الشجاعة ، والقوة ، والجهاد في سبيل الحق ، ومع ذلك فقد كان البارودي يطلب ببطولته بعض حطام الدنيا ، فقد كان يستهويه حبّ الظهور . وتقلّد المناصب العليا ، ونيل الرتب العلية ، والعيش وسط الأضواء الباهرة فجاءت نهضته الأدبية متمشية مع هذه الشخصية الشامخة الطموحة المتحصنة بالعزة ، والبطولة ، والشموخ ، والشمم .

ونحاول في هذا المجال أن نستعرض بعض النصوص الشعرية للبارودي التي تكشف عن بطولته ، وتلك الجوانب في شعره .

١. شعر المعارك والحروب :

في الأبيات التالية يصف البارودي شدة الحرب ، وشراستها ، ويصف من خلالها مواقفه فيها ، وما قام به من جلائل الأدوار ، قال ^(١) :

(١) ديوان البارودي ٩٤/١ .

- فَلَا جَوَّ إِلَّا سَمْهَرِيٌّ وَقَاضِبٌ وَلَا أَرْضَ إِلَّا شَمَرِيٌّ وَسَابِحٌ^(١)
 تَرَانَا بِهَا كَالْأَسَدِ نَرْصُدُ غَارَةً يَطِيرُ بِهَا فَتَقُّ مِنَ الصُّبْحِ لَامِحٌ^(٢)
 مَدَافِعُنَا نُنْصِبُ الْعِدَا وَمُشَاتُنَا قِيَامَ تَلِيهَا الصَّافِنَاتُ الْقَوَارِحُ^(٣)
 ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ تَقْبِهِنَّ سَاقَةٌ صِيَالُ الْعِدَا إِنْ صَاحَ بِالشَّرِّ صَائِحٌ^(٤)
 فَلَسْتُ تَرَى إِلَّا كُמَاءَ بَوَاسِلًا وَجُرْدًا تَخُوضُ الْمَوْتَ وَهِيَ ضَوَابِحُ^(٥)
 نُغِيرُ عَلَى الْأَبْطَالِ وَالصُّبْحِ بِاسْمٍ وَنَأْوِي إِلَى الْأَدْغَالِ وَاللَّيْلِ جَانِحُ^(٦)
 بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الْحَرْبَ أَقْبَلَتْ بِأَبْنَائِهَا وَالْيَوْمُ أَغْبَرُ كَالْحُ^(٧)
 وَلَمْ يَكْ مَبْكَاهُ لِحُوفٍ وَإِنَّمَا تَوَهَّمُ أَنِّي فِي الْكَرِيهَةِ طَائِحُ^(٨)
 فَقَالَ : اتَّذِقْ قَبْلَ الصِّيَالِ وَلَا تَكُنْ لِنَفْسِكَ حَرْبًا إِنَّنِي لَكَ نَاصِحُ^(٩)
 أَلَمْ تَرَ مَغْفُودَ الدُّخَانِ كَأَنَّمَا عَلَى عَاتِقِ الْجُوزَاءِ مِنْهُ سَرَائِحُ؟^(١٠)
 وَقَدْ نَشَأَتْ لِلْحَرْبِ مُزْنَةٌ قَسَطَلِي لَهَا مُسْتَهْلٌ بِالْمَنِيَّةِ رَاشِحُ^(١١)
 فَلَا رَأَى إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِنَجْوَةٍ فَإِنَّكَ مَقْصُودُ الْمَكَانَةِ وَاصِحُ^(١٢)
 فَقُلْتُ تَعْلَمُ أَنَّمَا هِيَ خُطَّةٌ يَطُولُ بِهَا مَجْدٌ وَتُخْشَى فَضَائِحُ^(١٣)

(١) الشمري : الفارس المجرب . السابح : الفرس السريع الذي يجري بخفه كأنه يسبح في الهواء .

(٢) الفتق : إنبلاج الضوء . لامح : مضيء ، أو لامع .

(٣) نصب : أمام العين . الصافنات : جمع صافن وهي الخيل السريعة الكريمة التي تقف على ثلاثة أرجل ، ويقوم الرجل الرابعة على الحافر . القارح : الفرس الشاب القوي .

(٤) صيال : بطش .

(٥) الضوابع : الخيل المتعبة التي تسمع صوت أنفاسها المتسارعة عندما تركض .

(٦) الليل جانح : مظلم مشتمل .

(٧) أبناء الحرب : أهوالها ، ومصائبها ، ودواهيها . كالح : عبوس هائل .

(٨) طائح : هالك .

(٩) اتذ : تمهل . الصيال : اقتحام الحرب . لا تكن حرباً : لا تهلكها .

(١٠) الجوزاء : نجم بعيد . سرائح : قطع الدخان المتصاعد .

(١١) المزنة : السحابة . القسطل : الغبار الهائل . الرشح : العرق الغزير .

(١٢) النجوة : الناحية المأمونة .

(١٣) الخطه : الشأن .

يصف لنا البارودي بعض مشاهد هذه المعركة الرهيبة ، وكيف أنه خاض لجّتها ، وغامر فيها ؛ فالجو ممتلئ بالرماح ، والسيوف ، والأرض مائجة بالكمأة الفرسان ، والخيول الكريمة ، والمدافع منصوبة ، والجيش الزاحفة متحفزة للوثوب ، والعدو في أعلى درجات التأهب ، والجنود الشجعان مدججين بالأسلحة الفتّانة . فكانت المعركة حامية الوطيس ، والبارودي ومن معه يقاتلون الأعداء نهاراً ، ويختبئون في الغابات ليلاً ، ولشدة المعركة توهّم بعض أصحاب البارودي أنه سيهلك في هذه المعركة لأنه قائد القوم ، وسيدهم ، وأكثرهم جرأة ، واستهانة بالموت ، وصيال العدو ، والأعداء دائماً يسعون إلى قتل أمثاله حتى ينقطع دابر الجيش ، ولكن البارودي ردّ على مخاوف أصحابه بأنه لا يخشى الموت بل يسعى إلى المجد ، ولو كانت حياته هي الثمن ، فهو يخشى العار مع الحياة ، ويستعذب الموت مع طيب الذكر ، ونصاعة المجد .

والأبيات السابقة تصوّر لنا مظهراً من مظاهر بطولة البارودي ؛ فهو جريء مقدام ، يخوض المعارك الطاحنة ، ويلقي الجيش العاتية ، فيجاهدهم جهاد الأبطال ، ويقاتلهم قتال الشجعان حتّى يخشى عليه بعض أصحابه الموت ، ولكنه يردّ رداً يدل على ما يعتمل في نفسه من البطولة ، والإقدام ، فهو يقاتل لغايات سامية ، ويتطلع إلى معالي الأمور ، وفلسفته في الحياة هي فلسفة الأبطال الذين يرون في حياة المذلة موتاً شنيعاً ، ويرون في موت العزة حياة جديدة خالدة ، وهكذا كان البارودي في جميع المعارك التي يخوضها يضرب أروع الأمثلة في البطولة ، والتضحية .

وهناك الكثير من الشواهد الدالة على بطولة البارودي ، وإحرازه قصب السبق في ميادين النزال حيث يقول (١) :

وَنَفْعِ كُلِّجِ الْبَحْرِ خُضْتُ غِمَارَهُ وَلَا مَعْقِلٍ إِلَّا الْمَنَاصِلُ وَالْجُرْدُ (٢)

(١) ديوان البارودي ١/ ١٣٩ .

(٢) النقع : الغبار الذي تثيره سنايك الخيل . لَجّ : وسط الماء ، والمراد به شدة المعركة ، وكثرة المتحاربين . المعقل : الملجأ ، والحصن . المناصل : السيوف القاطعة . الجرد : جمع أجرد ، وهو الجواد السريع ، القصير الشعر .

- صَبَرْتُ لَهُ وَالْمَوْتُ يَحْمَرُّ تَارَةً وَيَنْغَلُّ طَوْرًا فِي الْعَجَاجِ فَيَسْوَدُّ (١)
 فَمَا كُنْتُ إِلَّا اللَّيْثُ أَنْهَضَهُ الطَّوَى وَمَا كُنْتُ إِلَّا السَّيْفَ فَارَقَهُ الْغَمْدُ (٢)
 صَوُولٌ وَلِلْأَبْطَالِ هَمْسٌ مِنَ الْوَنَى ضَرْوبٌ وَقَلْبُ الْقَرْنِ فِي صَدْرِهِ يَغْدُو (٣)
 فَمَا مُهْجَةٌ إِلَّا وَرُمَحِي ضَمِيرُهَا وَلَا لَبَّةٌ إِلَّا وَسَيْفِي لَهَا عِقْدٌ (٤)

فها هو البارودي (فارس القبيلة) يقتحم غبار الحروب الهائلة معتمداً على سيفه المرهف البتار ، وسرعة فرسه القوي السابح ، وهو صبور على مكاره القتال ، فعندما تسيل الدماء ، ويشتد الظلام ، ويتكاثر الغبار تجده وسط لجة المعركة يضرب يمناً ، ويسرة ، ويبدو كالليث الغاضب الذي أضناه الطوى ، و هو دوماً كالسيف المجرد من غمده لا يعرف سوى البتر ، والإطاحة بالرؤوس ، وإفراء الجماجم يثب على الفرسان بسيفه فيعمل فيهم طعناً ، وتقتيلاً ، ويثخن في ضرب الصناديد . ويكون في قمة شجاعته ، وإقدامه في الوقت الذي يحدث فيه الأبطال أنفسهم بالفرار من المعركة لاحمرار الحلق ، واستحارار القتل ، فالبارودي قلبه في أكنة من الخوف ، وفي أذنيه وقر من سماع نداء الفرار ، ويستمر في القتال بكل جد ، وعزم ، وسيفه كالقلادة في أعناق الفرسان ، ورمحه كالسرّ بخفيه في قلوب أعدائه .

والأبيات السابقة تمثل شجاعة البارودي ، وجسارته في اقتحام الحروب ، ومواجهة الأعداء ، فهو يجيد استخدام الأسلحة ، ويعتمد عليها في المواجهة ، و

(١) يحمرّ يكثر فيه القتل ، وتسيل الدماء . ينغلّ : يدخل . العجاج : الغبار ، والدخان الكثيفان .

(٢) الطوى : الجوع الشديد .

(٣) صوُول : كثير الوثب على الأعداء بالسيف . الونى : الضعف ، والفتور ، والكلال . ضروب : مبالغة من الضرب بالسيف . القرن : الكفوء في الشجاعة ، والاستبسال .

(٤) المهجة : الدم ، أو القلب ، أو الروح ، أو الجسد . الضمير : ما يخفى داخل القلب ، المراد أنه يخفى رمحه في قلوب الأعداء عندما يطعنهم كالسر . اللبة : موضع القلادة من العنق . العقد : القلادة ، والمراد أن سيفه يمرّ على الأعناق كالعقد ، وهذا كناية عن قطعه للرؤوس .

هذا إلى جانب عزمه الماضي ، وصبره الشديد ، وشجاعته التي لا تقل عن شجاعة الليوث الجائعة ، وشراستها ، قوي متمرس بالقتال لا يتعب إذا تعب الفرسان ، يجيد فنون الحرب ؛ فسيفه يطيح بالرؤوس ، ورمحه يختفي في قلوب الكماة ، و كل هذه من دلائل البطولة ، والفروسية .

لم يقتصر بطولة البارودي على وصفه للمعارك التي اصطلى بنارها ، وخاض غمارها ، وصرع فرسانها ، وأباد كماتها ، وقطف فيها أزاهير النصر ، بل إن بطولته تمتد إلى أبعد مدى ، ويسع أوسع نطاق ، فهو يحن إلى الحرب ، والنزال ، وتهفو أذنه إلى سماع صليل السيوف ، وصهيل الخيول ، ووقع الأسنة على الدروع ، وتشتاق عيناه لرؤية غبار المعارك الثائرة ، وبريق السيوف الباترة ، ويتمنى أن يخوض بحور الدماء السائلة ، فالبطولة في نفس البارودي نار لا تهدأ ، وبركان لا يعرف الخمود فيقول معبراً عن حنينه إلى الحرب ، وخوض المعارك ^(١) :

فَمَنْ لِي . وَالْأَمَانِي كَاذِبَاتٌ . بِيَوْمٍ فِي الْكَرِيهَةِ أَرْوَانُ ^(٢)

الْأَعْبُ فِيهِ أَطْرَافَ الْعَوَالِي وَأَطْلُقُ بَيْنَ هَبْوتِهِ حِصَانِي ^(٣)

تَرَانِي فِيهِ أَوَّلَ دَاعٍ وَيَرْتَفِعُ الْغُبَارُ فَلَا تَرَانِي ^(٤)

إِلَى أَنْ تَجْلِي الْغَمَرَاتُ عَنْهُ وَيَغْرِفَنِي بِفَتْكِي مَنْ بَلَانِي ^(٥)

أَنَا ابْنُ اللَّيْلِ وَالْخَيْلِ الْمَذَاكِي وَبَيْضِ الْهَنْدِ وَالسَّمْرِ اللَّدَانِ ^(٦)

إِذَا عَيْنٌ أَجَدَّ بِهَا طِمَاحٌ جَعَلْتُ مَكَانَ حَبَّتِهَا سِنَانِي ^(٧)

(١) ديوان البارودي ٦٥/٤ .

(٢) أروان : يوم عصيب شديد الهول .

(٣) الهبوة : الغبار الذي يثيره سنابك الخيل في الحروب .

(٤) داع : الذي يدعو إلى القتال ، أو من يطلب المبارزة ، وهذا دليل الشجاعة ، والثقة .

(٥) الغمرات : أهوال الحرب ، وشدائدها . بلاني : جريني ، واختبرني .

(٦) ابن ليل : كثير السير في الليل . المذاكي : القوية . اللدان : اللينة في صلابة .

(٧) أجد : اجتهد . الطمّاح : رفع البصر . الحبة : سواد العين . السنان : الرماح ، والسهام .

يتمنى البارودي أن يخوض حرباً يضرب بسيفه في غمراته ليرضى نزعته البطولية ، ويبدي كفايته العسكرية ، فهو في هذه المعركة التي يرجوها إذا دعا داعي الحرب كان أول من يجيب ، وأول من يرى من الفرسان ؛ فيقتحم المعركة حتى إذا اشتدت ، واحمر بأسها يحجبه غبار تلك المعركة ، ويغيب في غياهب القتال ، وعندما تنتهي المعركة يبرز من جديد فيعرفه الناس بفتكه ، وجراته ، وشجاعته ، ثم يفخر بأنه معتاد على ركوب الأخطار ، ومتمرس باستخدام السلاح وآلة الحرب ، يخزي عدوه ، ويكسر كبرياءه ، وينكس رأسه في التراب .

في الأبيات الفائتة يعبر البارودي عن أمنيته في خوض معركة طاحنة ، والجملة الإعتراضية في الشطر الأول (والأمانى كاذبات) تدل على شدة تعلقه بهذه الأمانة ؛ فهو لبطولته يشتهي معركة يطلق بين غبارها العنان لجواده ، ويطاعن فيها بأطراف القنا ، والرماح ، ويظهر فيها مهاراته في الكرّ ، والفرّ ، و ركوب الخيل ، واستخدام السلاح . كما يشير إلى أنه لا يشتهي معركة عادية ، أو هادئة ، بل يشاق إلى معركة رهيبة شديدة ، ويشير إلى شجاعته بأن جعل نفسه أول من يقتحم الحرب فتخفيه غباره مما يدل على أنه في لجّ القتال ، كما عبّر عن بطولته ، وفتوته ، وشهرته ، فهو بعد أن ينقشع غبار المعركة يعرفه الجميع بشجاعته ، وفتكه ، بما خلفه من القتلى ، والمجندلين ، و مثل هذه المعارك التي كان يحلم البارودي بخوضها تقف شاهدة على بطولته ، و فروسيته ، و يقول في موضع آخر (١) :

تَالله أَهْدَأُ أَوْ تَقُومُ قِيَامَةٌ فِيهَا الدَّمَاءُ عَلَى الدَّمَاءِ تُرَاقُ (٢)

تَرْتَدُّ عَيْنُ الشَّمْسِ فِي سَتَرَاتِهَا وَيَضِلُّ فِي هَبَوَاتِهَا الْإِشْرَاقُ (٣)

(١) ديوان البارودي ٢٦٢/٢ .

(٢) تالله أهدأ : لا أهدأ . القيامة : المراد بها هنا الحرب ، والقتال .

(٣) ترتد عين الشمس : تحتجب ويذهب نورها . السترات : جمع سترة ، وهي ما تستر الشمس من غبار ، وغيوم . الهبوات : جمع هباء ، وهي دقائق التراب النائر في الجو كالدخان . الإشراق : ضوء الشروق في الصباح .

شَعَوَاءُ تَلْتَهُمُ الْفَضَاءَ وَيَرْتَقِي مِنْهَا عَلَى حُبِّكَ السَّمَاءَ نِطَاقُ^(١)

فالبارودي هنا لا تهدأ ثأثرته إلا حين تشتعل نيران الحرب ، وتدور رحى القتال ، وهو يشتااق إلى المعارك العنيفة التي ينعقد في سمائها ما يحجب ضياء الشمس من الغبار الكثيف التي تثيره سنايك الخيل ، وتحركات المقاتلين ، و الدخان المنبعث من المدافع . معركة كبيرة تتسع ، وتشتدّ حتّى أن غبارها ، ودخانها تحيط بأقطار السماء كالنطاق .

والبارودي في الأبيات السابقة يتمدّح بحب المعارك الشرسة ، وعشق الحروب الضارية ، ولا يشتااق إلى الحرب ، وإلى مثل هذه المعارك سوى فارس كرّار ، وبطل مغوار ، لا يعرف الاستكانة ، والدّعة ، وتعليل الصغار بالماء ، بل يعشق البطولات ، والوثوب على أوكار الموت .

ومن دلائل البطولة في شعر البارودي شجاعة جنوده الفرسان الذين يحاربون إلى جانبه حيث يخوضون معه أشرس المعارك ، وقد اعتاد العرب الفخر بالإقدام ، وبالمحاربين الذين يدافعون عن القبيلة ، وبطولة الجند تمثل ملمحاً لبطولة القائد ، وجرأته ويقول البارودي واصفاً جنوده^(٢) :

وَفِتْيَةٌ كَأَسْوَدِ الْعَابِ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الرِّمَاحُ إِذَا احْمَرَّ الْوَعْيُ أَجْمُ^(٣)

كَالْبَرْقِ إِنْ عَزَمُوا ، وَالرَّعْدِ إِنْ صَدَمُوا وَالْغَيْثِ إِنْ رَحِمُوا وَالسَّيْلِ إِنْ هَجَمُوا^(٤)

إِنْ حَارَبُوا مَعْشَرًا فِي جَحْفَلٍ غَلَبُوا أَوْ خَاصَمُوا فِتْنَةً فِي مَحْفَلٍ خَصَمُوا^(٥)

لَا يَرْهَبُونَ الْمَنَايَا أَنْ تُلِمَّ بِهِمْ كَأَنَّ لُقَى الْمَنَايَا عِنْدَهُمْ حَرَمُ^(٦)

(١) الحبك : الطرق ، والسبل . نطاق : كل ما يشدّ به الوسط .

(٢) ديوان البارودي ٥٣٧/٣ .

(٣) احمرّ الوعى : اشتد القتال ، وسالت الدماء . الأجم : الغابات الكثيفة ، ومنها مساكن الأسود .

(٤) الغيث : المطر الخاص بالخير . الرعد والبرق : المراد بها القوة ، والسرعة في الهجوم ، والمباغطة .

(٥) الجحفل : الجيش الكثير فيه الخيل ، والفرسان والراجلون . المحفل : مكان التجمع ، والاحتشاد .

(٦) المنايا : الموت . ألم به : نزل به . حرم : لا يحل التفريط فيه أو انتهاكه .

مُرْفَهُونَ حِسَانٌ فِي مَجَالِسِهِمْ وَفِي الْحُرُوبِ إِذَا لَا قِيَتَهُمْ بِهِمْ^(١)
 مِنْ كُلِّ أَزْهَرِ كَالدِّينَارِ غُرَّتُهُ يَجْلُو الْكَرْيَهَةَ مِنْهُ كَوَكَبٌ ضَرِمٌ^(٢)
 لَا يَرْكَنُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا إِذَا هُمْ شَعَرُوا بِالذُّلِّ أَوْ نَقِمُوا^(٣)
 قَدْ حَبَبَ الْمَوْتَ كُرْهُ الضِّيمِ فِي نَفَرٍ لَوْلَاهُمْ لَمْ تَدُمْ فِي الْعَالَمِ النَّعْمُ^(٤)
 ماتوا كراماً وأبقوا للعلاء أثراً نالت به شرف الحرية الأمم

يقول البارودي إنه يقاتل إلى جانبه فرسان بسلاء شجعان يحسنون الجلال ، والكفاح إذا جدّ الجد ، واشتدّ البأس ، وصدقت الحملة ، وإذا عزموا أمراً أمضوه بسرعة البرق ، يهجمون على العدو بقوة الرعد القاصف ، واندفاع السيل الجارف ، وفي السلم رحماء محسنون رحمتهم واسعة ، ونفعهم عميم ، معتادون النصر على العدا في ميادين الجهاد ، ومحافل الخصام ، لا يحذرون الموت بل يقبلون عليه في غبطة ، وبسالة ، ويلقونه لقاء المشتاق . وهم في مجالس سلمهم وادعون تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، ولكنهم في ميادين القتال أشداء يرهبون العدو ، تجد في وجوههم الصرامة ، والجد ، والجمود ، وهم كالكوكب النيرة في سمو المنزلة ، ونباهة الشأن ، وذيوخ الصيت ، يبددون بشجاعتهم ظلام الكرائه ، و يسارعون إلى نجدة المستغيث ، وإذا أحسوا الظلم ، والضيم زهدوا في الدنيا وزينتها ، وخلعوا ثياب الرفاهية ، وجاهدوا باستبسال مستعذبين طعم الموت في سبيل العزة ، والكرامة ، ودفع الذل ، والهوان ، وهم الذين يدفعون حياتهم ثمناً لحرية أمهم ، ولكنهم لم يفنوا بموتهم ، بل ظلّوا أحياء في وجدان الناس بما حققوه .

وتلك هي صورة مشرقة للبطولة المشرفة ، والشجاعة المباركة ، والقائد حتماً أكثر جرأة ، وشجاعة ، وخبرة من جنوده ، وكان البارودي يقود هؤلاء الليوث المغاوير الذين يتحلون بأروع صفات البطولة ، والجسارة ، يسرعون

(١) مرفهون : يحيون حياة الرفاهية . البهم : المحاربون الأشداء ، المرعبون للعدو .

(٢) الأزهر : الأبيض . الغرة : الطلعة . يجلو : يكشف . الكريهة : الحرب . الضرم : المضيء المتلألأ ذو البريق .

(٣) لا يركنون : لا يميلون . نقموا : أنكروا ، واستهجنوا .

(٤) الضيم : مصدر ضامة أي : ظلمه .

الخطى إلى المعارك ، ويشدون على الأعداء كالرعد ، يبالغون في الفتك بالأعداء لا يخشون الموت إن كان في سبيل الحق ، وهم إلى جانب ذلك قد جمعوا صفات الرحمة ، والكرم ، والتقوى ، وهذه هي البطولة الإسلامية في أبهى صورها ، يعبر عنها البارودي من خلال وصفه لشجاعة جنده الذين يعتمد عليهم في الحرب .

ويعبر البارودي عن بطولته من خلال وصفه للأهوال التي يلاقيها في الأراضي التي يعبرها ، أو يمر بها ، وفي المغامرات التي يقوم بها ، التي تنطوي على كثير من المخاطر ، وكذا كان الشعراء القدامى يفعلون ^(١) ، حيث يصفون الصحاري ، والفلوات ، و ما فيها من الشدائد ، والأهوال التي تقابلهم فيها ، وقد قال البارودي يصف جانباً من الأراضي التي اجتازها في طريقه إلى إحدى المعارك ^(٢) :

وَرُبَّ يَوْمٍ طَوِيلٍ الْعُمْرِ قَصَرَهُ جَرِي السَّوَابِقِ وَالْوَحَادَةُ النُّشُطُ ^(٣)
كَأَنَّمَا الْوَحْشُ مِنْ تَلْهَابِ جَمْرَتِهِ مُبَدِّدًا تَحْتَ أَشْجَارِ الْغَضَى خَبَطُ ^(٤)
تَرَى بِهِ الْقَوْمَ صَرَعى لِحَرَكَ بِهِمْ كَأَنَّهُمْ مِنْ عَتِيقِ الْخَمْرِ قَدْ سَقَطُوا
وَلَيْلَةٌ ذَاتُ تَهْتَانٍ وَأَنْدِيَةٍ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِيهَا صَارِمٌ سَلَطُ ^(٥)
لَفَّ الْغَمَامُ أَقَاصِيَهَا بِبُرْدَتِهِ وَانْهَلَّ فِي حَجَرَتَيْهَا وَابِلٌ سَبَطُ ^(٦)
بَهْمَاءَ لَا يَهْتَدِي السَّارِي بِكُوكِبِهَا مِنْ الْغَمَامِ وَلَا يَبْدُو بِهَا نَمَطُ ^(٧)
يَكَادُ يَجْهَلُ فِيهَا الْقَوْمُ أَمْرَهُمْ لَوْلَا صَهِيلُ جِيَادِ الْخَيْلِ وَاللَّغَطُ ^(٨)

(١) العصر الجاهلي ص : ٢٠٢ ، وما بعدها .

(٢) ديوان البارودي ١٦٧/٢ .

(٣) السوابق : الخيل السريعة المتقدمة على غيرها في جريها . الوحادة : المسرعة ، الواسعة الخطوة .

(٤) مبدداً : مفرقاً . الغضى : شجرة تنبت في الأراضي الرملية ، وتمتاز بصلابتها خشبها . الخبط : ما يسقط من روق الشجر .

(٥) التهتان : المطر المتقطع النزول . أندية : من الندى ، وهو البلل . السلط : السيف الذي لا نتوء في نصله .

(٦) أقاصيها : أطرافها ، ونواحيها . انهل : انصبّ وسال بشدة . حجرتيها : ناحيتيها . سبط : شديد متواصل متدارك .

(٧) بهماء : سوداء مظلمة ، وهي صفة لليل . النمط : الطريق .

(٨) اللغط : الجلبة ، والأصوات المبهمة المختلطة .

- يَطْفَى بِهَا الْبَرْقُ أَحْيَاناً فَيَزْجُرُهُ مُخْرَنْطَمٌ زَجَلٌ مِنْ رَعْدِهَا خَمِطٌ ^(١)
 كَأَنَّمَا الْبَرْقُ سَوْطٌ وَالْحَيَا نُجْبٌ يُلَوِّحُ فِي جِسْمِهَا مِنْ مَسِّهِ حَبِطٌ ^(٢)
 كَأَنَّهُ صَارِمٌ يَرْفُضُ مِنْ عَلَقٍ بِالْأَفْقِ يُغْمَدُ أَحْيَاناً وَيُخْتَرِطُ ^(٣)
 مَزَّقَتْ جِلْبَابَهَا بِالْخَيْلِ طَالِعَةً مِثْلَ الْحَمَائِمِ فِي أَجْيَادِهَا الْغُلُطُ ^(٤)

يخبر البارودي أن الطريق كان مقفراً موحشاً ، والوحوش متناثرة مثل ورق الشجر تحت الأشجار ، وكان الجو شديد الحر حتى أن الناس بها صرعى لاحتراك بهم كأنهم سكروا بخمر فسقطوا ، ثم ساروا في ليلة مخيفة ممطرة ، البرق يتوهج ، ، ويلمع كالسيف المسلول من غمده ، والسحب كثيرة متراكمة ، والأمطار غزيرة هامية ، والظلام حالك السواد حتى أن الساري لا يتبين الطريق ، ولا يرى الركبان بعضهم ، ولا يعلمون أنهم يسيرون إلى جنب بعضهم إلا من صهيل خيولهم الكريمة ، وكان البرق يلمع في السحب كالسوط الذي يضرب به الإبل ، بل يبدو أحياناً كالسيف يقطر منه الدم ، وقد سار البارودي في هذه الليلة الرهيبة ، واجتازها مع جماعته بخيولهم السريعة الخفيفة .

وتظهر لنا شجاعة البارودي ، وبطولته من خلال هذه الأبيات التي يصور فيها سيره مع رفاقه في هذه الليلة المظلمة الممطرة ، في تلك الأراضي المقفرة الموحشة من أرض العدو ، فالظلام مطبق ، والبرق لامع مثل النار ، والرعد قاصف هادر ، والنهار شديد الحر كأنه لفح الجحيم . وسير البارودي في مثل هذه البلاقع ، وتحمله لهذه الأهوال ، وصبره على المشاق دليل على بطولته ، وشجاعته ، وعدم مبالاته بالمخاوف ، والمهالك في سبيل الغايات ، والأهداف السامية.

(١) يطغى : يزيد ، ويعظم . مخرنطم : غضبان من قولهم اخرنطم الرجل إذا رفع أنفه كبيراً . الخمط : الغضوب .

(٢) الحيا : المطر ، النجب : كرائم الخيل ، والإبل . مسه : جلده بالسوط . الحبط : آثار السوط على البدن .

(٣) يرفض : يسهل ، ويتفرق . العلق : الدم . يختلط : يسل ، ويجرد من غمده .

(٤) الغلط : الطوق حول عنق الحمام ، وأيضاً الحبل حول عنق البعير ، ونحوه .

وإن دخول المغامرة ، وتحمل الشدائد ، واقتحام الأهوال ، وتحدي الأخطار
لهي ضرب آخر من البطولة يبرزها البارودي في الأبيات الآتية ^(١) التي يصف لنا
فيها الأخطار التي اجتازها عند سيره للمشاركة في الحرب الروسية ^(٢) :

وَأَصْبَحْتُ فِي أَرْضٍ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا وَتَرْهَبُهَا الْجَنَانُ وَهِيَ سَوَارِحُ ^(٣)
بَعِيدَةُ أَقْطَارِ الدِّيَامِيمِ لَوْ عَدَا سَلْيُكَ بِهَا شَاوَا قَضَى وَهُوَ رَازِحُ ^(٤)
تَصِيحُ بِهَا الْأَصْدَاءُ فِي غَسَقِ الدُّجَى صِيَاخُ الثَّكَالِي هَيَّجَتْهَا النَّوَائِحُ ^(٥)
تَرَدَّتْ بِسُمُورِ الْغَمَامِ جِبَالُهَا وَمَاجَتْ بِتَيَّارِ السُّيُولِ الْبَطَائِحُ ^(٦)
فَأَنْجَادُهَا لِلْكَاسِرَاتِ مَعَاقِلُ وَأَغْوَارُهَا لِلْعَاسِلَاتِ مَسَارِحُ ^(٧)
مَهَالِكُ يَنْسَى الْمَرْءُ فِيهَا خَلِيلَهُ وَيَنْذُرُ عَنْ سَوْمِ الْعُلَا مَنْ يَنْفَاحُ ^(٨)

هاهي الأرض التي يسلكها البارودي ، قاحلة مخيفة ، يضل فيها طيور القطا
التي تشتهر بصعوبة ضلالها ، وتخاف الجنون أن تجتازها ، وتشفق منها ، وهي
عبارة عن صحراء مترامية الأطراف لو جرى فيها أشهر عدائي العرب .

(١) ديوان البارودي ٩٣/١ .

(٢) اندلعت الحرب الروسية بين تركيا ، وروسيا سنة ١٨٧٧م ، وانتهت بهزيمة تركيا هزيمة منكرة ، وأجبرت
على توقيع اتفاقية (سان استيفانو) التي فقدت فيها تركيا الكثير .

(٣) القطا : نوع من الحمام يضرب به المثل في الاهتداء . جنان : جمع جان من الجن . سوارح : تتجول بحرية
، وكثرة .

(٤) أقطار : أنحاء . الدياميم : جمع ديمومة ، وهي الصحراء الواسعة . سليك : هو سليك بن يثري بن سنان
بن سلكة ، وكان صعلوكاً عداءً ، ولصاً بطاشاً ، يضرب به المثل في العدو ، وكان لا تتركه الخيل ، وقيل أنه
كان يطلب الخيل فيلحق بها ، وتطلبه الخيل فلا تلحق به . الشاؤ : الشوط البعيد . رازح : تعب هزيل .

(٥) الأصداء : نوع من الطيور .

(٦) السُمُور : نوع من الحيوانات البرية تمتاز بفرائها الثمين ، ويكثر في بلاد الروس ، والمعنى : أن الجبال
لبست من الجليد ما يشبه السُمُور . وهذا تشبيه جيد .

(٧) العاسلات : الذئاب .

(٨) ينفاح : يكافح ، ويدافع بإصرار ، والمعنى : أن الأبطال الذين يكافحون لنيل العلا يهلكون في هذه الأرض
، لما فيها من الشدائد ، والأهوال .

وهو سليك ابن سلكة . لمات تعباً ، وهماً ، وهلك فتوراً وجهداً دون أن يتمكن من اجتيازها ، تسمع فيها أصوات الوحوش المرعبة التي تبعث على الرهبة ، والفجيرة ، والدمار ، وجبالها تبدو متقلعة بأثواب الغمام البيضاء ، والسيول تغمر أراضيها بالمياه الكثيرة المائجة ، وفي أوكار جبالها تعيش الوحوش الضارية ، وفي منخفضاتها تمرح الذئاب الشرسة . إنها أرض مهلكة ينسي فيها الصديق صديقه ، وينشغل عنه بنفسه ، وتذهل الفارس المقدام عن طلب المعالي فيها لما تشتمل عليها من الأخطار الرهيبة .

ومثل هذه الأراضي كان يجتازها البارودي ، يعينه شجاعته ، وجراته ، وإقدامه ، وعزمه ، وصبره ، وكل هذه مقدمات البطولة ، والفروسية التي نجدها في معاني شعراء العرب الأقدمين .

٢ . شعر السيف ، والفرس :

اعتمد البارودي في إبراز بطولته على طريقة الشعراء الفرسان القدامى ، وأولئك قد عنوا بالخييل عناية فائقة ، واعتمدوا عليها في حياتهم ، وفي تحقيق بطولاتهم ، فالرجل عندهم لا تكتمل بطولته ، ولا يزهو في بُردة فروسيته إلا بامتلاكه لجواد أصيل ، مستوف كل خصال الخيول الكريمة التي يعرفونها ، ويستجيدونها .

والخييل مذكورة في القرآن الكريم ببركاتها ، وفضلها ، وللخييل شأن عظيم في الفتوحات الإسلامية ، وفي غزوات المسلمين ، وبها اكتسب المجاهدون الأوائل هيبته ، وبطولتهم عبر التاريخ . وقد قال البارودي يصف خيلهم ^(١) :

فَتَرَى عِتَاقَ الْخَيْلِ حَوْلَ بَيْوْتِنَا قُبُ الْبُطُونِ تَنَازِعُ الْأَرْسَانَ ^(٢)
مَشَقَّ الطَّرَادِ لِحُومِهِنَّ فَلَمْ يَدَعْ إِلَّا خَوَاصِرَ كَالْقِسِيِّ مِتَانًا ^(٣)

(١) ديوان البارودي ٨٧/٤ .

(٢) عتاق الخيل : نجائبها ، وخيارها . قب البطون : ضامرة . الأرسان : جمع رسن ، وهو الزمام .

(٣) مشق : قتل . الطراد : الطرد ، والجري . القسي : جمع قوس ؛ وهي الآلة التي ترمى بها السهام . متان : متينة قوية محكمة الصنع ، وهذه صفة للقسي .

مِنْ كُلِّ مُنْتَصِبٍ عَلَى أَقْيَادِهِ مُتَطَلِّعٍ يَتَنَظَّرُ الْحَدَثَانَا^(١)
 بِذَخْتِ قَوَائِمِهِ ، وَأَقْبَلَ مَتْنُهُ وَأَنْضَمَ كُلُّهُ وَطَالَ عِنَانَا^(٢)
 فَإِذَا عَلَا حَزْنًا أَطَارَ شَرَارُهُ وَإِذَا أَتَى سَهْلًا أَطَارَ دُخَانَا^(٣)
 وَالْخَيْلُ أَكْرَمُ صَاحِبِ يَوْمِ الْوَعَى وَالسَّلْمُ تَبَعْتُ غَارَةَ وَرِهَانَا^(٤)

يقول البارودي إن خيلهم حول ديارهم ضامرة البطون ، دقيقة الخواصر ، تجذب أرسانها . وهذا دليل على نشاطها ، وتحفزها . ، وهذه الخيول متمرسّة بالطراد ، والركض في الحرب ، والصيد ، ونحوها حتّى صارت قليلة اللحم من كثرة الركض ، والحركة ، وهي خيل قائمة على قيودها ، متطلعة ترتقب الحرب ، والغارة ، وهي مستعدة للحرب مشتاقة إليها ، وهذه الخيول مرتفعة القوائم ، منبسطة الظهر ، بارزة الصدور ، طويلة سيور ألجمتها . وهذه الصفات محمودة في الخيل ، وتفضلها العرب . وهذه الخيول سريعة قويّة ، إذا ركضت في مرتفعات الأرض أطارت شراراً ، وإن ركضت في السهول أثارت غباراً . وهذه كناية عن قوة هذه الخيول ، وسرعتها ، وأصالتها ، وتمرسها بالجري ، والكرّ ، والفرّ . ، ثم أثنى البارودي على الخيل فهي محمودة الصُحبة ، قائمة على الانقياد ، والطاعة ، والنفع العظيم ، والخير العميم ، فهي في الحرب عدّة ، وعتاد ، وفي السلم متعة ، وزينة .

ونجد فيما سبق من الأبيات أنّ البارودي قد وصف خيولهم بصفات الخيل المحبّبة عند العرب في الجاهلية ، والإسلام ، وهي ضمور البطن ، والخاصرة ، و القوة ، و النشاط ، والسرعة ، والخبرة ، والتمرس بالحروب مع الضخامة ، والعلو ، وطول الظهر ، واستوائه ، وإجادة الكرّ ، وإحسان الفرّ ، توقد الشرر بقوة ضرب سنابكها على الصخور ، وإثارة الغبار الكثيف في الأرض المنبسطة ، —

(١) منتصب : قائم واقف . الأقياد : جمع قيد وهو الحبل . الحدّثان : المراد بها الحرب .

(٢) بذخت : علت ، وارتفعت . أقبل : طال . المتن : الظهر . انضم : برز .

(٣) الحزن : ما غلظ ، وارتفع من الأرض . السهل : المنبسط من الأرض . الدخان : الغبار الكثيف الأسود .

(٤) الوعى : الحرب . الرهان : ما كانت العرب تراهن عليه في سباق الخيل .

وبعض هذه الصفات يفضلها القرآن الكريم فقد أقسم الله عز وجل بالخيـل السريعة التي توقد الشرر ، وتنثير الغبار عند ركضها حيث قال : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * (١) * فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا * (٢) * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * (٣) * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (٤).

ويؤكد البارودي أصالة جواده في هذه الأبيات التي يقول فيها (٥) :

بِمُضْمَرٍ أَرِنِ كَأَنَّ سِرَاتَهُ بَعْدَ الْحَمِيمِ سَبِيكَةً عَسَجِدِ (٦)
خَلَصَتْ لَهُ الْيُمْنَى وَعَمَّ ثَلَاثَةً مِنْهُ الْبَيَاضُ إِلَى وَظِيفٍ أَجْرِدِ (٧)
فَكَأَنَّمَا انْتَرَعَ الْأَصِيلَ رِدَاءَهُ سَلْبًا وَخَاضَ مِنَ الضُّحَى فِي مَوْرِدِ (٨)
زَجَلٌ يَرُدُّ فِي اللَّهَاتِ صَهِيلُهُ رَفْعًا كَرْمَزِمَةَ الْحَبِيِّ الْمُرْعِدِ (٩)
مُتَلَفَّتًا عَنْ جَانِبَيْهِ يَهْزُهُ مَرَحُ الصَّبَا كَالشَّارِبِ الْمُتَغَرِّدِ (١٠)
فَإِذَا ثَنَيْتَ لَهُ الْعِنَانَ وَجَدْتَهُ يَمْطُو كَسِيدَ الرِّدْهَةِ الْمُتَوَرِّدِ (١١)
وَإِذَا أَطَعْتَ لَهُ الْعِنَانَ رَأَيْتَهُ يَطْوِي الْمَهَامَةَ فَدَفْدًا فِي فَدْفَدِ (١٢)

(١) العاديات : الخيل السريعة . الضبح : صوت أنفاس الجواد عندما يجري .

(٢) الموريات : المشعلات ناراً . القدح : تطاير الشرر عند ضرب الأرض الصلبة .

(٣) أثرن : هجن . النقع : الغبار الكثيف .

(٤) سورة العاديات ، الآية : ٥ . ١ .

(٥) ديوان البارودي ١ / ١٢٤ .

(٦) المضممر : الخفيف اللحم ، السريع الجري . أرِن : نشط سريع . سراته : أعلى ظهره الحميم : العرق .

(٧) الوظيف : ما فوق الرسغ إلى الساق ، ويعني أن ساقه اليمنى ذهبية اللون كباقي جسده ، أما بقية قوائمه الثلاث الأخرى فقد عمها البياض إلى الرسغ .

(٨) يقصد أن الجواد قد جمع بين البياض ، واللون الذهبي .

(٩) زجل : رقيق الصوت . اللهات : أقصى الفم . كرمزمة : صوته الداوي القوي . الحي : السحب الكثيفة الممطرة ، وسميت بذلك ؛ لأنها تحي الأرض بعد موتها .

(١٠) متلفتاً : كثير التلفت . المرح : النشاط ، والقوة . الصبا : صغر السن . الشارب : السكران . المتغرد الذي يرفع صوته بالغناء طرباً .

(١١) تثنيت : قصرت . يمتطو : يتبخر . السيّد : الذئب ، والأسد . الردهة : التلال الوعرة . المتورّد : المسرع .

(١٢) المهامه ، والفدند : المفازة القاحلة الواسعة الجرداء الموحشة .

- يَكْفِيكَ مِنْهُ إِذَا أَحَسَّ بِنَبَأَةٍ شَدَّ كَمَعْمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُوقِدِ (١)
 صَلْبُ السَّنَائِكِ لَا يَمُرُّ بِجَلْمٍ فِي الشَّدِّ إِلَّا رَضَّ فِيهِ بِجَلْمٍ (٢)
 نِعَمَ الْعَتَادِ إِذَا الشَّفَاةُ تَقَلَّصَتْ يَوْمَ الْكَرْيَةِ فِي الْعِجَاجِ الْأَرِيدِ (٣)

جواد البارودي هنا خفيف اللحم ، سريع العدو ، يلمع ظهره من العرق مثل سبيكة الذهب ، قائم رجله الأيمن ذهبي لونه مثل باقي جسده ، أما قوائمه الثلاث الأخرى فبيضاء إلى الرسغ ، قليل الشعر ، بديع اللون ، يسمع له عند الجري صوت كالرعد ، كثير التلفت ، يقفز بخفة ، ونشاط لصغر سنه ، إذا لم يطلق له العنان سار متبخرراً كالليث ، أو كالذئب ، أما إذا أطلق عنانه ينطلق كما ينطلق السهم ، وينتفض كما ينتفض القدر المحتوم ، يقطع صحراء تلو أخرى ، ويجتاز الأراضي القاحلة الجرداء دون عناء ، أو كلل ، إذا أحسَّ صوتاً خفيفاً يدل على خطر أسرع بسرعة فائقة ، يسمع لوقع حوافره صوتاً عالياً ، وهو صلب الحوافر ، عدة في الحروب يخوض غمارها فلا يجفل ، ولا ينكص .

وكذا تكون خيول الأبطال الفرسان في الشعر العربي . فنجد جواد البارودي قد استوفى كل الصفات المستحسنة في الخيل ؛ فالشعراء الفرسان يتحدثون عن خيولهم فيصفون ألوانها ، وسرعتها ، وقلة شعرها ، ونشاطها ، وقوتها ، وكونها تسمع لها صوتاً عند ركضها ، إلى غير ذلك من الصفات التي يعتزّون بها ، وكذا كان البارودي يهتم بالحديث عن جواده كجزء مكمل لبطولته ، وفروسيته ؛ فجواده يمتاز بكل الخصال ، والصفات السابقة فضلاً عن صغر سنه ، وتبخرته كالليث ، أو كالذئب في حماه ، ومتانة حوافره التي يحطم بها الصخور الصماء ، وهو يعتمد عليه في الكرّ ، والفرّ ، واقتحام الأهوال ، والمخاطر .

(١) النبأة : الصوت الخفي . الشدّ : الجري السريع . المعمعة : صوت الحريق الهائل . الأباءة : حقل القصب الجاف . الموقد : المشتعل .

(٢) رضّ : دق ، وكسّر ، وحطّم ، وهرس . و الجلمد الأول : يريد به الصخرة الملساء الصلبة ، أما الجلمد الثانية : فيريد بها حوافر جواده الصلبة .

(٣) العتاد : عدة الحرب . الشفاة : الشدة في الحرب . تقلصت : شمّرت . العجاج . الأريد : الغبار الأكثر اللون .

وكان البارودي معجباً بجواده غاية الإعجاب لكرمه ، وأصالته ، وكان يرتبط به ارتباطاً قوياً ، فهو عنوانه في سجل البطولات سلماً ، وحرماً ، ووسيلة لإنفاذ هممه ، وتحقيق آماله ، وطموحاته ، فلم يفتر عن الحديث عنه ، وكثير ما كان يقرن وصف المعارك بالحديث عن جواده الذي كان يقتحم به الحروب ، ويحقق به النصر . فقال (١) :

فَقَدْ أَسِيرُ أَمَامَ الْقَوْمِ ضَاحِيَةً وَالْجَوُّ بِالْبَاتِرَاتِ الْبَيْضِ مُشْتَعِلٌ (٢)
بِكُلِّ أَشْقَرٍ قَدْ زَانَتْ قَوَائِمُهُ حُجُولُهُ غَيْرُ يُمْنَى زَانَهَا الْعَطْلُ (٣)
كَأَنَّهُ خَاضَ نَهْرَ الصُّبْحِ فَانْتَبَذَتْ يُمْنَاهُ وَأَنْبَثَتْ فِي أَعْطَافِهِ الطِّفْلُ (٤)
زُرُقٌ حَوَافِرُهُ سُودٌ نَوَاطِرُهُ خُضْرٌ جَحَافِلُهُ فِي خَلْقِهِ مَيْلٌ (٥)
كَأَنَّ فِي خَلْقِهِ نَاقُوسَ رَاهِبَةٍ بَاتَتْ تُحَرِّكُهُ أَوْ رَاعِدٌ زَجِلٌ (٦)
يَمُرُّ بِالْوَحْشِ صَرَعى فِي مَكَامِنِهَا فَمَا تَبَيَّنَ لَهُ شَدَاً فَتَنَخَذِلُ (٧)
يَرَى الْإِشَارَةَ فِي وَحْيٍ فِيْفَهْمَهَا وَيَسْمَعُ الزَّجْرَ مِنْ بُعْدٍ فَيَمْتَثِلُ (٨)
لَا يَمْلِكُ النَّظْرَةَ الْعَجَلَاءَ صَاحِبُهَا حَتَّى تَمُرَّ بِعُطْفِيهِ فَتُحْتَبِلُ (٩)
إِنْ مَرَّ بِالْقَوْمِ حَلُّوا عَقْدَ حَبُوتِهِمْ وَاسْتَشْرِفَتْ نَحْوَهُ الْأَلْبَابُ وَالْمُقْلُ (١٠)
تَقُودُهُ بِنْتُ خَمْسٍ فَهَوَ يَتْبَعُهَا وَيَسْتَشْطِيطُ إِذَا هَا هِيَ بِهِ الرَّجُلُ (١١)

(١) ديوان البارودي ١٥٧/٣ .

(٢) ضاحية : علانية جهاراً . الباترات : السيوف القواطع . مشتعل : تبارق كأنها تشتعل بالنار .

(٣) الشقرة : حمرة صافية . الحجول : البياض في قوائم الفرس . العطل : خلو الفرس من التحجيل .

(٤) انتبذت : اعتزلت ، وتنتحت . انبثت : تفرق ، وانتشر . الأعطاف : الجوانب . الطفل : حمرة الغروب .

(٥) خضر : صفة من الخضرة ، وهي في ألوان الخيل ، والإبل غبرة تخالطها دهمة ، وسواد .

(٦) الناقوس : جرس النصارى . راعدة : سحابة ذات رعد . زجل : صائح صارخ ، مزعج .

(٧) الشد : الجري ، والسرعة . صرعى : ملقاة على الأرض . تنخذل : تصعق ، وتتهار .

(٨) الوحى السرعة . الزجر : الانتهاز .

(٩) النظرة العجلاء : النظرة السريعة . تحتبل : من الاحتبال ، وهو نصب الشوك من الحبال لأجل الصيد .

(١٠) حلوا عقد حبوتهم : كناية عن قيامهم لأمر مهم . استشرفت : وضحت . الألباب : العقول . المقل : العيون .

(١١) بنت خمس : عمر فرسه خمس سنين ، ويقصد أن فرسه جمع بين صغر السن ، والقوة ، وسهولة الإنقياد .

. يستشيط : يشتد نشاطه . ها هي : دعاه ، وناداه ، وزجره .

البارودي يتقدم المحاربين في المعارك ، ويركب في ذلك جواداً أشقر ازدانت ثلاث من قوائمه بالتحجيل ، وخلت منه الرابعة ، فزادها هذا الخلو جمالاً ، وحسناً ، وهذا التحجيل أبيض كضوء الصبح ، بينما شقرة لونه كحمرة الشفق ، وهذا إلى جانب حوافره الزرقاء ، وعيونه السوداء ، وجحافل غبراء مشوبة بالسواد . وكل هذه الألوان مستجادة في الخيول الأصيلة . وهو جواد أصيل جميل المشية ، يتبخر ، ويتميل . وهذا دليل النجابة ، وكرم الأصل الذي ورثه عن أسلافه . وصوته قوي شديد كصوت أجراس الأديرة ، والكنائس ، أو كصوت الرعد الزاجل . ووصف صوت الفرس كثير في الشعر العربي . ويمتاز هذا الجواد بالخفة ، والسرعة حتى إن الوحش لا تحس به عندما يقترب منها ، كما يمتاز بدقة الشعور ، ورهافة الإحساس ، وقوة الإدراك بحيث يفهم إشارات صاحبه ، ويستجيب لها مهما خفيت تلك الإشارات ، ويعي الزجر فيمتثل له ، وينقاد له . وهذه صفات الجواد الكريم حقاً . وكل الأنظار تتعلق بهذا الحصان في إعجاب ، وانبهار فإذا مرّ بقوم جالسين نهضوا له ، وأقبلوا عليه منبهرين مفتونين به ، وهو جواد كريم أصيل ، ففي السلم ينقاد لمن يقوده ، ولو كان أضعف الناس ، وفي الحرب يستجيب لفارسه إذا حمل به على الأعداء فيستमित معه حتى يدرك النصر ، والنجاة .

هذا هو جواد البارودي الذي يعتمد عليه في السلم ، والحرب ، فهو جواد مستوفي صفات الأصالة ، والنجابة ، والكرم ، أشقر حجل ، أسود العينين ، أخضر الحوافر ، سريع خفيف ، رشيق ، يتبخر في مشيه كأنه يعتز بكرم سلالته ، أو يتيه بمنبت فارسه الشعشاع ، تسمع له صوتاً هادراً عند جريه ، هذا إلى جانب نباهته ، وسهولة انقياده ، و صبره على نار الحروب . وهكذا خيول أبطال العرب ، وفرسانهم .

السيف من رموز البطولة ، وأدلة الشجاعة ، وارتبط بالفرسان ، والكمأة الأبطال ، فهو آلة الحرب ، ونون النصر ، والسيف وحده لا يغني عن حامله فتيلاً ما لم يحركه زند مقتول ، وقلب جسور تملؤه الشجاعة ، والإقدام ؛ فالسيف من مكملات البطولة ؛ لأن البطولة هي التي تجعل للسيف شأنًا ، وفاعلية ، أما الجبان فلا يزيد السيف إلا انحطاطاً ، وخبالاً ، اسمع قول الشاعر (١) :

إِنَّ السَّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا التَّقَى الْجَمْعَانِ
تَلْقَى الْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةٍ حَدِّهِ مِثْلَ الْجَبَانِ بِكَفٍّ كُلِّ جَبَانٍ

والفرسان العرب يعتزّون بالسيف غاية الاعزاز ، حتّى إنهم جمعوا له ألف اسم (٢) ، و البارودي ككل الفرسان العرب ، له سيف بتار يصفه لنا في الأبيات الآتية (٣) :

أَمْضَى بِهِ الْهَوَلُ مِقْدَاماً وَيَصْحَبُنِي مَاضِي الْغَرَارِ إِذَا مَا اسْتَفْحَلَ الْوَهْلُ (٤)
يَمُرُّ بِالْهَامِ مَرَّ الْبَرْقِ فِي عَجَلٍ وَقَتَ الضَّرَابِ وَلَمْ يَغْلُقْ بِهِ بَلَلٌ (٥)
تَرَى الرِّجَالَ وَقُوفاً بَعْدَ فَتَكَتِهِ بِهِمْ يُظَنُّونَ أَحْيَاءَ وَقَدْ قُتِلُوا (٦)
كَأَنَّهُ شُعْلَةٌ فِي الْكَفِّ قَائِمَةٌ تَهْفُو بِهَا الرِّيحُ أحياناً وَتَعْتَدِلُ (٧)
لَوْلَا الدِّمَاءُ الَّتِي يُسْقَى بِهَا نَهْلاً لَكَادَ مِنْ شِدَّةِ اللَّأَلَاءِ يَشْتَعِلُ (٨)
يَفُلُّ مَا بَقِيَتْ فِي الْكَفِّ قَبْضَتُهُ كُلَّ الْحَدِيدِ وَلَمْ يَثَارْ بِهِ فُلُلٌ (٩)

البارودي في الحرب التي يصلها يصحبه سيفه الماضي اللامع ، الذي يقتحم به أهوال المعارك ، وشدائدها ، وهذا السيف مرهف قاطع يبتتر به أعناق الفرسان ، ويفل به رؤوسهم كالبرق الخاطف ، حتى إن هذا السيف لرهافته لا يصيبه البلل من دماء القتلى ، والجرحى !! بل إنه لفرط حدته المذهلة ، وسرعة — قطعه لأعناق الكماة فإنهم يظنون . بعد فتكه بهم . أحياء ، وهم في الحقيقة في عداد الأموات ، وهذا السيف لامع متوهج ، كثير الحركة في الحرب ضرباً وطعناً ، حتى من يراه . والحالة كذلك . يظنّه شعلة من اللهب يحركها الريح فتميل ، وتسكن . وهذه

(١) شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ٢٣٣/٤ ، دار الكتب العلمية . بيروت سنة ٢٠٠١ م .

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٤٠/١ .

(٣) ديوان البارودي ١٦٢/٣ .

(٤) الهول : الحرب . الماضي : الحاد القاطع . الغرارة : حد السيف . استفحل : تفاقم . الوهل : الخوف .

(٥) الهام : الرأس . يعلق : يصيب ، أو يشوب . البلل : المراد به هنا دماء القتلى ، والجرحى .

(٦) الفتكة : القتل جهرة .

(٧) تهفو : تحرك ، وتميل .

(٨) نهلاً : رويّاً تاماً . اللألاء : ضوء فيه لمعان ، وحركة ، واضطراب .

(٩) يفل : ينتلم ، وينكسر . قبضته : مقبض السيف . كل الحديد : المراد به الدروع ، والبيضات ، وسائر

الحلق ، والأسلحة . الثأر : الانتقام (شبه السيف بصاحب الثأر) . الفلل : الانتلام ، والاتلاف .

صورة دقيقة للسيف اللامع في ميادين القتال . وسيفه هذا يكاد يشتعل من شدة البريق ، واللمعان لولا ما يبرّدها من حمرة دماء القتلى ، والجرحى ، ومن ثم فإنه سيف متين قوي يحطم كل ما يصادفه من وسائل التوقي ، وأسلحة القتال ما دام مُمسكاً بمقبضه ، مُجالداً به ، ومع ذلك كله لا يصيبه شيء من الانثلام ، أو الخدش ، فبعد نهاية المعركة يظل السيف سليماً قاطعاً لا أثر فيه ... ! .

و واضح من هذا أن سيف البارودي ليس سيفاً للزينة ، أو للتظاهر ، بل هو سيف لبطل شجاع مغوار ، يقتحم به عجاج الحروب فيجالد به صناديد الرجال ، ويقهر به الجيوش والجحافل في ميادين النزال .

٣ . شعر تمجيد البطولة ، والحضّ عليها :

البارودي في بعض أشعاره يمجّد البطولة بوصفها أشرف السُّبل لبُلُوغ أنبل الغايات ، وأسمائها ، والإنسان لا يمجّد الشيء إلا إذا كانت له به صلة ، أو كان معجباً به ، والبارودي مجّد البطولة للسببين كليهما ، وهو القائل (١) :

- فَقَدْ يَهْلِكُ الرَّعْدُ فِي عَقْرِ دَارِهِ وَيَنْجُو مِنَ الْحَتْفِ الْكَمِيِّ الْمَشَايِخُ (٢)
وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا مُلَاقٍ حِمَامُهُ وَإِنْ عَارَ فِي أَرْسَانِهِ وَهُوَ جَامِحُ (٣)
فَمَا بَارِحَ إِلَّا مَعَ الْخَيْرِ سَانِحٌ وَلَا سَانِحَ إِلَّا مَعَ الشَّرِّ بَارِحُ (٤)
فَإِنْ عَشْتُ صَافَحْتُ الثَّرِيًّا وَإِنْ أُمْتُ فَإِنَّ كَرِيمًا مَنِ تَضُمُّ الصَّفَائِحُ (٥)

البارودي هنا يمجّد البطولة ؛ فهو يرى أن الجبن ليس سبباً في طول الحياة ، ولا الشجاعة سبباً في قصر العمر ؛ فقد يموت الجبان في بيته حتف أنفه بينما قد يعيش الشجاع المحارب حيناً من الدهر ، ومع ذلك فالموت كأس كل الناس شاربه ، وإن طال الحياة بهم ، وحسن الطالع في الحياة قد تفسده الأقدار بالنحس ، وسوء

(١) ديوان البارودي ٩٦/١ .

(٢) الرعيد : الجبان . عقر : وسط ، وعقر الدار وسطه . المشايخ : المقاتل الشجاع .

(٣) عار : تحرك الفرس بحرية . الأرسان : جمع رسن وهو الخطام . جامح : مستعصي .

(٤) بارح : طائر أشأم . سانح : طائر ميمون ، ويقصد أن الحظ قد يتعسه مشيئة الأقدار ، والحظ النحس قد تحسنه الأقدار .

(٥) الصفائح : الحجارة العريضة ، والمراد بها القبر .

الطالع قد تحسنه الأقدار باليمن ، ومن ثم فإن مشيئة الأقدار تتحكم في مصائر الناس جبناء كانوا أم شجعان ، ويخبرنا البارودي بأنه يعيش لغاية سامية ، وهدف نبيل ، وتلك الغاية هي بلوغ المجد الباذخ ، و إن مات في سبيل ذلك يكون أكرم من مات .

ومن هنا فالبارودي يلتزم خيار البطولة ، والشجاعة . وهذا مما نادى به الإسلام . فالموت آت لا محالة ، ومن العار أن يموت جباناً ، و البارودي صاحب مبادئ ، وقيم ، يستمد من تعاليم دينه ما يغذي به طموحاته ، وما يقيم به صلب شخصيته ، فهو لم يكن بطلاً بدافع الاحساس بالقوة الغاشمة ، أو الإحساس بالشجاعة التي تخالطها السفه ، بل هي بطولة إسلامية عذبة .

لم يكتف البارودي بتمجيد البطولة ، بل أخذ يدعو إليها ، ويحرض على التزامها فهي الخيار الأفضل للرجل ، ففي التزام البطولة تربية للنفوس فهي تحمل في طياتها قيماً أخلاقية تزين الرجل ، وترفع من قدره ؛ فالبطولة تعني الشجاعة ، والإقدام ، والنجدة ، والعفو عند المقدرة ، والعزة ، ورفض الذلّ ، وحماية الضعيف ، والمستجير ، وحبّ المعالي ، والسعي إليها ، والعفة ، ونكران الذات إلى غير ذلك من المكارم الأخلاقية .

والبارودي صاحب قلعة حصينة في الشعر البطولي ، أخذ يدعو الناس إلى ارتياد قلعته ، والتوشح بأسلحته ، وارتداء زيّه ، وخوذته ، والسير تحت لوائه ، وفي ذلك يقول (١) :

كَمْ بَيْنَ مُنْتَدِبٍ يَدْعُو لِمَكْرَمَةٍ وَبَيْنَ مُعْتَكِفٍ يَبْكِي عَلَى طَلَلٍ (٢)

(١) ديوان البارودي ٨/٣ .

(٢) المنتدب : القائم بالأمر ، والداعي إليه . المعتكف : الملازم للشيء . الطلل : الآثار الدارسة .

- لَوْلَا التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَا ظَهَرَتْ مَزِيَّةُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَلِيِّ وَالْعَطَلِ (١)
 فَانْهَضْ إِلَى صَهَوَاتِ الْمَجْدِ مُعْتَلِيَا فَالْبَازُ لَمْ يَأُو إِلَّا عَلَى الْقُلِّ (٢)
 وَدَعِ مِنَ الْأَمْرِ أَدْنَاهُ لِأَبْعَدِهِ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ مَا يُغْنِي عَنِ الْوَشْلِ (٣)
 قَدْ يَظْفَرُ الْفَاتِكُ الْأَلْوِي بِحَاجَتِهِ وَيَقْعُدُ الْعَجْزُ بِالْهَيَّابَةِ الْوَكَلِ (٤)

يقول البارودي إن الفرق واسع ، والبون شاسع بين الداعي إلى المعالي ، والمكرمات ، وبين الباكي على أطلال ديار المحبوبة ، ومن هنا يدعو البارودي إلى الحرص على المعالي ، وعدم الركون إلى الملاهي ، و الناس يتفاوتون في أخلاقهم وهممهم ، وكفايتهم ، ومساعيهم ، وإن هذا التفاوت يظهر ما بينهم من الفروق الواضحة ، والصفات المتباينة ، والبارودي يرمي من ذلك التحريض على شحذ الهمم ، ورفع الكفاءة ، والجد ، والسعي على طريق الأمجاد ، والرفعة ، ولولا هذا التفاوت بين الناس لما عُرف الكريم من اللئيم . ثم يحضّ الشاعر على النهوض ، وبُعد الهمة ، وقوة العزم ، واعتلاء صهوات المجد ، والسمو إلى أعلى مراتب الشرف ، وضرب لذلك مثلاً بالبازي الذي لا يخلق إلا في الطبقات العليا في الجو ، ولا يأوي إلا إلى القمم الشاهقة . والبارودي من خلال هذه المعاني يدعو إلى التعلق بالأمور الرفيعة الجليلة التي تُجزئ الإنسان عن التافه الحقيير ؛ كالذي يستغني بلجة الماء عن الوشل . وينوّه بالقوة ، والجرأة ، ويزدري الضعف ، والعجز ، فحاجات الأقوياء ميسرة ، أما العاجزون فحاجاتهم بعيدة المنال ؛ لأن

(١) المزية : التمام ، والفضيلة . الحلي : القلائد الذهبية ، وغيرها . العطل : ضد الحلي ، ويستعمل للخلو من الشيء .

(٢) الباز : ضرب من جوارح الطيور التي تصيد . القل : جمع قلّة ، وهي قمة الجبل .

(٣) لجة البحر : معظم البحر . الوشل : القليل من الماء وهو هنا ضد اللجة .

(٤) الألوي : الشديد المقاتلة لخصمه . الهيابة : الجبان الشديد الخوف العاجز الساقط الهمة الذي يعتمد على غيره ، ولا يعتمد على نفسه .

العجز ، والضعف يشلّهم ، ويحول بينهم ، وبين طلب العلا فلا يكادون يصلون إلى شيء من مرامهم .

والبارودي يحضّ على المكرمات ، ويستتهز الهمم ، ويزيّن للناس طلب المجد ، والمعالي ، ثم يخبر بأن الفاتك الشجاع هو الذي قد يظفر بما يريد . وهذه دعوة صريحة إلى اتباع نهج البطولة في نيل الأمانى .

وفي النص التالي يدعو البارودي إلى شراء المجد بأي ثمن ، ويرى أن ثمنه هو البطولة بأسمى معانيها فقال (١) :

تَقُلْ دَوَاعِي النَّفْسِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ وَتَقْوَى هُمُومِ الْقَلْبِ وَهُوَ مُغَامِرٌ (٢)
وَكَيْفَ يَبِينُ الْفَضْلُ وَالنَّافِصُ فِي الْوَرَى إِذَا لَمْ تَكُنْ سَوِّمَ الرِّجَالِ الْمَآثِرُ؟ (٣)
وَمَا حَمَلَ السَّيْفَ الْكَمِيُّ لَزِينَةٍ وَلَكِنْ لِأَمْرِ أُوجِبَتْهُ الْمَفَاخِرُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْمَعِيشَةُ مَطْلَبٌ فَكُلُّ زَهْدٍ يُمْسِكُ النَّفْسَ جَابِرٌ (٤)
فَلَوْلَا الْعُلَا مَا أَرْسَلَ السَّهْمَ نَارِعٌ وَلَا شَهَرَ السَّيْفَ الْيَمَانِي شَاهِرٌ
مِنْ الْغَارِ أَنْ يَرْضَى الدُّنْيَا مَا جِدَّ وَيَقْبَلْ مَكْذُوبَ الْمُنَى وَهُوَ صَاغِرٌ
إِذَا كُنْتَ تَخْشَى كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الرَّدَى فَكُلُّ الَّذِي فِي الْكُونِ لِلنَّفْسِ ضَائِرٌ (٥)

هذه دعوة صريحة لطلب الأمجاد ، تدل على نفس تغلي مراجلها بحب المعالي ، والآمال العظام ، والمفاخر الجسام ؛ فالبارودي يرى أن الإنسان إذا ضعف ، واستكان خمل ، وقلّت مطالبه ، وسقطت همته في الوجود ، وفي المقابل إذا اشتدت عزائمه قويت همته ، وعظمت . وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم . وتتأفّس الرجال في شراء المجد ، و المحامد ، و كسب المكارم يظهر فضلهم ، وعلو كعبهم ، كما يظهر في الوقت نفسه قصور الخاملين ، ونقصهم .

(١) ديوان البارودي ٦٨/٢ .

(٢) دواعي النفس : آمالها ، وطموحاتها .

(٣) السوم : التجربة .

(٤) جابر : مستعصي .

(٥) ضائر : يسبب الضرر .

ثم يوضح أنّ الأبطال الشجعان المدججين بالسلاح إنما يقاتلون ، ويضحون بأرواحهم ، وأنفسهم من أجل المفاخر ، والمحامد . والبارودي يرى أن البطولة أفضل سبيل للمجد . ثم يعرض صورة مخزية لساقطي الهمم ، ويقول : إن الإنسان إذا انحطت همّته في الحياة ، واكتفى بما يشبعه ، ويحفظ عليه حياته لأغناه القليل الزهيد من الطعام ، والشراب ، ولا خلاق له في جنة المجد التي تجري من تحتها أنهار دماء التضحيات ، والأبطال يرمون بسهامهم ، ويشهرون سيوفهم من أجل المجد ، وكسب المكارم . ثم ينوه البارودي بأن السادة الشرفاء لا يرضون بالدنيّة ، و لا بالأمانى الكاذبات بل يسعون في شعاب المجد الوعرة إلى ذرا الشرف .

ويخبرنا البارودي بأنّ الموت ، والخوف منه يجب ألا يمنع المرء من طلب المجد ، والشرف ، والحياة البطولية ، و يقول: إن الإنسان لو تهيب كل أعمال المجد ، والبطولة خوف الفناء ، أو التلف فكل شيء يهم به قد يؤدي إلى الموت ، وبذلك فالموت ليس محصوراً في أشياء معينة .

والبارودي من خلال الأبيات السالفة يدعو إلى شراء المجد بأي ثمن ، وهي في عمومها دعوة إلى السعي الدؤوب لإدراك الغايات البعيدة ، وحمل السيف ، وبذل الروح من أجل تحقيق الأمنيات العظيمة ، وعدم الرضا بالدنيا ، والخوف من الموت . وتلك هي فلسفة البارودي في الحضّ على البطولة .

وفي الأبيات التالية يرسم البارودي نهج البطولة ، وما يجب أن يكون عليه طالب المجد ، والساعي إلى المعالي فيقول (١) :

وَمَا كُلُّ سَاعٍ بَالِغٌ سُؤْلَ نَفْسِهِ وَلَا كُلُّ طَلَابٍ يُصَاحِبُهُ الرُّشْدُ (٢)
إِذَا الْقَلْبُ لَمْ يَنْصُرْكَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ فَمَا السَّيْفُ إِلَّا آلَةٌ حَمَلُهَا إِدٌ (٣)

(١) ديوان البارودي ١/١٤٠ .

(٢) سؤل النفس : مطالبها ، وآمالها .

(٣) الأَدّ : العجيب .

- إِذَا كَانَ عُقْبَى كُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ زَكَ فَنَاءٌ فَمَكْرُوهُ الْفَنَاءُ هُوَ الْخُلْدُ (١)
 وَتَخْلِيدُ ذِكْرِ الْمَرْءِ بَعْدَ وَفَاتِهِ حَيَاةٌ لَهُ وَلَا مَوْتَ يُلْحَقُهَا بَعْدُ (٢)
 فَفِيمَ يَخَافُ الْمَرْءُ سَوْرَةَ يَوْمِهِ وَفِي غَدِهِ مَا لَيْسَ مِنْ وَقَعِهِ بُدُّ (٣)

يدعو البارودي في الأبيات السابقة إلى البطولة ، والمجد ، وطلب الخلود ، وقبل أن يمضي في تفاصيل دعوته يقرر معنى مهماً يجب أن يكون عليه البطل ، وطالب المجد فيقول : إنه ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، ولا كل طالب أمر قد يوفق إلى سلك مسالكه السليمة ، ثم يوضح أن الجهاد ، والقتال يحتاجان إلى قلب ثابت ، وعزيمة قوية ؛ فالسيف القاطع يحتاج إلى ذراع يشده ، والبطل يجب ألا يخشى الردى فكل شيء مصيره الفناء ، وإن زاد ، أو نما ، والموت في ميادين القتال هو في الحقيقة حياة ثانية يحيها المرء في سجل التاريخ ، ولا يعقبه موت ، وستظل روحه ترفرف في سماء الخالدين ، وعلى الإنسان ألا يخاف بطش الحاضر ففي مقبل الأيام كثير من المصائب الساحقة .

وعليه فالبارودي يدعو إلى البطولة ، والاستبسال في المعارك ، والموت آت لا مناص منه ، ويأخذ الشجاع ، والجبان ، فخير للمرء أن يعيش شجاعاً ، ويموت شجاعاً ، ومن ثم فإن الموت في ساحات الوغى حياة ثانية يحيها الأبطال في وجدان الناس عبر التاريخ ، فسير العظماء لا تزول بزوالهم .

٤ . شعر الاعتداد بالآباء ، والعشيرة :

البطولة العربية شطران ، شطر يصنعه الفارس خلال حياته بما يقوم به من الأعمال المجيدة ، وبما يتخلق به من الخصال الكريمة ، وشر آخر يرثه عن آبائه ، وأجداده ، وهي تشمل العراقة ، ورسوخ القدم في أرض البطولات ، وهي التي تكمل للبطل بطولته ، وقوام شجاعته ، فلا بد للبطل من أجداد كرام أورثوه

(١) زكا : زاد ، ونما ، ويقصد : أنه يجب عدم الخوف من الموت فهو أمر حتمي .

(٢) يقصد : أن حياة المرء بعد موته هي ذكراه الطيبة ، وسيرته الحسنة .

(٣) السورة : الغضب ، والسطوة .

حلّة الكرم الموشى بأوسمة البطولة ، ولا بد أن يكون له عرق ضارب في أعماق الحياة البطولية ، وهذا ما أعوز المتنبّي (١) ، فقال في مرارة من لم يقنع من الغنيمة بالإياب (٢) :

لَا بِقَوْمِي شَرَفْتُ بَلْ شَرَفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

أما لبّيد بن ربيعة (٣) فيدرك أهمية الأجداد في صنع الأمجاد فيقول (٤) :

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

والبارودي ككل الأبطال العرب يستمد البطولة ، والمآثر عن أسلافه وهو القائل (٥) :

وَإِنِّي أَمْرٌ لَوْلَا الْعَوَائِقُ أَدَعَنْتُ لِسُلْطَانِهِ الْبَدْوُ الْمَغِيرَةُ ، وَالْحَضْرُ (٦)
 مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ (٧)
 إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيْدٌ غَرَبَ سَيْفِهِ تَفَرَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالتَّتَفَّتِ الدَّهْرُ (٨)
 لَهُمْ عُمْدٌ مَرْفُوعَةٌ وَمَعَاقِلُ وَالْوِيَّةُ حُمُرٌ ، وَأَفْنِيَّةٌ خُضْرُ (٩)
 وَنَارٌ لَهَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ لِمَدْرَعِ الظُّلْمَاءِ أَلْسِنَةُ حُمُرٍ (١٠)

(١) انظر ترجمة المتنبّي ص : ٤٤ .

(٢) شرح ديوان المتنبّي . البرقوقي ٣٣/٢ .

(٣) هو لبّيد بن ربيعة بن مالك ، وكنيته (أبو عقيل) أحد الشعراء الفرسان ، ينحدر من أسرة ذات سيادة وشرف ، وكان شاعر قبيلة الأوح ، وفارسها المغوار ، عاش في الجاهلية سنتين عاماً ، وفي الإسلام سنتين عاماً أيضاً ، أسلم وترك قول الشعر توفي سنة ٤١ هـ .

(٤) شرح المعلقات السبع ، الزوزني ص : ١١٦ ، طبعة دار إحياء العلوم . بيروت . لبنان ، (ط١) تحقيق د. محمد خير أبو الوفا / مصطفى قصاص سنة ١٩٩٠م .

(٥) ديوان البارودي ٣٣/٢ .

(٦) العوائق : شواغل الدهر ، وأحداثه . أدعنت : خضعت ، وذلت .

(٧) الغر : الشريف الكريم الخصال . حواشي : نواحي ، وجوانب . داجية : شديدة الظلام .

(٨) غرب السيف : حده القاطع .

(٩) عمد : ويقصد بها الشهرة ، والرفعة . المعازل : الحصون . أفنية : جمع فناء ، وهو الفضاء أمام البيت .

(١٠) المدرع : السائر في الظلام كأنه يلبس الظلام مثل الدرع الذي يقيه .

تَمُدُّ يَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ خَضِيْبَةً تُصَافِحُهَا الشَّعْرَى وَيَلْتَمُّهَا الْغَفْرُ (١)
 وَخَيْلٌ يَغْمُ الْخَافِقَيْنِ صَهْلُهَا نَزَائِعُ مَغْفُودٍ بِأَعْرَافِهَا النَّصْرُ (٢)
 مُعَوَّدَةٌ قَطَعَ الْفِيَا فِي كَأَنَّهَا خُدَارِيَّةٌ فَتَخَاءُ لَيْسَ لَهَا وَكُرُ (٣)

قوم البارودي هنا كرام شرفاء نابهون ، أَلِفُوا الحرب ، وتمرّسوا بالقتال ، سيوفهم تلمع في ظلام غبار المعارك مثل أضواء الفجر التي تشقّ جلايب الدجى ، وهم سادة في منتهى القوة ، والشدة ، فإذا تأهبوا للقتال روّعوا ، وأخافوا حتى الأجرام السماوية التي لا تفزع بطبعها ، ولالتفت إليهم الدهر في فزع ، واهتمام ، وهم مشهورون لعلو قدرهم ، وبأسهم ، دائمو النصر في الحروب ، يكرمون الضيوف بسخاء ، نارهم لا تخدم ، بل هي في ارتفاع ، وانتقاد مما يدل على الكرم ، والجود . ويتميّز قومه ، وأسلافه كذلك بكثرة العدد ، وكثرة خيولهم السريعة التي يحرزون بها النصر في جميع المعارك ، فهي خيول مدربة على خوض الحروب ، والسير في الفيافي القاحلة دون ونى .

وهكذا نجد أقوام أبطال العرب يتميّزون بخصال الشدة ، والبأس ، والشجاعة ، والشرف ، والتمرّس بالحروب ، سيوفهم لامعة قاطعة ، يخيفون الأعداء ، معروفون بالنجدة ، وبكثرة العدد ، والاعتیاد على تحقيق النصر في المعارك ، تتميز خيولهم هي الأخرى بالسرعة ، والخفة ، والقوة ، والخبرة بالحروب .

وقوم البارودي ، وعشيرته لا يقلّون بطولة ، وشجاعة عن عشائر فرسان

(١) خضيبية : حمرة اللون . الشعري : كوكب مضيء يطلع بعد الجوزاء تزعم العرب أنها أخت سهيل . الغفر : منزلة من منازل القمر .

(٢) الخافقين : المشرق ، والمغرب . نزائع : جري الخيل . العرف : الشعر في رقبة الحصان .

(٣) خدارية : العقاب ، وهو نوع من الجوارح يضرب به المثل في القوة ، وسرعة الطيران ، والإبعاد فيه . الفتخاء : الجناح اللين .

العرب ، وهكذا يعبر البارودي عن بطولته ، ويشير إليها من خلال الفخر بكرم أصله ، و شرف أجداده الذين ورث عنهم أكرم الصفات ، وأجلّ الخصال ، وكأته يريد أن يقول : هذا الشبل من ذاك الأسد .

وفي النص الآتي يؤكد البارودي حقيقة البطولة التي ورثها عن آباء صدق ، كما أخبرنا بأن صغارهم ينشأون على البطولة ، ويشبون على حب الحرب ، واقتحامها فقال (١) :

نَمَانِي إِلَى الْعُلْيَاءِ فَرَعٌ تَأْتَلْتُ أُرُومَتُهُ فِي الْمَجْدِ وَأَفْتَرَّ سَعْدُهُ (٢)
وَحَسَبُ الْفَتَى مَجْدًا إِذَا طَالَبَ الْغَلَا بِمَا كَانَ أَوْصَاهُ أَبُوهُ وَجَدَهُ (٣)
إِذَا وُلِدَ الْمُؤَلُودُ مِنَّا فَدَرُهُ دَمُ الصَّيْدِ وَالْجُرْدُ الْعَنَاجِيحُ مَهْدُهُ (٤)
فَإِنْ عَاشَ فَالْبَيْدُ الدِّيَامِيمُ دَارُهُ وَإِنْ مَاتَ فَالطَّيْرُ الْأَضَامِيمُ لَحْدُهُ (٥)
أَصْدُ عَنِ الْمَرْمَى الْقَرِيبِ تَرْفَعَا وَأَطْلُبُ أَمْرًا يُعْجِزُ الطَّيْرَ بُغْدُهُ
وَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ تَلَاعَبَ بِالْقَنَّا أَسْوَدُ الْوَعَى فِيهِ وَتَمَرَحَ جُرْدُهُ
يُمَزَّقُ أَسْتَارَ النَّوَظِرِ بَرْقُهُ وَيَفْرَعُ أَصْدَافَ الْمَسَامِعِ رَعْدُهُ
تُدَبِّرُ أَحْكَامَ الطَّعَانِ كُھُولُهُ وَتَمْلِكُ تَصْرِيفَ الْأَعْنَةِ مُرْدُهُ (٦)
قُلُوبُ الرِّجَالِ الْمُسْتَبِدَّةِ أَكْلُهُ وَفَيْضُ الدَّمَاءِ الْمُسْتَهْلَةِ وَرْدُهُ (٧)
أَحْمَلُ صَدْرَ النَّصْلِ فِيهِ سَرِيرَةٌ تَعْدُ لِأَمْرِ لَا يُحَاوِلُ رَدُّهُ
فَإِمَّا حَيَاةً مِثْلُ مَا تَشْتَهِي الْغَلَا وَإِمَّا رَدًى يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ وَفْدُهُ

(١) ديوان البارودي ١١٧/١ .

(٢) نماني : رفعتني . تأتلت : ثبتت . أرومته : أصله . افتر : أشرف ، وتلألأ : السعد : حسن الحظ .

(٣) حسب الفتى : يكفيه ، ويغنيه .

(٤) العناجيج : الجيد من الخيل ، والإبل .

(٥) الدياميم : القاحلة الموحشة . الأضاميم : الجماعات .

(٦) الكهل : كل من بلغ الأربعين ، أو جاوز الثلاثين . الأمرد : هو كل شاب لم يطر شاربه .

(٧) المستهلة : السائلة بغزارة .

يعترف البارودي بأنّ الذي رفعه إلى سماء المجد هو نسبه الشريف الأصيل في أعماق المجد ، وحسن الفأل ، وأنه قد روث الفضائل كابراً عن كابر بعد أن وعى وصايا أسلافه في هذا الصدد .

والبطولة عندهم جزء من النشأة ، والتربية ؛ فالمواليد منهم يسقون بدل اللبن دم الصيد ، والوحوش ، وينامون على صهوات الخيول الجرد السريعة بدل النوم على المهد ، والفراش ، بمعنى أنهم يتدربون على البطولة منذ ساعات الولادة الأولى ، ويقول : إنهم يعيشون في الصحاري القاحلة ، ويتحملون قسوتها ، وإن ماتوا أكلتهم الطيور الكاسرة فتصير لهم قبوراً ، وهذا يدل على تعودهم الخسونة ، ومقارعة الصعاب ، والموت في ميادين القتال حيث تأكل الطير ، والوحش لحوم القتلى . وهذه التربية جعلتهم بعيدى الهمم ، لا يرضون إلا ببلوغ الغايات البعيدة التي تدل على الطموح الوثاب ، والعزيمة المتوقدة ، وكذلك جعلتهم خبيرين بالشدائد حيث أن الفتى منهم يخوض غمار الموت ببسالة ، والكهول يجيدون تدبير شؤون الحرب لخبرتهم في هذا المجال ، والشباب ينفذون ما خططه الكهول بعزمهم الذي لا يلين ، فيأخذون كل جبار عُتلاً ، و يردون مناهل الموت ، ويكتبون خطط المعارك في صفحات السيوف ، ونصال الرماح ، ورؤوس السهام ، فهم يحيون للعلا ، وما تستوجبه المعالي ، ويتمنون الموت ما دون ذلك .

وهكذا ورث البارودي عن أسلافه روح البطولة ، وأساليبيها ، وطرقها ؛ فقد نشأ عليها ، وترى بخصائصها ، فشبّ بطلاً مغواراً لا يهاب الموت ، ولا يرضى الدنيا ، يشخص إلى المعالي ، لا تفارقه النخوة ، والقوة فشارك في الحروب ، وقهر الجيوش ، وناضل من أجل الأهداف الشريفة ، يعينه عزمته ، وذكاء فؤاده وقوة طموحه ، وصلابة شخصيته .

ويكفي الرجل شرفاً أن يكون له آباء كرام ، وأسلاف شجعان ، وعشيرة تسعى إلى المعالي ، والشرف ، والسيادة ، والمجد ، فيقول^(١) البارودي عن أسلافه الكرام ، ويعبر عن انتمائه إليهم :

- مِنَ الْقَوْمِ ضَرَّابِي الْعَرَاقِيبِ وَالطَّلَى إِذَا اسْتَنْتَبَتِ الْغَارَاتُ أَوْ فَعَرَ الْمَخْلُ (١)
 إِذَا نَامَتِ الْأَضْغَانُ عَنْ وَتَرَاتِهَا فَقَوْمِي َ قَوْمٌ لَا يَنَامُ لَهُمْ دَخْلُ (٢)
 رِجَالٌ أَلُو بِأَسٍ شَدِيدٍ وَنَجْدَةٍ فَقَوْلُهُمْ قَوْلٌ وَفَعْلُهُمْ فِعْلٌ (٣)
 إِذَا غَضِبُوا رَدُّوا إِلَى الْأَفْقِ شَمْسَهُ وَسَالَ بِدُفَاعِ الْقَتَا الْحَزْنُ وَالسَّهْلُ (٤)
 مَسَاعِيرُ حَرْبٍ لَا يَخَافُونَ ذِلَّةً أَلَا إِنَّ تَهْيَابَ الْحُرُوبِ هُوَ الذُّلُّ (٥)
 إِذَا أَطْرَقُوا أَبْصَرَتْ بِالْقَوْمِ خَيْفَةٌ لِإِطْرَاقِهِمْ أَوْ بَيَّنَّوَا رَكَدَ الْحَفْلِ (٦)

يفخر البارودي بقومه الذين يمتازون بالشجاعة ، والبسالة ، والشدة في ميادين الحروب ، ويحملون على أعدائهم ، ويضربون أعناقهم ، ويضربون منهم كل بنان إذا ما حمى الوطيس . ويكثر من عقر الإبل لإطعام الناس في مواسم الجفاف ، وهم لا يتركون ثاراتهم ، فلا تستقر بهم الحياة حتى ينتقموا لأنفسهم من باب العدل ، والقوة ، والعزة ، وهم ألو بأس شديد والأمر إليهم ، أفعالهم تشمل كل معاني القوة ، والغلبة ، إذا غضبوا لشرفهم ، أو حقهم ، أو ثاروا لحميتهم أججوا نيران الحروب ، وحجبوا بغبارها ، ودخانها ضياء الشمس ، وملئوا بحرابهم ، وسيوفهم مرتفعات الأرض ، وسهولها ، وانحدروا نحو أعدائهم كالسيول الجارفة ، لا يعرفون التراجع ، ولا يتهيبون الموت ، وفوق كل ذلك يلفهم الوقار ، والهيبة ، ولهم في النفوس مكانة عظيمة ، فإذا أطرقوا ساكنين شمل الناس الخوف ، والرغبة ، والقلق من إطراقهم ، وإن تكلموا أطرق الناس لقولهم إجلالاً فلا تسمع إلا همساً .

-
- (١) ضرابي : صيغة من المبالغة تدل على كثرة الضرب . العراقيب : جمع عرقوب ، وهو عصب غليظ خلف كعب القدم . الطلى : الأعناق . استنتت : نشطت ، واشتدت . فعر المحل : كناية عن اشتداد المجاعة .
 (٢) الوترات : الثارات . الدخل : الثأر .
 (٣) ألو بأس : أصحاب قوة ، وشدة .
 (٤) ردوا إلى الأفق شمسهم : حجبوا ضياء الشمس بالغبار ، والسلاح ، والدخان . الدفَاع : السيل العظيم .
 (٥) مساعير حرب : مشعلو نيران الحرب .
 (٦) الركد : السكون . الحفل : جماعات الناس مجتمعون في مكان واحد .

وهؤلاء هم قوم البارودي ، وعشيرته ، شجعان ، بُسْل ، أقوياء ، يرفلون في ثياب العزة ، لا يذلون ، ولا يجبنون عن الحرب ، لهم غصبة يتبعها بأس شديد ، ولهم هيبة عظيمة في حال صمتهم ، وكلامهم ، مستوفون لخلال الشرف ، والسيادة متمسكون بكل فضيلة محافظون عليها ، وعلى هذه الأرض نبت البارودي فاستغلظ فاستوى على سوقه .

ولا يزال البارودي لهجاً بعظمة أجداده ، وقومه الذين استمد منهم خصائص شخصيته البطولية فيقول (١) :

أَنَا مِنْ مَعْشَرٍ كَرَامٍ عَلَى الدَّهْرِ أَفَادُوهُ عِزَّةً وَصَلَاحًا (٢)
 فَرَعُوا بِالْقَنَا قَنَانَ الْمَعَالِي وَأَعَدُّوا لِبَابِهَا مِفْتَاحًا (٣)
 عَمَرُوا الْأَرْضَ مُدَّةً ثُمَّ زَالُوا مِثْلَمَا زَالَتِ الْقُرُونُ اجْتِيَا حَا (٤)
 وَأَتَتْ بَعْدَهُمْ عَلَى لَيَالٍ لَا أَرَى فِي سَمَائِهَا مَصْبَا حَا (٥)

هؤلاء هم أجداد البارودي ، وعشيرته الذين ورث عنهم البطولة ، وجُلّ المكارم ؛ فأسلافه قد أفادوا زمانهم بالصلاح ، والأعمال النافعة ، والأخلاق الفاضلة ، وصعدوا بشجاعتهم ، وبطولتهم أعلى قمم المعالي ، وفتحوا أبواب السؤدد ، والفخار ، وتركوا ذكرى مجيدة في ميادين البطولات ، والمكارم ، كما أنهم عمروا الأرض بوجودهم ، وبما قاموا به من الأعمال الجليلة ، ثم طواهم الفناء كما طوى الذين من قبلهم من الأمم ذات المجد ، والعظمة .

ثم يعبر الشاعر عن مكانة أولئك السلف بأن جعلهم مثل المصابيح التي تنير سماء المجد لمن أراد الاهتداء بهم .

(١) ديوان البارودي ١١٠/١ .

(٢) معشر : الجماعة ، والمراد بها الأسرة ، والأجداد .

(٣) فرعوا : صعدوا ، وعلا . قنن : منتهى قمم الجبال العالية .

(٤) الاجتياح : الاستئصال ، والهلاك .

(٥) ليال : المقصود بها مصائب الدهر ، وتصاريفه المحزنة .

وعليه فبطولة البارودي وراثية ، فهو سليل أسرة مجيدة ، وابن قوم عرفوا بالشجاعة ، والجسارة ، والعزة ، والإباء ، وكل الخصال الجامعة للشرف ، والسيادة ، ولكن هذا لا ينافي أن البارودي قد أسهم بالنصيب الأوفر في بناء شخصيته البطولية التي دفعته لتصل به إلى مصاف فرسان العرب ، وأبطال القبائل في العصور العربية القديمة .

❖ منهجه في التعبير عن البطولة :

وخلاصة هذا الباب أن البارودي قد عبّر عن بطولته تعبيراً قوياً رائعاً ، ورسم لنفسه صور واضحة المعالم ، والخصائص ، وقد احتذى الأساليب الشعرية القديمة ، فأحيا فن الحماسة العربية ، فكان له فضل السبق في هذا الميدان .
ومن خلال دراستنا لشعره البطولي نستطيع أن نلمح في شعره الآتي :

١. مزج البطولة بالغزل :

وكثير من الشعراء العرب في العصور السابقة كانوا يمزجون الغزل ، والتشبيب بالبطولة ، ويهدفون من ذلك التقرب زُلفى إلى المحبوبة ، ونيل الخطوة عندها ، وخطف إعجابها عن طريق إبراز البطولة ، والشجاعة ، وكانت المرأة العربية في تلك العصور تميل إلى الرجل الفارس ، المقدام ، الذائع الصيت ، ونلمح في شعر كثير من الشعراء الفرسان اقتران هذين الغرضين ، ونجده عند البارودي أيضاً ! الذي كان يعد نفسه واحداً منهم . وللغزل عامل إيجابي آخر في الشعر البطولي وهو تحريك العواطف ، وتدفق المشاعر ، ويفتح للشاعر أبواب الاستجادة ، والابداع ، ويكسو القصيدة الحماسية ثوب الجمال، يقول البارودي (١):

فَمَنْ يَكُ بِالْبَيْضِ الْكَوَاعِبِ مُغْرَمًا فَإِنِّي بِالْبَيْضِ الْقَوَاضِبِ مُغْرَمٌ
أَسِيرُ وَأَنْفَاسُ الْعَوَاصِفِ رُكَّدٌ وَأَسْرَى وَالْحَاضِ الْكَوَاعِبِ نُومٌ (٢)
وَمَا بَيْنَ سَلِّ السَّيْفِ وَالْمَوْتِ فُرْجَةٌ لَدَى الْحَرْبِ إِلَّا رَيْثِمًا أَتَكَلَّمُ (٣)
أَنَا الْمَرْءُ لَا يَتْنِيهِ عَمَّا يَرُومُهُ نَهَيْتُ الْعِدَا وَالشَّرْعُرِيَّانِ أَشَامُ (٤)
أَغِيرُ عَلَى الْأَبْطَالِ وَالصُّبْحِ أَشْهَبُ وَأَوِي إِلَى الضَّيْفَانِ وَاللَّيْلِ أَدْهَمُ (٥)

(١) ديوان البارودي ٥٤٩/٣ .

(٢) البيض : النساء الجميلات . الكواعب : المستديرات النهود . القواضب : السيوف المرفهة الحادة .

(٣) الأنفاس : حركة الريح . رواكد : ساكنة . ألحاظ الكواعب نوم : كناية عن شدة ظلام الليل .

(٤) الفرجة : المسافة اليسيرة قَدَرها الشاعر بقوله (ريثما أتكلم) وهي أوامره لجنده .

(٥) نهيت الأعداء : أصواتهم الشديدة ، والنهيت في الأصل صوت الأسد . الشر عريان : كناية عن شدته ،

وانكشافه .

وَيَصْنَعُنِي فِي كُلِّ رَوْعٍ ثَلَاثَةً: حُسَامٌ وَطَرْفٌ أَعْوَجِيٌّ وَلَهْدَمٌ ^(١)
وَيَنْصُرُنِي فِي كُلِّ جَمْعٍ ثَلَاثَةً: لِسَانٌ وَبُرْهَانٌ وَرَأْيٌ مُحْكَمٌ ^(٢)

هذا المقطع من قصيدة له في الغزل يبرز للمحبوبة بطولته ، و خصاله ، ويقول : إذا أغرم أمثاله من الشباب بالحسن البيض النواهد من النساء فإنه يهتم بالسيوف القواطع ، والبطولات في الحرب ، فهو شجاع يسير في الليل البهيم بجرأة ، وإقدام لا يبالي بالمخاوف ، فهو متمرس بالقتال ، وبالسير في الفلوات الموحشة ، وعندما يقتحم الحروب سرعان ما يفتك بالأعداء ، ويعمل فيهم السيف ، أضف إلى ذلك جرأته ، وعزمه ، وبأسه الشديد خاصة إذا اشتد القتال وأبدى الشر ناجذيه ، وهو متفوق على أنداده ، وأقرانه من الأبطال المحاربين ، ويعتمد في الحرب على سيفه القاطع البتار ، وفرسه الكريم الأصيل ، ورمحه المتين الحاد ، أما في السلم فهو بطل الندوات ، والمناظرات ، والنواحي العقلية ، والفكرية ، فينتصر على خصومه بالفصاحة ، والحجة النافذة ، وسداد الرأي .

٢. مزج البطولة بمكارم الأخلاق :

يصور البارودي البطولة بجميع نواحيها كما هو الحال عند الشعراء العرب القدامي ؛ فالبطولة عندهم إلى جانب الشجاعة ، والجرأة ، وحب الحروب تشمل كذلك الحلم ، والعفة ، وعلو الهمة ، والسيادة ، وكرم الأصل ، والعزة ، والنجدة ، فالبطولة عندهم أوسع معنى ، فالفارس عندهم ليس مجرد سيف ، ورمح ، وفرس ، بل لا مناص من الصفات التي تكمل شخصيته .

والبارودي يحذو حذو الأقدمين في تعبيره البطولي ، فنجد في تعبيره يعبر عن كل الصفات المكملّة لشخصية الفارس البطل ، فيقول ^(٣) :

(١) أشهب : أبيض . أدهم : أسود حالك .

(٢) الروع : الحرب . طرف أعوجي : فرس كريم أصيل . اللهدم : الرمح الحاد الصلب .

(٣) ديوان البارودي ١٩٥/٤ .

وَعِنْدِي إِذَا مَا الْحَرْبُ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا عَزِيمَةٌ لَيْثٌ مَا تَهْرُ وَمَا تُغْوَى ^(١)
وَحِلْمٌ كَرِيمٌ يَمْلَأُ الْغَيْظُ قَلْبَهُ فَيَكْظُمُهُ وَالْحِلْمُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
وَعِقَّةٌ نَفْسٍ لَا تُزْنُ بِرَيْبَةٍ وَجُودٌ بِهِ ظَلَّتْ عُفَاةُ النَّدَى تَرَوَى ^(٢)
وَلِي هِمَّةٌ لَوْلَا الْعَوَائِقُ مَهَّدَتْ يَدُ الْمَجْدِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ لَهَا مَثْوَى ^(٣)
بَلَغَتْ بِهَا بَعْضَ الْمُنَى غَيْرَ أَنَّنِي جَدِيرٌ بِأَنْ أَحْوِيَ بِهَا كُلَّ مَا أَهْوَى
فَإِنْ سَادَ غَيْرِي بِالْجُدُودِ فَإِنَّنِي بِهِمْ وَبِفَضْلِي رِشْتُ سَهْمِي فَمَا أَشْوَى ^(٤)
وَلَيْسَ عَلُوُّ النَّفْسِ بِالْجَدِّ وَحْدَهُ وَلَيْسَ كَمَالُ الْمَرْءِ فِي شَرْفِ الْمَأْوَى ^(٥)
إِذَا حَرَكْتَنِي نَحْوَ أَرْضٍ وَتِيرَةٍ رَكِبْتُ لَهَا عَزْمِي وَإِنْ بَعْدَ الْمَهْوَى ^(٦)

يفخر البارودي بشدة بأسه في القتال ، ويفخر بعزيمته التي تشبه عزيمة الأسود لا يعرفها ضعف ، أو جبن ، ويفخر بحلمه الذي لا يدفعه إلى قتل الضعفاء ، وبكرمه ، وبمقدرته على كظم الغيظ ، والعفو عن الناس . مع المقدرة على الانتقام . ويفخر كذلك بالخوف من الله واتقائه ، والله تعالى قد مدح الذين يكظمون الغيظ ، ويعفون عن الناس ، فتلك درجة عالية من الحلم ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٧) .

والبارودي عفيف مترفع عن الشوائن ، والنقائص ، بعيد عن الريب ، والشبهات ، يغمر بجوده المعتفين ، و يفخر بهمته الغلبة ، وعزمه الذي لا يلين وبكرم

أصله ، ورسوخ قدمه في أرض المجد ، والشرف ، وهو رغم العوائق يطمح إلى بلوغ ما هو أبعد في مراقي المجد ، وهذه دلالة على علو الهمة ، وبعد الطموح ، وهو

(١) تهرّ : الهرير صوت الكلب . لا تعوي : لا يعتريها ضعف ، أو فتور ، وهي صفة للعزيمة .

(٢) تزنّ : تنتهم . الريبة : التهمة ، والشك . العفاة : طالبو المعروف . الندى : الكرم .

(٣) المثوى : المستقر ، والمقام .

(٤) رشت السهم : ركبت فيه الريش . أشوى : أخطأ الغرض ، ولم يصب الهدف .

(٥) الجد : الحظ . ، وقد يكون المراد به والد الأم ، أو والد الأب .

(٦) الوتيرة : الثأر . المهوى : بعد المسافة .

(٧) سورة آل عمران الآية : ١٣٣ ، ١٣٤ .

عصاميّ ساد بشرف نفسه ، وبشرف قومه ، مؤكداً أن شرف الآباء وحده لا يسمو
بالإنسان إلى القمم إلا إذا خالطه عزة النفس ، ونباهة الشأن ، وهو حريص على
إدراك الثأر ، والنيل ممن ظلمه ، وله في هذا المجال عزم قوي ، وصبر جاد ،
وإرادة قاطعة ، وإن صعب المرقى ، وبُعِدَت الشُّقَّة .

وفي النص ^(١) التالي يبدي البارودي إيماناً عميقاً بالخصال المكملّة للبطولة:

وَلِلنَّجَحِ أَسْبَابٌ إِذَا لَمْ يَفْزَ بِهَا لَبِيبٌ مِنَ الْفَتَيَانِ لَمْ يُورَ زَنْدُهُ ^(٢)
وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يُسْعِدِ الْمَرْءَ جَدُّهُ عَلَى سَعْيِهِ لَمْ يَبْلُغِ السُّؤْلَ جَدُّهُ ^(٣)
وَمَا أَنَا بِالْمَغْلُوبِ دُونَ مَرَامِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَخْذُلُ الْمَرْءَ جَهْدُهُ
وَمَا أُبْتُ بِالْحِرْمَانِ إِلَّا لِأَنَّنِي "أَوْدُ مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَا تَوْدُهُ"
فَإِنْ يَكُ فَارَقْتُ الرِّضَا فَلَبَعْدَمَا صَحِبْتُ زَمَانًا يُغْضِبُ الْحَرَّ عَبْدُهُ
أَبَى الدَّهْرُ إِلَّا أَنْ يَسُودَ وَضِيعُهُ وَيَمْلِكَ أَعْنَاقَ الْمَطَالِبِ وَغَدُّهُ ^(٤)
تَدَاعَتْ لِدَرْكِ الثَّأْرِ فِينَا ثُعَالُهُ وَنَامَتْ عَلَى طُولِ الْوَتِيرَةِ أَسْدُهُ ^(٥)
فَحَتَّامٌ نَسْرَى فِي دِيَاجِيرٍ مِخْنَةٍ يَضِيقُ بِهَا عَنْ صَخْبَةِ السِّيفِ غَمْدُهُ ^(٦)
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْفَعْ يَدَ الْجَوْرَانِ سَطَّتْ عَلَيْهِ فَلَا يَأْسَفُ إِذَا ضَاعَ مَجْدُهُ
وَمَنْ ذَلَّ خَوْفَ الْمَوْتِ كَانَتْ حَيَاتُهُ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْ حِمَامٍ يُوْدُهُ ^(٧)
وَأَقْتُلْ دَاءَ رُؤْيَا الْعَيْنِ ظَالِمًا يُسِيءُ وَيُثْلَى فِي الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ
يَرَى الضَّيْمَ يَغْشَاهُ فَيَلْتَدُّ وَقَعُهُ كَذِي جَرَبٍ يَلْتَدُّ بِالْحَكِّ جِلْدُهُ

البارودي هنا يعدد الصفات التي يتحلّى بها ، ويحرص عليها ، وهي التمسك
بأسباب النجاح حتى يثمر السعي ، وعدم إغفال دور الحظ ، والجد في بلوغ الغايات

(١) ديوان البارودي ١١٥/١ .

(٢) النجح : النجاح . يور : يشتعل . الزند : العود ، والمراد به : لم يثمر سعيه .

(٣) الجد : الحظ . الجد : النشاط والاجتهاد .

(٤) الوغد : الدنيء اللئيم الساقط الهمة .

(٥) تداعت : استعدت . ثعالة : الثعلب . الوتيرة : الثأر .

(٦) دياجير : جمع ديجور وهو الظلام الدامس .

(٧) يوْدُهُ : يدهمه ، وينزل به .

، فهو لا ينهزم رغم انقلاب الأوضاع ، وتغيّر الدهر الذي قد يقتل الأمل بما يسوّده من الضعفاء ، والدهماء ، وحرمان المستحقين ، واجتهاد الجبناء في إدراك الثأر ، وغفل الشجعان عن نيّله ، ثم يظهر تبرمه بالظلم ، وسخطه على الهوان ، ويقول إنّ المرء يجب أن يحارب الظروف ، ويجابه سطوة الأيام ، ولا يأسف على ما فاتته من المطالب الحسان ، وأقسى ما يراه الحرّ ، ويبتلى به هو أن ينال الأوغاد المراتب العلية .

والأبيات السابقة زفرة محموم ، ونفثة غيظ مكظوم تتبعث عن نفس أبيّة طماحة قيادية مملوءة بالعزّ ، والإباء ، والشمم ، وكذلك نفوس الأبطال عبر التاريخ يطلقون مثل هذه الصيحات الداوية كفحيح اللهب عندما تنتكر لهم الأيام ، وتقلب لهم الأقدار ظهر المجن .

٣. مزج البطولة بالفصاحة ، والعقل :

اهتم العرب في سابق عصورهم بالفصاحة ، وبلاغة اللسان ، وافتخروا بعقلائهم الذين يفصلون في المنازعات ، والمعضلات برجاحة عقولهم ، ويرونها من أبرز الصفات المكّمة للسيادة ، والشرف ، ومن هنا حرص عليها الشعراء الفرسان ، وغيرهم ، وحرص البارودي على أن يقرن بطولته بفصاحة لسانه ، ورزانة عقله ، وسطوع حجته حيث قال (١) :

وَلَكُمْ أَثَرْتُ غِيَابَةً مِنْ قِسْطٍ بِمُهَنْدِي وَحَلَّتْ عُقْدَةٌ مُبْرَمٌ (٢)
أَخْتَالَ طَوْرًا فَوْقَ ذِرْوَةِ مَنَبَرٍ وَأَكْرُ طَوْرًا فَوْقَ نَهْدٍ شَيْظَمٍ (٣)

يفخر البارودي بكونه محارباً بأسه شديد ، يقود الجيوش القوية ، والمستبسلة ، هذا مع حسن تصرفه في الأمور ، ومقدرته الفائقة على الحل ، والعقد ، وتذليل

(١) ديوان البارودي ٤٩٢/٣ .

(٢) أثرت : هيجت . غيابة : ما يستتر الشيء . القسطل : غبار الحروب الكثيفة . المبرم : الحبل المحكم الفتل

(٣) نهد : قوي ضخم . الشيطم : الطويل القوي السريع من الخيل ، والإبل .

الأمر الصعبة ، وهو فصيح اللسان ، بديع البيان ، متمرس بالكر ، والفر ، والجرأة في ميادين القتال .

والبارودي كما نراه في البيتين السابقين فصيحاً ، بليغاً ، متوقد القريحة ذو مقدرة عقلية هائلة على حل المشكلات الصعبة هذا . طبعاً . إلى جانب شجاعته ، وبطولته .

٤. المغالاة في تصوير بطولته :

يعبر البارودي عن بطولته في شعره ، ولكنه كثير ما يغالي في تقدير بطولته ، وتصوير شجاعته ، وعلى الرغم من أن المبالغات قليلة في الشعر الجاهلي إلا أننا نجدها بكثرة فاضحة في شعر العصر العباسي ، وكأن البارودي قد استعار تلك الأذواق ، أو تأثر بالحياة المادية الضخمة في العصر الحديث ، فقاد ذلك إلى مراع المبالغة ، والمغالاة ، إذ نسمعه يقول (١) :

إِنِّي وَإِنْ كَانَتْ الْإَيَّامُ قَدْ أَخَذَتْ مِنِّي وَأَخْنَى عَلَيَّ الضَّعْفُ وَالشَّمَطُ (٢)

فَقَدْ أَدَوْدُ السَّبْنَتَى عَنْ فَرِيسَتِهِ وَأَفْجَأُ الْبَطْلَ الْحَامِي فَأَخْتَبُ (٣)

وَأَصْدَعُ الْجَيْشَ وَالْفُرْسَانُ مِنْ مَرَحٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ بِأَطْرَافٍ انْقَتَا نُخْطُ (٤)

فَمَا بِنَصْلِي إِنْ لَأَقَى ضَرِيبَتَهُ نَكْلٌ وَلَا فِي جَفِيرِي أَسْهَمٌ مُرْطُ (٥)

يفخر البارودي بأنه قوي ، باسل ، وإن أضعفه الزمن وطول العمر بالمشيب ، وهو مع مشيبه قوي فتاك ، قاهر يجبر السبع على ترك فريسته ، و

يهجم على الفارس وهو في استعداد دائم للقتال ، ونصل سيفه لا ينبو عن الفتك بالأعداء ، وأسهمه فيها ريش .

(١) ديوان البارودي ١٦٦/٢ .

(٢) أخنى عليه : بلغ منه وثقل عليه . الشمط : الشيب .

(٣) أدود : أذفع ، وأمنع . السبنتي : النمر ، أو الأسد لجرأته ، وشدة بأسه . أفجأ : أهاجم بغتة . الحامي : الشجاع الذي يحمي حوزته . اختب : أجلد بالسيف .

(٤) أصدع الجيش : أفرق شمله . مرع : جنون من النشاط ، والقوة . العجاج : الغبار تثيره سنابك الخيل . نخط : نلعب بها شجاعة .

(٥) النصل : قائم السيف ، والرمح ، والنبل ، ونحوها . نكل : نبو ، وتباعد . الجفير : جعبة السهام . أسهم : مرط : لا ريش عليها ، ومفردها أمرط مثل أحمر .

والبارودي هنا يبالغ في إبداء شجاعته التي تخيف الليوث الجائعة ، وتجبرها على ترك فرائسها له ، و صولته التي يهزم بها الجيوش ، ويفرق بها الفرسان . والبارودي على الرغم من أغراقه في معانيه البطولية ، و جنوحه إلى المبالغة ، والافراط نجده يميل . أحياناً . إلى التواضع ، وهذا التواضع يشفع لكثير من المعاني التي غالى في تصويرها ، ومن ذلك قوله (١) :

لَسْتُ أَقْوَى عَلَى الزَّمَانِ وَإِنْ كُنْتُ أَقْلُ الْعِدَا بِقُوَّةِ زَنْدِي (٢)

فهو هنا على الرغم من بطشه ، وسطوته على الأعداء ، ورغم قوته البدنية الكبيرة نجده يتصاغر أمام تحدي تصارييف الأقدار ، عاجزاً عن ردّها ، هذه هي النفس الإنسانية المؤمنة ، التي لا تأبى عن ملك ربها ، وهذه أيضاً دلالة قوية على القوة الروحية ، والعظمة ، وقوة الإيمان ، وعظمة الأبطال التي لا تقوهم إلى تجاوز بعض الخطوط . وهذه الروح هي التي كانت تخفف من جموح البارودي ، وغلوائه .

٥. التسلي بالذكريات البطولية :

البارودي بعد أن ذهب جدته ، وشبابه ، وخارت قواه ، وشارف دوره في الحياة على الانتهاء كان قلبه لا يزال يemor بالبطولة موراً ، فعاش في ظلال تلك الأيام الخالية التي تحمل أطر الذكريات البطولية ، وأذكأها فينعي نفسه لنفسه قائلاً (٣) :

فَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ لَا سَيْفِي بِمَنْصَلَتٍ عَلَى الْعَدُوِّ ، وَلَا قَوْسِي بِمِرْنَانٍ (٤)

وكان البارودي كلما عصفت به الأحزان ، وتوالت عليه المحن في منفاه ، وأحسّ بأنه مكبل بقيود الأقدار فزع إلى اجتراح ماضي قوته ، وقدرته على

(١) ديوان البارودي ١٨٤/١ .

(٢) الزند : العضل في أعلى الساعد مما يلي الكتف .

(٣) ديوان البارودي ١٤٦/٤ .

(٤) السيف المنصلت : المرهف البتار . المرنان : وتر القوس الذي يصدر صوتاً عند انطلاق السهم .

المصاولة ، و القتال حين كان يقتحم عجاج المعارك ، ويجندل الأبطال ، ويعقد ألوية النصر في ميادين القتال (١):

وَأَصْبَحْتُ مَغْلُولَ الْيَدَيْنِ عَنِ النَّتِيِّ أَحَاوِلُهَا وَالْدَّهْرُ جَمُّ الْغَوَائِلِ (٢)

فهذا البارودي . في نخاسة الأقدار . لا يملك حيلة ، ولا يهتدي سبيلاً حيال الدواهي ، ومشية المقادير ، حتى لأخاله قد وضع رأسه بين يديه ، وأسبل جفنيه في أسى ، ولكنه فجأة يرفع رأسه في كبرياء ، وعجب ، متذكراً ماضي أمجاده ، وصولاته فيقول (٣). وكأنه يعتذر . :

كَأَنِّي لَمْ أَعْقِدْ مَعَ الْفَجْرِ رَايَةً وَلَمْ أَدْعَ بِاسْمِي لِلْكَمِيِّ الْمُنَازِلِ (٤)

وَلَمْ أَبْعَثِ الْخَيْلَ الْمُغِيرَةَ فِي الضُّحَا بِكُلِّ رُكُوبٍ لِلْكَرِيهِةِ بَاسِلِ (٥)

وها هو البارودي . على نافذة الذكريات . يعقد ألوية القتال للمتحاربين من جنوده ، ويشن الغارات على الأعداء في الفجر ، ويوقع باسمه الرعب ، والفرع في نفوس الأعداء ، ويبطش بهم مع قوتهم ، وشدة بأسهم ، وكان حيناً يغير في وضح النهار على العدو بفرسانه الشجعان الذين تعودوا على اقتحام الحروب ، والتمرس بالكرائه . أما الآن فقد انتهى كل شيء .

والبارودي يعيش على مثل هذه الذكريات ، ويتقيأ ظلال الأيام الخوالي ، متكئاً على جدار الماضي ، وفيه يجد نسائم المجد التليد ، فتطيب نفسه ، ويتلج صدره برد العزة ، والسلوان ، والعزاء ، وهو القائل (٦) :

لَمْ تَدَعْ صَوْلَةَ الْحَوَادِثِ مِنِّي غَيْرَ أَشْلَاءِ هِمَّةٍ فِي ثِيَابِ

(١) ديوان البارودي ١٤٦/٣ .

(٢) مغلول : مقيد . جم : كثير . الغوائل : الدواهي ، والمصائب ، والشرور ، والمفاسد ، والبلايا .

(٣) ديوان البارودي ١٤٧/٣ .

(٤) عقد مع الفجر رايتة : كناية عن تنظيم المحاربين تحت راية الحرب ، وقيادتهم إلى المعركة ، أو الغارة .

(٥) بعث الخيل المغيرة : سطا على العدو . ركوب : متمرس . الكريهة : الحرب . باسل : بطل شجاع .

(٦) ديوان البارودي ٤٢/١ .

فالدهر قد نال من الشاعر بالضعف ، والمشيب ، والنفي ، والفجائع ، فلم يبق منه سوى بقيّة همة ، وعزة ، وعنفوان مما يدل على أنّ البارودي صنيعة لا تفتر همته ، ولا تخور عزيمته ، وبطولته .

وهكذا هام البارودي بشعره البطولي في كل واد ، وسما به إلى كل فضيلة ، وضمنه المكارم ، والمحامد ، وجعل له أهدافاً طيبة سامية فكان فخره جاهلي الأسلوب ، إسلامي النزعة ، فأخرج لنا بطولة بيضاء لا شيء فيها تعجب الأجيال فقد صقلت المعارك موهبته الشعرية وأضفت عليه سمات التضحية ، والفداء ^(١) وعمّقت الأحداث الجسام التي اكتتفت مصر في عصره ^(٢) من إحساسه البطولي ^(٣) ، ووجد في نشأته ^(٤) ، ومشاركته في الثورة الوطنية ^(٥) ما يدعم مسيرته البطولية عبر تاريخه الحافل ، وقد ألبسه التربية الأولى حلّة الفضل والتزام المكارم ، وحبّ البطولة ، والفداء ، وهو القائل ^(٦) :

مَا إِنْ خَلَعْتُ بِهَا سُيُورَ تَمَائِمِي حَتَّى لَبَسْتُ بِهَا حَمَائِلَ مِخْذَمِي ^(٧)
وَعَنَيْتُ عَنْ قُلْتِي بِعَامِلٍ أَسْمَرَ وَسَلَوْتُ عَنْ مَهْدِي بِصَهْوَةِ أَذْهَمِ ^(٨)

(١) شعراء الوطنية في مصر . عبد الرحمن الرافعي ص : ٢٥ ، (ط ٢) . الدار القومية للطباعة ، والنشر . مصر . سنة ١٩٦٦م .

(٢) عصر البارودي يمثل حقبة من الزمن تغصّ بالأحداث الجسام التي كان لها أثر كبير في تاريخ مصر ، والمشرق العربي ، فقد عاش البارودي بين عام ١٨٣٨م ، وعام ١٩٠٤م ، وشهدت هذه الفترة أحداثاً مهمة لم يقف البارودي متفرجاً أمامها .

(٣) مهرجان محمود سامي البارودي ، عمر الدسوقي ص : ٤٤ ، منشورات المجلس الأعلى للفنون . القاهرة . سنة ١٩٥٨م .

(٤) محمود سامي البارودي شاعر النهضة ، دكتور : على الحديدي ص : ٢٨ . طبعة مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . سنة ١٩٦٩م .

(٥) أدب وتاريخ ، محمد حبرة ص : ٣٩ .

(٦) ديوان البارودي ٤٩١/٣ .

(٧) سيور التمام : حبال العوذ ، والخرز . الحمائل : علاقات السيف . المخزم : السيف القاطع .

(٨) غنيت : اكتفيت . القلة : عود صغير يلعب به الصبيان الصغار . عامل الرمح : أعلاه . الأسمر : الرمح . السلوان : النسيان ، والتلهي . المهدي : سرير الطفل . الصهوة : ظهر الحصان .

فانظر إليه : ما إن اجتاز طور الطفولة حتى خلع التمايم التي تلبس عادة
للأطفال الأحداث ، ولبس بدلاً عن ذلك حمائل السيف ، واستغنى عن لعب الأطفال
، واستبدل بها أدوات الحرب ، وأسلحة القتال ، وترك المهد ، واعتلى بدلاً عنه
صهوات الخيل ، وتمرس بركوبها ... ! .

الباب الثاني

القيم الإسلامية في شعر البارودي

وفيه فصلان :

الفصل الأول : أبرز ملامح القيم الإسلامية في شعر البارودي .

الفصل الثاني : النصوص الشعرية وتحليلها .

الفصل الأول : أبرز ملامح القيم الإسلامية في شعر البارودي .

١. الزهد .
٢. الاتجاه المثالي التربوي .
٣. المبدأ السياسي .
٤. تقبيح الرذائل ، والتنفير منها .
٥. تمجيد الفضيلة .
٦. الدعوة إلى التأمل ، وتقرير القيم الدينية .
٧. النزعة الروحية .
- ٨ . الموعظة .
- ٩ . الحكمة .

❖ أبرز ملامح القيم الإسلامية في شعر البارودي

تتناول القيم الإسلامية في الأدب العربي ليس جديداً ، فالأدب الإسلامي في مختلف عصوره يزدهي بالقيم الإسلامية ، ولكن بعد عصر الانحطاط الأدبي ، وتغول الحضارات أصبح تناول القيم الإسلامية بما يرضى الإنسان المعاصر حتماً ! ولكن البارودي أحيا هذا الاتجاه ^(١) على رأس نهضته ؛ فقد صادفت هذه القيم عقلية جبارة ، وذهناً وقادراً ، وذوقاً مهذباً رفيعاً ، وعبقريّة لمّاحة ، ونفساً ملؤها الهدى ، والإيمان ، عميق التجارب ، وقد ظلت شاعريته تكتمل فيها عناصر الرقي ، والتوجيه الديني حتى بلغت أوجها بعد الغربة ، والنفي .

والنزعة المثالية واضحة في شعره الذي يوجه فيه الناس إلى القيم الإسلامية ^(٢) الرفيعة التي تحقق للإنسان إنسانيته ، وكرامته ، وفي شعره الذي يفخر فيه بتمسكه بتلك القيم الإسلامية العالية ، وفي شعره الذي يظهر فيه دعوته إلى الزهد ، ويكثر فيه من الموعظة ، والحكمة ، ومن خلال هذه القيم الإسلامية التي تناولها في شعره استطاع أن يحدّد وظيفة الشعر في الحياة وهي خدمة الدين ، والتدريب على الصالحات ، والتحلي بكمكارم الأخلاق ، وقرّر هذه الوظيفة من خلال فهم واسع لدور الشعر في إرساء القيم الإسلامية .

والدين الإسلامي ، بما يحويه من قيم ، وشيم أصيلة كان النبع العذب الذي اعتمد عليه البارودي في نهضته الحديثة للأدب ، والدين الحنيف لا يتعارض مع تطوّر الفكر الإنساني في الحضارة ، والنمو ، بل إن الإسلام يدعو إلى التطور ، والتقدم ، وبهذا الإدراك السليم للعقيدة الإسلامية نجد في شعر البارودي درراً من بحر تعاليم الإسلام ، وهدى القرآن ^(٣) ، مما أكسب شعره طلاوة ، ورفعة .

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ص : ٢٤١ .

(٢) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص : ١٤٢ .

(٣) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٣٨ ، وما بعدها .

وقد اجتمعت في أعماق البارودي كل العوامل التي خلقت منه ذلك الشاعر الناصح ، الورع ، بعد أن امتزجت في أحاسيسه ، وشعوره عواطف شتى ^(١) على رأسها الدعوة إلى الفضائل ، والثورة على الرذائل ، والتمرد على هوى النفس ، ونجد في شعره العديد من ملامح القيم الإسلامية . ومن أبرز تلك الملامح :

١. الزهد :

في شعر البارودي ميلاً كبيراً ، وحرصاً محموداً على الزهد ، والتصوّف ، ولم يقصر هذه النزعة في نفسه بل نادى بها في شعره في إصرار ، وإلحاح ، ويشمل ذلك تذكيره بالآخرة ، وما فعله الموت ، والفناء بالأمم السابقة ، وفي ذلك دعوة للتأمل في مصير الحياة ، والدنيا ، والاعتبار بالسابقين ، ويشمل أيضاً إسداء النصح ، ولفت الانتباه إلى ما يمكن أن يغفل عنه المسلم ، والتحذير من الدنيا ، وتقديم الجرعات التي تقي بالغرض ، وتخدم المعنى ، وتقرر الأفكار من أقرب وجوه الكلام ، هذا إلى جانب ضرب الأمثلة ، وابتداع الصور بما ينسجم ، والمعنى المراد ، وكل هذه العناصر ضرورية في النص الأدبي الذي يحمل في طياته معاني الزهد ، والتصوّف .

والاغترار بالدنيا ، ونعيمها الزائل ، والحرص عليها ، والتمسك بأذيالها قد تنسي الإنسان آخرته ، و ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه بحيث لا يجتمع الدنيا ، والآخرة في قلب الإنسان ، فلا بد أن تكون إحداها على حساب الأخرى ؛ فالزهد من عوامل الإقبال على الآخرة ، والبارودي في بعض شعره يزهّد الناس في الدنيا ، ويدعوهم إلى العمل لآخرتهم ، وهذه من دعائم الدعوة الإسلامية ، ومن أبرز قيمها التي تدعو إليها ، وكثير من الآيات القرآنية تتحدث عن تفضيل الآخرة على الدنيا مثل قوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) .

(١) الأدب العربي وتاريخه ٤٠٦ / ٣ . (٢) سورة الأعلى الآية : ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦٤ .

ومن هنا تعلّق شعر الزهد ، والتصوّف عنده بوظيفة الشعر لديه ، ودوره المهم في حياته ، وحياة المجتمع ، وتهذيب النفوس ، وتبنيه الخواطر .
ونلمح في شعره الزهدي خشوع جوارحه لله تعالى ، وذوبان نفسه في المعاني التي يتناولها ، ونلمح كذلك حسن التذلل لله .

ومن العوامل التي حملت البارودي إلى شعر الزهد ، والتصوّف الهزيمة النفسية التي حاقت به من جرّاء فشل الثورة العربية ، وما انتهى إليه أمره بعد المحاكمة الغاشمة ^(١) ، والغربة التي عاشها في المنفى هي التي عمقت في نفسه الحسّ الديني ، والنزعة الإيمانية ، فانطلق يتغنّى بشعر الزهد الصادق ^(٢) الممزوج بالأنين ، والمشاعر النفسية التي اكتوى بلهبها ؛ وهي المشاعر التي تغذي النفوس المؤمنة بقوة الإيمان ، وتجعلها تثوب إليه ، وتفرع إلى الله في المصائب ، والمحن .
وقد بدأ التحوّل في نفسيّة البارودي إلى الزهد منذ المراحل الأخيرة لدوره السياسي ؛ فالمواقف التي مرّ بها خلال مسيرته في الجهاد الوطني ؛ الانتكاسات التي كانت تعصف به أحياناً لا تزيدّه إلا إيماناً ، واعتماداً على الله ، فكانت النوازع الإسلامية تتجلى كلما ازدادت الأمور سوءاً ، والمؤمن الحقّ هو الذي يستجيب لعقيدته فتصنع منه الضغوط ، والشدائد شخصاً جديداً متمسكاً بفروض الدين خاصة التي تدعو إلى التقلل من الدنيا ، والتعلّق بالآخرة ، فظلّ في منفاه يلوذ بكنف الله ، وقد تكاثرت عليه الخطوب ، وازدادت عليه الأحوال ارتطاماً ، فزهد في الدنيا ، ونعيمها ، وتجلّت قيمه الإيمانية الكامنة في أعماقه ، وصقلتها مرّ التجارب ، فأغرق في التفكير في الموت ، ونهايات الأشياء ^(٣) ، فأخلص التوجه إلى ربه ، وثار على اللهو ، والملذات ، ودعا إلى هجر الدنيا . وأصدق النزعات الصوفية تلك التي تأتي بعد ملذات ، ونعيم زائل ، وهي التي تشكل القناعة ، والتجربة ، والإرادة اللازمة للزهد .

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٨٦ . (٢) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص : ١٤٣ .

(٣) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٩٣ .

وقد تحوّل إلى خطيب منبري^(١) ، وواعظ ديني يهدي الناس ، ويعظهم في سرنديب فقوي ارتباطه بالدين ، والتقوى ، والصلاح فارتقى بشعره ليلائم شخصيته الدينية ، مما قوى ارتباطه بحياة الزهد الذي انعكس على شعره .

كما ساعده الفراغ في المنفى على التأمل ، والتفكير في ملكوت الله ، وقدرته ، وانشغل بالإطلاع على بعض كتب الفقه ، والعقيدة التي أعانته على السير في دربه الصوفي ، وهو يعيش في نفسه الظلم ، والتكيل ، والنفي ، وما كشفت له الثورة العربية من خيانة ، ومؤامرات ، ودسائس^(٢) .

ومن العوامل التي دفعت البارودي إلى الزهد فساد أخلاق كثير من الناس ، فهو عندما يشكو أهل زمانه ، ويتبرّم منهم إنما ينعى إليهم قلة الصدق في المودة ، وشحّ النصارى ، والأبطال الحقيقيين ، ويخبر أن الباحث عن خلّ وفيّ كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش فكان لهذا الإحباط أثره في زهده ، وبغضه للعالم ، وللناس . ومن خلال شعر الشكوى استطاع البارودي أن يرسى ركائز دعوته الصوفية حيث أيدها بالدليل القائم على فساد الأخلاق ، والمبادئ .

والعامل الآخر الذي جنح بالبارودي إلى شعر الزهد مرتبط بدور الشعر عنده ، وهو أداء الرسالة الخالدة تجاه البشرية ؛ فالبارودي يرى أن للشعر دوراً أصيل في الناحية الدينية مثلما له دور في النواحي الأخرى ، فالحياة المادية الضخمة التي عاشها الناس في عصره جذبهم إلى الانغماس فيها ناسين ، أو متناسين نبأ الآخرة ، أضف إلى ذلك اشتغال الأفراد بالكسب ، وطلب المعاش ، وتحقيق المآرب جعلتهم قليلي الاهتمام بمعرفة الأمور الدينية . هذا إلى جانب

(١) شرح ديوان فقيد السيف والقلم ، من أحيا دولة الشعر بعد العدم ، محمود الإمام المنصوري ، مقدمة الجزء الأول ، ، مطبعة الجريدة . القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) في الأدب الحديث ٢٠٨/٣ .

تداخل الحضارات التي تؤدي أيضاً إلى التحلل من بعض القيم الدينية ، والميل إلى زهرة الحياة الدنيا ، ومن هنا سخر البارودي شعره لتحذير الناس من السعي خلف الدنيا الفانية التي تورث موارد الفتنة ، والهلاك .

والبارودي في شعره الزهدي يناقش بعض القضايا التي تتصل بحياة الناس في دنياهم ، وبآتي بآراء ، ونظريات هي في أصلها حقائق مقنعة ، ويرسم من خلالها طريق الزهد ، والتصوّف ، ويترك للمرء حرية الاختيار ، فهو يتبع أسلوب التذكرة ، وأحياناً يستدرج القارئ ، أو السامع من خلال المناقشة حتى يصل به إلى القناعة التي يريدها ، وهي مناقشة مدعّمة بالأدلة ، والحجج المتمثلة في الحكم ، والأمثال ، والآراء الصائبة .

كما كان يتخذ من بعض المناسبات وسيلة لإذاعة بعض القيم الصوفيّة المرتبطة بتلك المناسبة ، فهو مثلاً يتخذ من الرثاء مطيّة لتناول معاني الزهد ، والتحذير من الدنيا ، والتذكير بالموت ، ووجوب الاستعداد له ، وتحقير الدنيا ، وتنبيه الغافلين ، وتقريع القابضين على أذيال هذه الدنيا ، ومثل هذه الدعوات إنما يقوى أثرها ، وتبلغ أعماق النفوس ، وتمس أوتار القلوب متى جاءت في أعقاب رثاء حقيقي ، وتجربة واقعية عاشها الشاعر ، والبارودي استطاع أن يطوّع كثيراً من الأغراض ، والتجارب لخدمة القضايا التربوية للإنسان ، ومعالجتها . ومن هنا فقد كان البارودي يستمد معانيه من الإسلام ، والتصوف الإسلامي قائم على أرضية الإسلام يستمد من معينه المبادئ ، والأفكار كما يقول نيلكسون في كتابه (١) .

وأخيراً فإنّ البارودي قد زهد في الدنيا ، وهذا الزهد يبدو متعارضاً بعض الشيء مع طموحه ، وآماله في تحقيق الأمجاد التي ظلت ملازمة له ، وحتى اعتقدنا بأنّه يعمل تحت مظلة المقولة : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل

(١) التصوّف الإسلامي ، وتاريخه لنيلكسون ص : ٣ ، طبعة لجنة التأليف والترجمة ، والنشر . القاهرة ، بدون تاريخ .

لآخرتك كأنك تموت غداً) . أو على ضوء قوله تعالى : ﴿ ... وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ... ﴾ ^(١) إلا أن هناك تفسيراً آخر لنزعتة الصوفية ، وهي الحالات النفسية التي أصابته ، ونوبات اليأس التي كانت تعتريه ، وذلك بعد أن رأى آماله آخذة في الانهيار ، وبعد أن شاهد أوراق طموحه تذوي فوق فروعها ، وقد تتكر له الزمان ، وها هو من رئيس للوزارة يجد نفسه شريداً في غابات سرنديب بعيداً عن الأهل ، والرفاق ، والوطن ، ينظر فيرى نيران الثورة الوطنية قد باتت رماداً تذروه رياح الخيبة ، ويرى رغبته في نيل الحكم ، والسلطان قد صارت سراباً يحسبه ماءً حتى إذا ما جاءه لم يجده شيئاً ، وأظلمت عليه الدنيا حتى إذا أخرج يد آماله لم يكد يراها ، ويصغي فلا يسمع سوى همس فؤاده الواجف الحزين ، وكان في منفاه يأتيه الصريخ بموت أهله ، وأحبابه ، وأصدقائه فتسيل دموعه مختلطة بأحزانه المترابكة طبقاً عن طبق ، تتقد لوعته كجمر القضي الجزل ، فأثر ذلك في شعره ، ومال به إلى الزهد ^(٢) فيمكن القول بأن البارودي زهد في الدنيا مُرغماً تحت ضغوط العوامل النفسية القاهرة ، وكثير من النفوس إن لم تتعرض للضغوط من العسير عليها أن تنزع بسهولة إلى الهداية .

وشعر البارودي قبل منفاه لا يخلو من بعض المعاني التي تتجه إلى الزهد ، ولكنها كانت لا تشكل اتجاهاً فنياً ، ودينياً في شعره إلا بعد نفيه .
وعليه فإن زهديات البارودي تعبّر عن نهاية الأبطال المأساوية ؛ فمن قائد طموح ضاق الفضاء بجيشه إلى شخص طريد مهمل ، بالي الآمال يحاور الضياع ، والنسيان ، ويعالج الموت في أحراش سرنديب الموحشة .

٢. الاتجاه المثالي التربوي :

جزء من شعر البارودي يمثل اتجاهاً تربوياً قوامه النصيح ، والإرشاد ، فهو يسعى إلى تقويم العلاقات بين الناس ، وتصحيح مفاهيم التعاملات بين الأفراد

(١) سورة القصص الآية : ٧٧ .

(٢) في الأدب الحديث ٢٣١/٣ .

، والجماعات حتى يتلاحم المجتمع ، وتتحقق فيه ما أراده لهم صاحب الرسالة . ﷺ . من إتمام مكارم الأخلاق . ومن هنا يختلف شعر الزهد عن شعر النصح ، والإرشاد ؛ فالدعوة إلى الزهد ، وإن كان قائماً على النصح ، والتربية الروحية ، والنفسية إلا أنّ النصح ، والإرشاد هنا نعني به الدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق عموماً ، ولا يشترط فيه الزهد ، والتصوّف ، إنما هي دعوة إلى السماحة ، والفضيلة ، وكفى .

وشعر البارودي في هذه الناحية غني بالقيم التربوية الإسلامية السمحاء التي تمثل في مجملها وجهة الشاعر ، ونهجه الديني القائم على التمسك بالمكارم الإسلامية ، والترويج لها لتحیی بها النفوس ، فهو يقدم نصائح خالدة ، وهداية غالية تفيد الأجيال خاصة في هذا الزمان الذي قلّت فيه خبرات الناس ، واستبدّ فيه المفسدون ، ويقول . ﷺ : " بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً " ^(١) فنجد في شعر البارودي الكثير من الدعوات إلى العمل الصالح ^(٢) ، فهو في اتجاهه الديني التربوي لا يفتر عن تقديم نصائحه البليغة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الناس في عصره . فكان مثل الطبيب الاجتماعي يقدم العلاج ، والوقاية ، والإرشاد . وهذا من وظائف المسلم تجاه الآخرين . وكان شعره مثل المصابيح المتوهّجة في ظلمة الحياة العصرية الحديثة ، وهي حياة أحوج ما تكون إلى من يرشد إلى الفضائل ، ويدل على المحامد التي لا غنى للناس عنها ^(٣) .

وكل نصائحه وإرشاداته تتجه اتجاهاً دينياً رفيعاً فهو ينظر إلى الدنيا بعين الناقد البصير ، ويتأمل ما يحتاجه الناس من الهداية ، والتقويم فيعالجه في شعر جميل مؤثر ، والفكر العربي عموماً متصل اتصالاً كبيراً بالنظرة الكلية الشاملة إلى الحياة ، والروابط بين الإنسان والله وبين الإنسان والإنسانية ، وامتزاج الدين

(١) صحيح البخاري ، لمحمد إسماعيل البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، حديث رقم : ٣٤٦١ ، طبعة بيت الأفكار الدولية للنشر ، والتوزيع سنة ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٢٦ .

(٣) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٩٠ .

بالحياة عامل مهم من عوامل القوة الإيجابية ^(١) ، فنظرة البارودي إلى مجتمعه ، وأهل زمانه هي نظرة شاملة قوامها العقل ، والروح ، والعمل . والخلق القويم هو الذي يحكم ذلك ، والنصح ، والإرشاد عند البارودي نابع من فكرة أنّ الإسلام ليس ديناً بمعنى التعبد فحسب ، بل هو دين ، وأخلاق ، وهذا يمثل الفكر الإسلامي عند البارودي .

والإنسان بطبعه معرض للنسيان ، وعقله المحدود قد يعجز . أحياناً . عن إدراك أبسط الأشياء التي تلزمه في حياته ، وقد يستعصي عليه التصرف في بعض الأمور ، والبارودي هنا يحاول جهد خبرته ، وثاقب رأيه ، وخلاصة ثقافته أن يتلمس مثل هذه الجوانب ، وخير النصح ، و أبلغه هو الذي يجد فيه المرء غذاءً ، ونفعاً ، ومشاعل تنير له دروب الحياة ، وشعابها ، وتمهد له السبل ، والبارودي يركز على هذه النواحي في شعره المترع بالقيم الإسلامية ، والنظرة الصائبة في عمق الطبيعة البشرية ، والميول الإنسانية .

وكثير من نصائح البارودي تأتي مشفوعة بالحكمة مما يجعل لتلك النصائح دويماً في النفوس ، وصدى في العقول ؛ فالبارودي يدرك دور الشعر في ترسيخ الآداب العامة ، ويدرك أنّ الشعر قوة هائلة إذا أُحسن استغلاله ؛ فالشعر كان يسيطر على مشاعر العرب في عصورهم القديمة فترفع ، وتضع ، وتحرض على القتال ، وتفرض النزاعات ، وإلى غير ذلك ، والشعر عند البارودي ديوان للأخلاق ، ومنازل للهداية ، وهو القائل ^(٢) :

وَالشَّعْرُ دِيْوَانُ أَخْلَاقٍ يُلَوِّحُ بِهِ مَا خَطَّهُ الْفِكْرُ مِنْ بَحْثٍ وَتَنْقِيرٍ ^(٣)
كَمْ شَادَ مَجْدًا وَكَمْ أَوْدَى بِمَنْقَبَةٍ رَفْعًا وَخَفَضًا بِمَرْجُوٍّ وَمَحْذُورٍ ^(٤)

(١) معالم الفكر العربي ، أنور الجندي ص : ١٥٥ ، مطبعة الرسالة ، بدون تاريخ .

(٢) ديوان البارودي ١١٩/٢ .

(٣) يلوح : يبدو ، ويظهر . خطه : كتبه ، وأثبتته . تنقير : بحث دقيق .

(٤) أودى : أذهب ، وأهلك . المنقبة : ما يفتخر به الإنسان .

ولعل من القيم الإسلامية التي انفرد بها البارودي في هذا العصر اهتمامه بما يُحكم بناء المجتمع ، ويمنع انحراف الأفراد ، فهو يريد استمرارية روح الفضيلة في جسد المجتمع ، وبما أنّ الفرد هو الذي يكون مع غيره النسيج الاجتماعي . فإن اهتمام البارودي بتقويمه للفرد المسلم نابع من هذه الحقيقة ، ومن هذا المنطلق فهو يرسم للمرء ملامح الصديق الذي يجب أن يختاره ، فالصديق إما أن يضلّ صديقه ، وإما أن يهديه ، والإسلام يحضّ على إحسان اختيار الأصدقاء ، ويشمل ذلك الجليس الصالح ، وفي القرآن نجد بعض الأمثلة للذين أضلتهم صداقة السوء كهذا القائل : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (١) ، ومثل قول الذي هو في الجنة لأصحابه عندما رأى أحد قرنائه في الدنيا يُعَذَّب في النار : ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنِّي كِدْتُ لَتُرْدِينَ ﴾ (٢) .

والبارودي ينأى بنا عن مثل هذا المصير ، وهذا باب واسع من أبواب الرشاد ، والأمر بالمعروف ، وإيقاد مصابيح الهداية على طرقات الفضيلة ، والضلال ، وهكذا كان البارودي يركّز في نصائحه أحياناً على مثل هذه النواحي الدقيقة المهمة التي قد تتحكم في علاقات الناس ، ومصائرهم ، وتؤدي دوراً خطراً في حياتهم ، وحتى بعد مماتهم .

ونلمس دعوة البارودي إلى الفضيلة في معظم شعره حتى في العشق ، والهوى نجده ينادي بالعفة ، والطهر ، والبعد عن الأرجاس ، و الأدران ، وتنزيه الحب عن كل ما يشينه ، وكل ما يعتقده كثير من أهل الزيف ، والفساد ، والبارودي لا يلقي بإرشاداته عارية من الأدلة ، والبراهين فهو ينصح ، ويذكر بقيمة النصيحة ، وفائدة الإرشاد ، ويبين المضار من عدم امتثال النصيحة ، كما لا يحصر إرشاداته في الأمور التقليدية المستهلكة وحدها ، بل يفتح الباب واسعاً لكل أشكال القيم ، والفضائل التي تفيد الإنسان في مسيرته ، وكان يستمدّ ثمار نصحه

(١) سورة الفرقان الآية : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سورة الصافات الآية : ٥٦ .

من واقع الناس ، وحياتهم ، ومن واقع حياته ، وتجاربه ، فاتجاه البارودي المثالي في الشعر تحوي حقائق ملموسة ، ومقبولة لما فيها من الآراء المقنعة ، وكان شعره سائغاً لدى القارئ تنساب نفسه مع معانيه ، وذلك لأنه يعبر عن القيم الفاضلة في قالب اجتماعي يكسوه رقة الشعور ^(١) وصفاء النفس ، والحب الحقيقي للإنسانية ، فمن مبادئ البارودي إسداء النصح للمجتمع في أبيات مغلفة بالحكمة ، يدعوهم من خلالها إلى المبادئ الكريمة ، فقد كان مربياً ، غيوراً على المثل العليا ، ومع ذلك لا يخلو شعره من الحسرة على ضياع بعض الشرائع الحلوة وسط زحام الحضارة المستوردة ^(٢) بين أشلاء الانحطاط ، وخلف أستار الغفلة عن الدين .

وكان البارودي يتخذ من بعض المناسبات مثل الرثاء وسيلة لتقديم النصح ، والإرشاد ^(٣) ، وأحياناً يحكي بعض تجاربه في الحياة ليقرر بعض الأفكار المتصلة بتلك التجارب ، فهو عندما يصف لنا بعض جوانب لهوه ، وعبثه في الحياة يستدرجنا إلى النهاية الحتمية ، وبعدها يصور لنا حكماً رائعة في النصح هي وليدة تلك التجربة التي عاشها ، فنستقي العبرة ، والموعظة الحسنة ، فقد كان البارودي يبلى من المواقف التي يمر بها مبادئ ، ومواقف تعبر عن اتجاهه الديني ، وحبّه للفضيلة .

ومن العوامل التي دفعت البارودي لبث قيم النصح ، والإرشاد في مجتمعه ، وانتهاج هذا النهج التربوي المثالي إحساسه بأنه الهادي ، والمرشد ، والقائد الديني لمجتمعه يأخذهم إلى بر الفضيلة ، والظهر ^(٤) ، وذلك لثقافته الدينية الواسعة التي نشأ عليها ، وتثقف بها .

(١) دراسات في الأدب العربي على مر العصور ص : ٨٦ .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ص : ١٤٢ .

(٣) في الأدب الحديث ٢٢٦/٣ .

(٤) المرجع السابق ٢٠٨/٣ .

والذي دفعه لهذا الدور أيضاً نظرتة الفلسفية لموهبته الشعرية فهو يرى أن الشاعر يحسن به توظيف هذه الثروة الفنية ، أو جزء منها في الخير ، فهي مثلها كمثل أي ثروة يجب أن تتفق في الخير ، ووجوه البر ، فالشعر يجب أن يسخر كله ، أو بعضه في خدمة الفضيلة ، والمثل العليا إذ يقول (١) :

الشَّعْرُ زَيْنُ الْمَرْءِ مَا لَمْ يَكُنْ وَسِيلَةً لِلْمَدْحِ وَالذَّمِّ
فَقُلْهُ فِيمَا شِئْتَ مِنْ حِكْمَةٍ أَوْ عِظَةٍ أَوْ حَسَبٍ نَامِي
اهْتَفِ بِهِ مِنْ قَبْلِ إِطْلَاقِهِ فَالْسَّهْمُ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّامِي

وبالرغم من أن اتجاه البارودي الشعري ينحصر في تقليد القدماء ، والسير على نهجهم (٢) إلا أنه مع ذلك كان يتبع الأساليب الأدبية عند الأمم المتحضرة ، والمعاصرة ، مثل الاهتمام بمشاكل الإنسان ، وحياته ، ومن هنا فقد كان شعر البارودي في هذه الناحية يعالج بعض القضايا الاجتماعية بمنظور ديني متعقل ، وبذلك لم يكن شاعراً تقليدياً يدور شعره في فلك الجمود ، والنمطية بمعزل عن الأحداث اليومية ، والقضايا المتجددة في المجتمعات المعاصرة .

٣. المبدأ السياسي :

الفكر السياسي الإسلامي يقوم على عدة مبادئ متجانسة تمثل الدستور الدائم للدولة الإسلامية ، والنبي ﷺ . قد أرسى دعائم هذا الدستور ، وجسدها حياة قوية خلال الحقبة التي قضاها في أداء رسالته الخالدة .

وأهم المبادئ التي يقوم عليها دستور الدولة في الإسلام : الحرية ، والعدل ، والمساواة عبر الشورى ، فضلاً عن القوة العسكرية الدائمة لمجابهة المخاطر ، ثم يفرض الإسلام الجهاد في سبيل هذه المبادئ ليحقق للأفراد العزة ، والكرامة ، والسعادة تحت ظلّ دولة الحرية ، والشورى .

(١) ديوان البارودي ٥٣١/٣ .

(٢) دراسات في الأدب العربي على مرّ العصور ص : ٧٥ .

وقد قدّم السلف تضحيات جمّة ، ومتنوعة لأجل تحقيق أسس الفكر الإسلامي لإدارة الدولة ، بل وتحمل بعضهم أقسى ألوان الشدائد في سبيل امتثال أوامر الشرع في هذا المجال .

وقد عاش البارودي في حقبة زمنيّة وقعت فيها مصر تحت نير التغول الأجنبي ، وسُلب فيها الشعب حقوقه في الحرية ، والعدل ، والشورى ، ونال فيها أقسى أنواع الاضطهاد ، والذل ، واستبدّ فيها الحكام المصريون بالحكم ، وخضعوا للتدخل الأجنبي ، وباركوا سياسة الإنجليز التي تهدم الفكر الإسلامي .

ووسط هذه الأجواء برز البارودي ليجاهد بشعره كما جاهد السلف بسيوفهم ، وشعره في هذه الناحية يمثل جهاداً عظيماً لأجل الدفاع عن الإسلام من وجهه السياسي ، ونادى في شعره بالمبادئ الوطنية التي هي في مجملها أسس إسلامية رائعة أحكم النبي ﷺ . أمرها ، وأنزل الله فيها أحكاماً واضحة لا مجال لمناقشتها هنا.

والذي أعان البارودي على انتهاج هذا النهج في شعره هو يقظة الشعور الوطني ، والمطالبة بالحرية . وهذا من صميم الدعوة الإسلامية . فعندما وجد البارودي مجتمعه يتململ ذرعاً تحت جمر الظلم ^(١) ، وسياسات المستعمر الرعناء اتجه البارودي إلى الدعوة إلى الحرية ، ومزجها بالقيم الإسلامية المرتبطة به ليحيي الحسّ الوطني ، والشعور القومي في أمتة ، وهذا أمر لازم في مسيرة الجهاد ، والدفاع عن الحقوق المشروعة ، والمقدسات.

وقد كان لتغلغل النفوذ الأجنبي في مصر أثر في توجه البارودي إلى الشعر الجهادي ؛ فقد قوى روح المعارضة ، وروح التمرد في نفوس الكثيرين ، ولم يبق سوى بثّ القيم الإسلامية التي تقود الشعور الوطني إلى الحرية ، والعدالة ، فاستطاع أن يقدم لشعبه الجرعات التي توقظ فيه روح المقاومة ، فاشتعلت

(١) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص : ١٣٨ .

الحركة الوطنية ، وشارك البارودي فيها بشعره ، وبفكره ، وبنفسه ، واتجه في قصائده السياسية اتجاهاين أسهما في إرساء جماليات القيم السياسية ، والإسلامية ، والاتجاهان هما :

١. مهاجمة السلطة الغاشمة ببيان مخازيها ، و انحطاطها من وجهة النظر الإسلامي ، وانتقاد انحراف الحكام المصريين عن سبيل الإسلام ، وهذا أفضل أنواع الجهاد .
 ٢. دعوة الشعب إلى النضال الوطني بكافة أشكاله ، وإيضاح نهج الكفاح ، والعمل من أجل تحقيق الحرية ، والعزة ، والقوة كما حددها الإسلام ، والقيم الإسلامية عامة لا تزدهر إلا في المجتمعات المعافاة من كافة أرجاس الذل ، والاستكانة ، والهوان .
- وقد كان البارودي على الصعيد السياسي يطالب ، ويعبر عن مواقفه الدينية من القضية الوطنية ، فهو ينادي بقيام حكومة إسلامية ^(١) قائمة على مبدأ الشورى تتحقق فيها العدل ، والحرية ، والعزة ، وهو ما نسميه شعر التمرد على الطغيان ^(٢) ، ومجابهة قهر السلطان ، ومثل هذه المواقف تنبثق عن إيمان عميق ، وتوجه سليم ، وامتنال حكيم لأوامر الدين .

كما اتخذ البارودي من المحن الاقتصادية ، والسياسية لشعبه ، مناسبات ليجهز بشعره الوطني الداعي للإصلاح ، ومقاومة الظلم ، كما اتخذها مناسبات لتقديم دروس في الحياة الكريمة ، وكيفية التوصل لها ، والمحافظة عليها ، ومن خلال كل ذلك أرسى مبادئ ، وقيماً إسلامية فاضلة في هذا المجال ، فلم يخش سلطاناً ، ولم يتملق رب صولجان ، ولم يتراجع عن موقفه .

وبما أن البارودي قد جاهد في طلب الحرية ، والعدالة لشعبه ، وكافح لأجل إيقاظ الحس الوطني ، والوازع الديني الذي يكفل له العيش الهنيء في ظلال

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٩٠ .

(٢) في الأدب الحديث ٢٠٧/٣ .

الحرية ، إلا أنه كان يطلب بذلك أيضاً الملك ، والسلطان لنفسه ، فقد كان طموح النفس إلى نيل الحكم ، والملك فاقتحم نيران الثورة العربية ، وخاض غمارها بكل جسارة ، ومن هنا امتزجت البطولة بالقيم الإسلامية النبيلة ، فاستمدّ منها العناصر القويّة التي بنى منها شخصيته الأدبية ، والشعر السياسي في معترك المقاومة تحتاج إلى البطولة ، والشجاعة ، وكذا كان البارودي . فهو في بطولته قلعة ضخمة ، وفي قيمه الإسلامية مدينة فاضلة ، وهو ما وضع البارودي في قمة هرم المجد الشعري وصار بذلك درّة نادرة بين أصداف الزمن .

٤. تقبيح الرذائل ، والتنفير منها :

تقبيح الرذائل ، والتنفير منها هي في الأصل حركة واسعة ، ومباركة لتعريف الناس ببواطنها ، ومساوئها ، وكشف النقاب عنها ، وذلك أكبر دوافع اجتنابها ؛ فالذي يعرف خطورة أمر يسهل عليه النجاة منها ، ولا يمكننا محاربة المنكر ، والابتعاد عن مواضع الشرّ إلا إذا عرفنا ما ينطوي عليها من المفسد ، والمهلك ، فنحن مثلاً لا نستطيع أن نحارب إبليس إلا إذا عرفنا أضراره المحدقة ، ومنافذه الواضحة ، والخفية ، وأهدافه الخبيثة ، وهذا لا يأتي إلا من خلال الحديث عنه ، وإماطة اللثام عن شروره ، وتربصه بالإنسان . وبذلك فإن التحذير من المنكر عن طريق تقبيحه لأمر حسن ، فهو من أساليب القرآن ، فالله تعالى عندما يأمر عباده بالخير فإنّه يمتدح الفضائل ، ويذمّ الرذائل ، والقرآن الكريم عندما أراد النهي عن الغيبة قبحها ... فمثلها بأكل الإنسان لحم أخيه ميتاً ..! (١) .

وكذلك كان أسلوب النبي ﷺ . فقد كان يجمّل المعروف ، ويحسنه ، ويذمّ المنكر ويقبحه ، فعندما أراد النهي عن الجليس السوء مثله بنافخ

(١) قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَإِنْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة الحجرات الآية : ١٢ .

الكير...^(١)! والبارودي يردُّ هذه المناهل العذبة في التعبير عن هذه القيم الإسلامية ، فقد كان يسعى إلى الكشف عن مواضع السوء ، والقبائح ، ويبين أضرارها ، ولا يكتفي بذلك فحسب بل ينقّر الناس منها ليجتنبوها ، ويتحلوا بغيرها من محمود الصفات .

ومن أساليبه في تقبيح الرذائل النهي المباشر عن المنكر حيث يذمّها ، ويبين أنّها تضرّ بالأفراد ، والجماعات ، ومن ذلك مثلاً نهيه عن مجالسة النمامين ، والاستماع إلى أقوالهم ، وهتكهم لأعراض الناس ، فهو ينهى عن ذلك بقوة ، وصلابة ، ويخبر بأن ذلك يفسد العلاقات بين الناس ، ويمزّق أستار النسيج الاجتماعي ، ويلحق أضراراً بالبناء الاجتماعي المسلم .

فالنهى عن المنكر من القيم الأصيلة في الإسلام ، وقد مدح الله تعالى الذين ينهون عن المنكر في كتابه المجيد ، إذ قال : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٢) ، ولعلها من أهم مقاصد الشريعة الواجبة أن تستمر باستمرار الحياة ، ولولا ذلك لوقع للأمة ما لا طاقة لها بدفعه ، وقد ضرب النبي ﷺ . في ذلك مثلاً بأصحاب السفينة^(٣).

واعتمد البارودي في نهيه عن المنكر ، وتقبيح المساوئ ، والرذائل على الزجر ، والتقريع ، ومثل هذه الطرق الفنيّة تقوي معاني النهي التي تشعر بفداحة ، وسوء ما نُهي عنه .

(١) قال الرسول ﷺ . : " مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يَخْذِيكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّبَعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً " . رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الذبائح ، والصيد ، باب المسك ، حديث رقم : ٥٥٣٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٤ .

(٣) عن النعمان بن بشير . ﷺ . عن النبي ﷺ . قال : " مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ... " رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الشركة ، باب هل يقرع القسمة والاستهام فيه ، حديث رقم : ٢٤٩٣ .

وكذلك كان البارودي يقبّح الرذائل والمساوئ من خلال العتاب ؛ فالعتاب كما هو معلوم لا يكون إلا في الأمور التي لا تُرضى ، والدين الإسلامي لا يرضى للناس المفسد ، والمضرات ، من هنا كان البارودي يعاتب الآخرين ليرضى دينه ، وشرعه الحنيف ، فلم يكن يعاتب إرضاءً لنفسه ، أو إرضاءً لبعض العادات ، والتقاليد ، فهو في معظم شعره العتابي يتجه اتجاهاً رفيعاً نحو المثل العليا ، والقيم الفاضلة كما جاء بها سيّد المرسلين . ﷺ ..

وعليه فإن البارودي عندما يعاتب فهو يحتجّ على الأمور التي تخالف النهج الديني في التعامل ، و ينتقد كل التصرفات ، والتوجهات التي تصبّ في مستنقع سوء الخلق ، فهو في الحقيقة ينتقد الخصال السيئة ، وهذا الانتقاد يقبّح تلك الرذائل ، والمساوئ ، وينقّر منها .

وأيضاً كان البارودي يقبّح الرذائل من خلال شكواه ، وتبرمه بأخلاق البعض السيئة ، وسلوكهم المشين ، وهى شكوى في طيّها نقد ، واستهجان تدعو . ضمناً . إلى هجر تلك الخصال ، والتخلي بنقائضها ، وشكوى البارودي ، وتضجره بالصفات التي لا تليق بالمسلم ^(١) إنما هي ثورة غاضبة تجاه الأخلاق الهدامة للأخلاق الإسلامية ، هو بذلك ينادي بالتمرد على الهوى ، وعصيان النفس الأمّارة بالسوء .

والبارودي يشكو كما يشكو غيره من الناس ، ولكننا نلمح قيماً أخلاقية ناصعة تلوح كما يلوح البرق في معصرات الغمام ، ونلمس نفساً تملؤها الفضائل ، وجميل الصفات كما تملأ البستان الأزاهير من ذوي العصف ، والريحان ، وشكوى البارودي نابعة من إحساسه بانحراف بعض الأفراد ، وانخراطهم فيما لا يليق ، وتحللهم من الأخلاق الطيبة ، فيسعى لأن يردّهم إلى حظيرة الفضيلة ملوّحاً بعصى زجره الغليظة ، والمؤلمة ، وهو يطيل في شكواه عندما يتناول المعاني التي يذمّها ^(٢) .

وكذلك اعتمد البارودي في تقبيح الرذائل ، والتنفير منها على الهجاء ، والبارودي عندما يهجو لا يفعل ذلك ليشفي غليله ، ولا ليحتقر الآخرين ، ولا ليزيع

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص : ٥٩ .

العيوب ، ويشهر بها ، ولا ليعتدي على الآخرين ظلماً ، وكذباً ، ولا ليفتري عليهم ما ليس فيهم من المكاره ، كما كان لا يعيب بالعيوب الخليفة ؛ كالعمى ، والعرج ، والعمور ، وقصر القامة ، ودمامة الوجه ، ونحوها مما يتندر بها كثير من شعراء الهجاء بل كان هجاؤه مثل الدواء يهاجم الأخلاق السرطانية الفاسدة ، والطبيعة الخبيثة ، وقد كان هجاؤه مثل الكي بالنار ، وكان يهجو ليزر الصفات المستهجنة في أشنع صورها ، و يفضّعها حتى يحذرها الآخرون ، وهو يبرز من يهجو نموذجاً سيئاً لا يصلح لأن يُقتدى به ^(١) ، بل يصلح لأن يُرمى به بعيداً ، وأحياناً يظهر المذموم في هيئة لا يرضاها أي شخص مسلم لنفسه ، وربما حملت المهجو أن يقلع عما هو فيه .

وكان البارودي في هجائه يركّز على الصفات التي ذمّها الإسلام ، وحذر منها ، وكان يثور ثورة عارمة على كل من يتمسك بأهداب القبائح ، ومن ناحية ثانية كان يذيع المكرّمات ، وصالح الخصال التي يجب أن يزدان بها المسلم ، و يتوشّح بها ، ويحذر من المفاصد التي لا يجدر بالمسلم إصاقها بنفسه .

وكان البارودي في هجائه يميل إلى التهكم بمن يهجوّه بطريقة تسترعي الانتباه ^(٢) بهدف النكاية ؛ لأجل الهداية ، ومن ذلك استهزاؤه ، وتهكمه بالشرك ، والمشرّكين ^(٣) على نحو ما فعله القرآن الكريم ؛ فالبارودي يمثّل ضلالهم ، وإخفاقهم تمثيلاً بشعاً يخزي وجه الشرك ، ويرغم أنف الكفر ، ويحمل المسلم

(١) في الأدب الحديث ٢١١/٣ .

(٢) المرجع السابق ٢٢٠/٣ .

(٣) شعراء خالدون ص : ٢٠٢ .

على عدم اتباع خطواتهم ، وورود حياضهم ، و مع ذلك فإن البارودي عفيف اللسان ، مهذب الطبع ، بعيد عن الانحطاط اللفظي ، والفحش لا تمتد أصابع خياله إلى إمعاء البديع ، وأشلاء جيفة البيان ، فيسلك في هجائه مسلكاً تربوياً مقبولاً ؛ فهجاؤه لا يخلو من النقد البناء ، والحكمة ، والموعظة ^(١) .

٥. تمجيد الفضلة :

إن الامتثال التام لما جاء به الشرع من المناهج التربوية التي تهذب الأخلاق لهي خير ، ولكن الدعوة إليها بعد الامتثال هي الأكثر فائدة ، والأعم نفعاً ، وكان البارودي يحقق أوامر الدين في نفسه ثم يفسح المجال للدعوة إليها .

والدين الإسلامي مظهر اجتماعي يشكّله الأفراد ، والدين الإسلامي دولة يشكّلها المجتمعات ؛ فالدين إذاً سلسلة ممتدة ، أو شبكة دقيقة متينة النسيج ، والتكوين ، وكلما اتسعت هذه الشبكة ، وكلما أحكمت حلقات هذه السلسلة قوي الدين ، وانتصر ، وانتشر ، والبارودي بتمجيده للفضيلة يمثل وجهاً مشرقاً للدين ، فهو في تمجيده للقيم الفاضلة لم يكن ذاتياً ، ولم تكن عاطفته منفصلة عن الجماعة ، فهو بتمجيده لتلك القيم السامية يمدّ الجماعة ، والأفراد بالقيم العليا .

والفضيلة في ذاتها زينة لصاحبها ، ولكنها صارت في هذا الزمان تحتاج لمن يروج لها ، ويبرزها في صورة يانعة يحببها إلى النفوس في خضم هذه الحياة المادية الطاغية التي تلاطمت فيها أمواج الحضارات ، والمفاهيم المستوردة التي طمّ سيلها . وللبارودي أساليبه في تمجيد الفضيلة هي :

أ. الفخر :

يفتخر البارودي بعدد من الخصال الكريمة ^(٢) التي دعا إليها الإسلام ، وهي قيم مثالية لو سادت المجتمعات لعاش الناس حياة طيبة تسودها الإلفة ، و

(١) شعراء خالدون ص : ١٤٦ .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٧٦ .

المحبة ، وهو من خلال فخره بتلك القيم و الشمائل الكريمة يسعى إلى تجسيدها في نفسه حتى يثبت للناس أن التحلي بها ممكن .

والتباهي بالصفات الخلقية ، والقيم الإسلامية عند البارودي هي من باب تزيينها ، فتعديد المآثر الأخلاقية ، وتجسيدها بصورة رائعة تجعل النفوس تميل إليها ، وتسعى لأن ترتقي إليها ، والحياة في حقيقتها صراع بين قيم الخير ، وقيم الشر ، وكل ما يشجع على الفضيلة داخل في مجال الدعوة إلى الله .

والقرآن الكريم عندما أراد أن يحبب إلينا الجنة ، ويرغبنا فيها جسد لنا نعيمها في عدد من الآيات حتى أن الكثيرين هجروا المعاصي ، وتطلعوا لدخولها ، والتمتع بما أعدّه الله لأوليائه فيها .

وفخر البارودي بما حباه الله به من نبيل الصفات ليس من باب التعالي ، أو الإعجاب بالنفس ، بل من باب الدعوة إليها عن طريق تزيينها ، وتجسيدها ، وإبرازها في أبهى صورها ، وأزهى أطرها ، ويرتقي بالمعاني التي يعبر عنها حتى تصير حلماً يطمح إليه كل من يسمعه ، والقيم العالية يجب إذاعتها وتحبيبها إلى النفوس . ومن الصفات التي يفخر بها البارودي التقوى ؛ والتقوى هو مقياس التفاضل كما أخبرنا به الصادق المصدوق . عليه السلام . ^(١) ، والإنسان لا يعلو على غيره إلا باتقاء الله فيما أمر ، ونهى ، وعليه فإن التزام المعروف ، والفضائل ، والفخر بها أمر حسن مختار ، وكل ذلك عبر نظرتة الواعية لدور الشعر في إبراز القيم ، والدعوة إليها .

والبارودي عندما يفتخر بتمسكه بالصفات النبيلة هو في الحقيقة يوضح لنا منهجه في الحياة ، ذلك المنهج القائم على أسس متينة من الشيم الرفيعة التي يرضاها الدين ، ويحث عليه .

(١) راجع كلام النبي . عليه السلام . لثابت بن قيس في كتاب : أسباب النزول للإمام أبي الحسن بن علي بن أحمد

الواحد ص : ٣٣٥ ، طبعة دار الحديث . القاهرة ، سنة ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م .

والصفات التي يفخر بها البارودي لها قيمة عظيمة فهو يجابه بها ادعاءات أهل الزيغ ، والهوى ، ومذاهبهم التي يزينون فيها الشهوات ؛ فالتمسك بدينه كالقابض على الجمر ، ومن هنا فالبارودي يفخر بتمسكه بالفروض الشرعية ، والواجبات الدينية .

وبعض القيم التي يذيعها في مفاخره تأتي استجابة لبعض التجارب الرائدة التي مرّ بها في مسيرة حياته ، واستجابة لما تمتلئ بها نفسه من الخلق الإسلامي النبيل ، كما نلاحظ أن كثيراً من هذه القيم التي يفخر بها تعالج أموراً مهمة في حياة الناس في العصر الحديث ، عصر الانطلاق ، والانفتاح على الأمم وثقافتها.

وكثير من فخار البارودي يأتي ليبهرن على قوة تمسكه بالفضائل ، وتشير كل الصفات ، والمواقف المرتبطة بها إلى أنه رجل أنضجته التجارب ، وصقلته الشدائد فهو في بعض المواقف التي اكتوى بها يخبر بأنّ الشدة ، والفجعة لا تخرجانه عن وقاره ، ولا توهنان حبال صبره ، وذلك ليقينه بأن الصبر قيمة إسلامية يحبها الله ، ويقول البارودي (١) :

صَبَرْتُ وَمَا بِالصَّبْرِ عَارٌّ عَلَى الْفَتَى إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَعَابٌ وَلَا نُكْرٌ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّبْرِ أَعْدَلُ شَاهِدٍ عَلَى كَرَمِ الْأَخْلَاقِ مَا حُمِدَ الصَّبْرُ

وفخر البارودي بالقيم الإسلامية ليست قاصرة على نفسه ، بل يفخر بما يشيع في قومه من خلال الإسلام النبيلة (٢) . فهو يخبرنا بأنّه ورث تلك الصفات عن آبائه ، وأسلافه ليدل على عراقته ، ورسوخ قدمه في هذا الصدد .

ومن العوامل التي حفزت البارودي إلى الفخر بالقيم السمحاء الثورة المحمومة التي كان يحس بها من قلة الأخيار ، وكثرة الأشرار ، وابتعاد الناس عن تعاليم الدين ، فهو يرى أنه من القلة التمسكة بدينها ، وبنهجها الإسلامي إذ يقول (٣) :

لَكِنِّي فِي زَمَانٍ عِشْتُ مُغْتَرِبًا فِي أَهْلِهِ حِينَ قَلَّتْ فِيهِ أَمْثَالِي

(١) ديوان البارودي ٨٢/٢ .

(٢) في الأدب الحديث ٢١٩/٣ . (٣) ديوان البارودي ١٠٠/٣ .

فهو يحيا بين الناس حياة العُزلة ، والاغتراب حين قلّ اشباهه ونظراؤه في التمسك بالدين .

ومن العوامل التي دفعت البارودي إلى الفخر بنفسه سماحة نفسه ؛ فهو حريص على أن يكون عند حسن ظنّ الآخرين به ، وهذا مما أهّله ؛ ليكون نبعا لا ينضب للقيم النبيلة تفيض بها نفسه فيسقي بفيضه القلوب القاحلة ، والأخلاق المجذبة فتورق من جديد .

ومن العوامل التي دفعته إلى الفخر أيضاً إحساسه بالواجب الديني الذي يمليه عليه شرعه الحنيف من الدعوة إلى الخير ، وتزيين الفضيلة بمختلف الأساليب ، والطرق .

وعليه فقد فخر البارودي ببعض القيم الإسلامية ^(١) ، ولم يكن في ذلك واهماً ، أو كاذباً فقد كان يعبر عن نفسه أصدق تعبير ، فشعره سجل حافل ، وشاهد صادق على حياته ، ومعظم تجاربه التي سجّلها في شعره تعبّر عن قلب عامر بالإيمان ، والفيوض الوجدانية الطيبة .

ب . المدح : وينقسم إلى قسمين :

١ . مدح عام للأفراد ، والأعيان والمشاهير .

رؤية الثمار ناضجة يانعة على غصونها أشهى ، وأجمل من السماع عنها ، وأقرّ للعين من رؤية قشورها ملقاة على قارعة الطريق ، وكذلك القيم الفاضلة تكون أروع ، وأشهى حينما تُرى مجسّمة في إنسان فاضل بصبغتها الزاهية ؛ فالبارودي عندما يمدح يرفع ممدوحه عالياً فيطلّ على الناس من غمام المكارم يتهادى في بساتين المحامد . فالمدح من أساليب البارودي في تمجيد الفضيلة ، والدعوة إليها ، فهو عندما يمدح شخصاً يبرز ما فيه من الخصال الحميدة التي تعبّر عن وجهه من وجوه الخير ، والمعروف ، ويكشفها للناس فإذا هي زاهية ، فتتعلق بها أبصارهم ، وتحديثهم بها أنفسهم .

والبارودي لم يمدح لأجل التكبُّب ، إذ لم يكن متملِّقاً متزلفاً ، بل كان يمدح ؛ ليمجِّد في ممدوحه الصفات الحميدة ، والقرآن الكريم مدح في المسلمين صفاتهم ، ومجِّدها فيهم ، وحثَّ عليها ، والبارودي عندما يمدح يعني بصفات ممدوحه الكريمة التي تستحق المدح بعيداً عن أعتاب الرياء ، والكذب ، فقد كان يمدح بدافع الإعجاب فهو يعشق في ممدوحه تمسكه بالخصال الكريمة التي تتفق وروح الإسلام .

والبارودي في مدائحه يغوص في أعماق ممدوحيه ، ويستخرج منهم خير ما فيهم دونما مبالغة ، أو تملُّق ، بل يمدح المرء بما يتحلى به من المكارم التي أمر الإسلام بها ، وزينها .

ومدح البارودي للشخصيات المرموقة لا تدخل في إطار القصيدة التقليدية بقدر ما تدخل في إطار القصيدة القائمة على التجربة الشخصية التي عاشها في محيطه الواقعي ، وفي أعماق نفسه .

٢ . مدح النبي ﷺ :

مدح النبي ﷺ . ، وبيان فضله من أبرز القيم الإسلامية ، وأجملها ، والقرآن الكريم جاء بالآيات البينات في مدح المصطفى ﷺ . ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ (٣) وغيرها من الآيات التي تشيد ، وترفع من مقام سيد المرسلين ، وتعلي من شأنه ، وقد تغنى العديد من الشعراء بمدحه ، وقد مدح البارودي نبينا العظيم ، وأشاد بهديه الكريم ، فنظم فيه القصائد ضمن بعضها سيرته العطرة (٤) ، ومعجزاته الباهرة ، وذلك لا ينبع إلا من نفس غارقة في حبه . ﷺ . . وحبَّ النبي . من القيم الإسلامية السامية التي لا تكتمل الإيمان من دونه ، قال النبي ﷺ : " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ ، وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ

(١) الشعر الحديث والمعاصر ص : ٧٢ . (٢) سورة القلم الآية : ٤ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٦ . (٤) شعراء خالدون ص : ١٩٥ .

أَجْمَعِينَ" ^(١) ، فالبارودي لم يغفل عن هذه القيمة العظيمة فمدحه ^(٢) ، وسكب فيض حبه في تلك القصائد التي نظمها فيه فجاءت نفثه ذكية عطر أريجها الوجود ^(٣) .

وقد ضمّن البارودي في قصائده حنينه إلى النبي ﷺ . ، واشتياقه لزيارته ، ويدعو ربه في هيام ووله أن ينال محبة النبي ﷺ . وله ملحمة مكونة من (٤٤٧) بيت سماها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) وهي ملحمة شعرية خالدة استقاها من ثقافته الدينية الواسعة ، وهي على منوال بردة الإمام البوصيري ^(٤) ، ولكنه خالف البردة من ناحية أنه اتبع في قصيدته سير الحوادث في حياة الرسول ﷺ . حسب ما جاء في سيرة ابن هشام ^(٥) .

وكذلك امتد حبّ البارودي ليشمل آل بيت النبي ﷺ . ؛ فمحبة آل بيت النبي ﷺ . ، ومدحهم واجب ، وهي داخلة في القيم الإسلامية الرفيعة ، فقد تناول البارودي آل بيت النبوة بالمدح ^(٦) .

ج . الأمر بالمعروف :

ومن أساليب البارودي في تمجيد الفضيلة الأمر بالمعروف الذي يشمل تزيين المعروف ، والحض عليه ، والدلالة على سماحته ، والتوسّع ، والإطالة في بيان الخصال ، والشمائل المرتبطة به ، والحثّ على المكارم في عمومها من

(١) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب حب النبي ﷺ . من الإيمان ، حديث رقم ١٤ .

(٢) في الأدب الحديث ٢٣١/٣ . (٣) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٩٣ .

(٤) هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجيّ الدولاسي البوصيري ، شاعر متصوف ، حسن الديباجة ، مليح المعاني ، مغربي الأصل ، من قبيلة الصناهجة .

ولد في قرية بوصير ، من أعمال بني سويف سنة ٦٠٨ هـ ، وتوفي في الإسكندرية سنة ٦٩٤ هـ ، وقيل سنة ٦٩٦ هـ ، وقبره بها مشهور يزار ، ومن أشهر شعره البردة ، والهمزية في مدح النبي ﷺ .

(٥) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، ولد بالبصرة ، وتلقّى علومه فيها ، ومن أشهر مؤلفاته السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام ، وله من المؤلفات (التيجان لمعرفة ملوك الزمان) وله مؤلفات في النحو ، وقيل إنه توفي سنة ٢١٣ هـ ، وقيل سنة ٢١٨ هـ .

(٦) ديوان البارودي ١٧٧/٤ .

مبادئ الدعوة الإسلامية التي عمّت أرجاء المعمورة ، وهو يعمل من خلال أمره بالمعروف على إيقاظ الهمم والتذكير .

د . الرثاء :

كذلك كان البارودي يمجّد الفضيلة ، ويزينها عن طريق مرثياته الخالدة الصادقة ، فقد كان يركّز في رثائه على محاسن الميّت ، ويظهر ما كان يتحلّى به المتوفّى من السمائل الإسلامية و يحضّ على اقتفاء أثره .

وتزيين الفضيلة ، والدعوة إليها ، والترغيب فيها في مثل هذه المناسبات تؤتي أكلها ، وهي أشبه ما يكون بطرق الحديد وهو ساخن ، والنفوس مهما قست قلوبها إلا أنّها تخشع لذكر الموت .

٦. الدعوة إلى التأمل ، وتقدير القيم الدينية :

يعمل البارودي من خلال شعره على تحقيق ، وامتنثال العديد من القيم الإسلامية التي تحتاج إلى مواقف معينة حددها الإسلام ، والإسلام أتى بكثير من المفاهيم ، والأفكار التي تقوم عليها حياة الإنسان ، وقد عمل صاحب الرسالة . ﷺ على ترسيخها .

ومن تلك المفاهيم حتمية الموت الذي يؤول إليه كل حي ، والبارودي كثيراً ما يتخذ من الأحداث التي تمرّ به مناسبات يؤكد بها تمسكه بتلك المفاهيم ، والتوسّع فيها فقد قال ^(١) عند ما مرّ بصحراء القرافة ^(٢) ورأى نسوة يبكين ، وينحن على هالك :

رَأَيْتُ بِصَحْرَاءِ الْقَرَاةِ نِسْوَةً نَوَازِعَ لَا يَأْوِينَ حُزْنًا إِلَى بَيْتٍ ^(٣)

يُنْحَنَ عَلَى مَيِّتٍ سَيَتَبَعْنَ إِثْرَهُ وَمِنْ عَجَبٍ مَيِّتٌ يَنْوُحُ عَلَى مَيِّتٍ

والبارودي هنا يقرر حقيقة هائلة قد تغفل عنه النفس وهي أن الموت مصير كل حيّ ، وكل حيّ هو ميت موتاً مؤجلاً ! .

(١) ديوان البارودي ٧٩/١ .

- (٢) القرافة : مقبرة عظيمة بمصر ، وبها قبر الإمام الشافعي - رحمه الله . ، ودفن فيها البارودي بعد وفاته .
(٣) نوازع : مشتاقة لدرجة الهيام .

ومن تلك المفاهيم ، والقيم الدينية التي يمثلها البارودي ، ويقررها مبدأ التسامح ، والعفو ، وكظم الغيظ ، والتجاوز عن المسيء ، وهذا يمثل الوجه المشرق للفرد المسلم ، وهذا هو البارودي يقول ^(١) لرجل اغتابه :

لَا أَجَازِيكَ بِالَّذِي خُضَّتْ فِيهِ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا أَمْضُكَ عَتَبًا ^(٢)

عَفَرَ اللَّهُ لِي إِذَا كَانَ صِدْقًا وَعَفَا اللَّهُ عَنْكَ إِنْ كَانَ كَذِبًا

فالبارودي هنا لا يردّ الإساءة بمثلها ، ولا يلوم البتة ، بل يسأل الله المغفرة له ، ولمن أساء إليه ، في عبارات تفيض تسامحاً ، وتتضح سماحة ، وهذا خلق عظيم ، وموقف نبيل يحض عليه الإسلام ، ويدعو البارودي إليه في هذا المجال .
ومن المفاهيم التي يقررها البارودي ، ويمثلها امتثالاً محموداً ، ذكر محاسن الميت . كما حض على ذلك الإسلام . ففي شعر الرثاء نجده يذكر بمحاسن من يرثيه بعيداً عن الرياء .

والإسلام في عمومته شعلة من المفاهيم ، والمبادئ الخالدة التي ترسي للمجتمعات أسس المعاملات ، وسبل التصرف في الابتلاءات ، والمواقف المتعددة التي تحيط بالإنسان ما دام حياً .

وكذلك كان البارودي يلفت إلى قدرة الله تعالى ، وعظيم صنعه من خلال وصف مشاهد الطبيعة ^(٣) التي تتطق بإبداع الخالق جلّ ، وعلا ، فصنع الله من دلائل وجود الله ، وقدرته ، وإبداعه ، وقد دعا الإسلام إلى التأمل فيما خلقه الله من النعم ، وما أبدعه من المخلوقات ، وإذا تأملناها بعين البصيرة وجدنا فيها حكماً عجيبةً ، وقدرة باهرة ، ومعجزات عظيمة قوية تقود الإنسان إلى عميق الإيمان بربه ، وبارئه ، والبارودي في بعض شعره ينحو هذا المنحى ، فيدعو إلى التأمل في خلق الله ، ويستعرض صوراً حيّة ، ومشاهد مائجة يراها الإنسان أمامه شاخصة حيّة .

(١) ديوان البارودي ٦٣/١ .

(٢) أمضك : أوجعك .

(٣) الشعر الحديث والمعاصر ص : ٧٣ .

والبارودي في دعوته إلى التأمل في الكون قد تأثر بالآيات القرآنية التي وردت فيها استعراض للمشاهد الدالة على قدرة الله ، ونتيجة لهذه النزعة الإسلامية الخالصة نراه مفكراً في الدهر وتقلباته ، وفي الأقدار وأحكامها ^(١) التي تجري على الناس ، فصاغ ذلك شعراً ، وألبسه حلّة زاهية من تصويره الفني ، وهذا من ناحية يدل على عميق تمسكه بالقيم الإسلامية .

وعليه فقد كان وصف البارودي لعناصر الطبيعة ، وإبراز النواحي الجمالية ^(٢) فيها بدافع إظهار قدرة الله تعالى على إيجاد هذه المخلوقات ، ونحسه يمزج شعوره بهذه العناصر حتى لكأننا نراه من خلال هذه المشاهد التي يستعرضها رافعاً كفيه إلى السماء مناجياً ربه مقراً بقدرته ، وعظيم سلطانه ، أو كأنه واقف في خشوع ، وصمت ، وذهول ، وحيرة تسيل دموع التقوى أمام جلال الله الظاهر في كل شيء .

٧. النزعة الروحية :

في شعر البارودي العديد من النفحات الإيمانية ، والنزعات الروحية التي هي في أصلها مجموعة من القيم الإيمانية ، ومن تلك النزعات الروحية :

أ . **الإنابة إلى الله** : والإنابة هي حصن المؤمن ، وريحانة إيمانه ، وأقوى الحبال التي تربطه بربه ، وهي صبغة الإيمان الظاهرة ، والباطنة ؛ فالسعيد من عرف ربه ، ولجأ إليه مستجيراً به طالباً عوناً ، وهدايته ، ومغفرته مع التأمل في الإجابة ، وتحقيق الرجاء ، وكذلك كان البارودي يذكر ربه في أحلك المواقف ، ولا تذهله الشدائد عن ذكر باريه ، وهو يعبر عن ذلك في كثير من النكبات التي تعرض لها .

ب . **الاعتراف بفضل الله** : الله على عباده نعم لا تُحصى ، وفضائل جمّة لا تُجحد ، والاعتراف بها يستوجب المزيد منها ، وهي من خصائص الإسلام ، ومن

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٥٢ .

(٢) الشعر الحديث والمعاصر ص : ٧٢ .

الأشياء التي يجب أن تستقرّ في نفس المؤمن ، وتمتزج بروحه فيرى فضل الله ، ورحمته في كل ما يصيبه من خير ، وشر يقول البارودي (١) :

بَلَّغْتُ مِنْ فَضْلِ رَبِّي مَا غَنَيْتُ بِهِ عَنْ كُلِّ قَارٍ مِنَ الْأَمْلَاقِ أَوْ بَادِي (٢)
فَمَا مَدَدْتُ يَدِي إِلَّا لِمَنْحِ يَدٍ وَلَا سَعَتْ قَدَمِي إِلَّا لِإِسْعَادٍ (٣)

فقلب البارودي عامر بالاعتراف بفضل الله ، وجزيل نعمه ، والمولى عز وجل أثنى على نفسه ، وهو يحب ذلك من عبده ، والبارودي لا يكتفي ببيان نعم الله ، وجزيل مثله ، وعطائه فحسب ، بل يردّ على أهل الزيف ، والهوى ، والفساد الذين يأتون بأقوال فلسفية يفتنون بها الناس عن دينهم ، فما أروع السخرية منهم ، وامتهان أقوالهم ، و تسفيه أحلامهم .

ج . حمد الله : حمد الله ، وشكره على نعمه من أكبر القيم الإسلامية التي دعا الإسلام إليها ، ونوّه بفضلها ، وألحّ على التمسك بها ، والتزامها ، والبارودي عندما يذكر نعم الله ، وفضله عليه يمزج ذلك كله بحمد الله على ما أولاه من الهبات ، وقد قال في ختام إحدى قصائده (٤) :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ الْغُلَا وَسَرَّ الْأَذَى عَنِّي فَأَبْصَرْتُ الْهُدَى

د . محاسبة النفس : محاسبة النفس أمر مهم في الإسلام ؛ فالإنسان عليه أن يعود إلى نفسه ، ويعاتبها على التقصير ، وعلى ما فرطت ، ويردعها عن الشر ، والغي ، وهي اللحظات التي يصحو فيها الضمير الإنساني ، فتكون تلك اللحظات هي لحظات صدق ، وصفاء مع النفس ، وهذا مطلوب ؛ لأن محاسبة النفس ، وحملها على الخير من أسس الصلاح الديني التي تقوم عليها الشخصية الإسلامية الحقّة ، فنجد في شعر البارودي العديد من التأملات الروحية التي يناجي فيها نفسه

(١) ديوان البارودي ١/١٧١ .

(٢) غنيت : اكتفيت به ، ولم أطلع لغيره . قار : كل ما يملكه الإنسان من المال ، والمتاع في القرى . بادي : كل ما يملكه الإنسان من المال ، والمتاع في البادية .

(٣) اليد : تطلق مجازاً على النعمة ، والاحسان ، وإسداء المعروف .

(٤) ديوان البارودي ٢٩/١

الأمارة بالسوء ، فيزجرها ، ويحملها على التحلي بالمحامد ، وقيم الدين الحنيف ، خاصة في المواقف التي لا يملك فيها سوى قلبه ، وقوة إيمانه .

ومحاسبة النفس لا تعدو أن تكون تعبيراً عن الخلجات النفسية ؛ والتعبير عنها ، والميول الروحية ، وتصوير ما يعتمل في النفس من صراع تدل على اهتمامات الشاعر ، وقضايا الوجدانية ، والفكرية ، فإن كانت همومه ، وما يعتمل في نفسه تصبّ في محيط الفضيلة فهي بلا شك تمثل قيماً إسلامية ، وإن كانت تصبّ في مستنقع الرذيلة فهي دون ريب تحارب الفكر الإسلامي ، ونجد أن هموم البارودي ، وصراعه النفسي يرتبط بمحاسبة النفس ، وحملها على الصواب ، ومن هنا يعدّ ما يصوره في هذه الناحية قيماً إسلامية هادفة.

هـ . الابتهالات : التذلل ، والابتهال إلى الله ، وإظهار الخضوع له وتسليم الأمر إليه من واجبات المسلم تجاه ربه ، ويجب أن تسود حركاته ، وسكناته ، وتسيطر على مشاعره ، وبها ينال رضا ربه ، ومحبته ، والبارودي كثيراً ما يناجي ربه جل وعلا مظهراً الضعف ، والخضوع ، ومن ذلك قوله ^(١) :

يَا مَنْ إِلَيْهِ الْوُجُوهُ خَاشِعَةٌ وَمَنْ عَلَيْهِ فِي الْكَوْنِ مُعْتَمِدِي ^(٢)

مَدَدْتُ كَفِّي إِلَيْكَ مَبْتَهلاً وَأَنْتَ حَسْبِي فَلَا تَرُدَّ يَدِي ^(٣)

ويتضمن الابتهال مدح الله ، والاعتراف بكونه الفرد الصمد ، المتصرف في أمور عباده ، بيده الأمر كله ؛ فالابتهال باب واسع يجمع كل فضيلة ، وهو دعامة متينة من دعائم الإيمان ، كما يتضمن الابتهال معاني الالتجاء إلى الله ، وتقويض الأمر إليه ، ورجاء رحمته ، وفي ذلك يقول البارودي ^(٤) :

(١) ديوان البارودي ٢١٧/١ .

(٢) خاشعة : خاضعة . معتمدي : اعتمادي . مبتهلاً : ضارعاً .

(٣) حسبي : يكفيني .

(٤) ديوان البارودي ١٥٣/٤ .

يَا رَبِّ إِنَّكَ ذُو مَنٍّ وَمَغْفِرَةٌ فَاسْتُرْ بِعَفْوِكَ زَلَاتِي وَعِصْيَانِي ^(١)

وَلَا تَكِلْنِي إِلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلِي فَإِنَّهُ سَبَبٌ يُفْضِي لِحَرَمَانِي ^(٢)

والبارودي كثيراً ما يقنت في شعره ، ويتضرع إلى ربه بالدعاء ^(٣) ، ويظهر الخضوع ، والامتثال ، والتسليم بمشيئته ، والرضا بقضائه ، وإظهار الفقر والحاجة إليه . وعليه فالابتغال إلى الله وسؤاله يمثل قيمة إسلامية أصيلة .

و . **الثناء على الله** : كان البارودي ينزه الله تعالى ^(٤) ويذكر صفاته ، وأسمائه الحسنی ، وآلائه الكبرى ، وما أروع أن يثني العبد على ربه ذاكراً له بكل ما يحبه من النعوت ، والصفات ، والتنزيه ، ولا أحد يستطيع أن يحسن ثناءً على الله كما أثنى هو على نفسه ، والثناء على الله يدخل في باب الذكر ، والدعاء ، وهي من أجلّ القيم الإسلامية .

ز . **الثقة بالله** : الوثوق برحمة الله ، وعفوه ، وعونه ، ولطفه هو المعين في كل الأحوال ، فبيده . تعالى . الخير ، والشر ، والنفع ، والضرر ، وهذه هي الأسس التي تقوم عليها النزعات الإيمانية الخالصة ، والبارودي يبدو واثقاً بربه معتمداً عليه إذ يقول ^(٥) :

وَأَنِّي . وَإِنْ طَالَ الْمِطَالُ . لَوَاثِقٌ بِرَحْمَةِ رَبِّي فَهُوَ ذُو الطَّوْلِ وَالْمَنِّ ^(٦)

والبارودي يخبرنا بأن العبد يجب عليه أن يعتمد على ربه في كل صغيرة وكبيرة ، وهامة ؛ فهو مفرج الكرب ، وكاشف المحن ، الرؤوف الرحيم بخلقه ، إذ يقول ^(٧) :

وَكُنْ وَاثِقاً بِاللَّهِ فِي كُلِّ مِحْنَةٍ فَاللَّهُ أَوْلَى بِالْعِبَادِ وَأَرْفَقُ

(١) المن : النعم الكثيرة العظيمة . الزلات : السقطات والخطايا .

(٢) يفضي : يقود ويؤدي .

(٣) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٢٢٠ .

(٤) شعراء خالدون ص : ٢٠٢ .

(٥) ديوان البارودي ٢٤/٤ .

(٦) المطال : المماثلة . الطول : العطاء الجم . المن : النعم المتعددة الكثيرة .

(٧) ديوان البارودي ٣١٣/٢ .

والثقة بالله من أبرز القيم الإسلامية التي يجب أن تستقرّ في نفس المؤمن ، وتسكن قلبه ، حيث تحمل في طياتها قيمة التأمل في رحمة الله ، وحسن الظن به ، ونرى هذه القيمة تبرز بجلاء في ساعات الضعف التي تلم بالشاعر من جزاء الخطوب ^(١) وصولات الدهر ، ووقائعه .

ح . التسليم بقضاء الله : الاستسلام لله ، والتوكل عليه من دعائم الإيمان ، والحبل المتين الذي يصل العبد بربه ، ونجد هذا المعنى في أذيال كثير من قصائد البارودي ، وذلك يرجع إلى النكبات التي مُني بها الشاعر ، وكانت نفسه مخضرةً بالإيمان ، والرضا بقضاء الله ، ومن ذلك قوله ^(٢) :

أَسَلَمْتُ نَفْسِي لِمَوْلَى لَا يَخِيبُ لَهُ رَاجٍ عَلَى الدَّهْرِ وَالْمَوْلَى هُوَ الْوَاقِي

فنرى البارودي في بعض شعره يبرز هذه الناحية ، فنراه راضياً مستسلماً لمشئئة الله ^(٣) دون تبرم ، أو تنغيص ، مهما عظمت عليه الخطوب .

ط . الصبر : الصبر على بلاء الله . خيره ، وشره . من أركان الإيمان ، وهي قيمة مثالية ، وقد بشر الله تعالى الصابرين من عباده حين قال : ﴿ ... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ ^(٤) ، وعلاقة البارودي بالصبر علاقة طويلة قواها في نفسه ما تعرّض له من الفجائع في فقد الأهل ، والأحباب ، وما تكالبت عليه من الهموم ، والشدائد ، وظلم الآخرين ، ونسمعه يقول ^(٥) :

إِذَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ حَتْمًا مُّقَدَّرًا فَمَاذَا يُفِيدُ الْحِرْصُ وَالْأَمْرُ وَاقِعٌ؟

(١) شعراء خالدون ص : ٣٢٦ .

(٢) ديوان البارودي ٢٨٩/٢ .

(٣) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٧٧ .

(٤) سورة البقرة الآية : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٥) ديوان البارودي ٢٠٣/٢ .

٨. الموعظة :

الموعظة ضرب من الذكرى ؛ والذكرى تنفع المؤمنين ، وهو جلاء القلوب ، ومزيل الغشاوة عن العيون ، وبها يستمر الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الصالحات .

والموعظة من أبلغ أساليب الدعوة الإسلامية . والشعر من الفنون الأدبية المحببة إلى النفوس ، وقد أدى الشعر دوره العظيم في الإسلام منذ فجر الدعوة الإسلامية ، والبارودي أخضع الشعر في هذا العصر أيضاً لخدمة الدين ، وتهذيب النفوس . فالإنسان قد تستغرقه هموم الحياة ، ومشاغها فينصرف إلى العمل ، والتشاغل ، وينسى أموراً مهمة مثل الموت ، وأن الأقسام بيد الله ، وأن الأمراض ، والأسقام تتحكم في مصائر الناس وطموحهم ، ومن هنا تأتي الموعظة كالماء في وسط الصحراء ، أو كطوق نجاة في عرض البحر .

وشعر البارودي يمتلأ بالموعظة البليغة التي تتغلغل في حياة الناس اليومية ، وما تطرأ عليهم من مشكلات ، خاصة في هذا الزمان الذي التبست فيه الأمور ، و تشاكلت الأشياء ، وتأثر الكثيرون بالأفكار المستوردة التي تدخل في الدين ما ليس منه ، وتزيّن للناس المعصية بوسائل مبتكرة تتطوي على المكر ، والدهاء ، ومن هنا فإنّ الموعظة التي يقدمها البارودي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقيم التربوية للإسلام ؛ فهو يركّز على النواحي الاجتماعية المتعلقة بعلاقات الناس مع بعضهم البعض ، فمثلاً نجده يحذّر من الغيبة ، والنميمة ، وأقوال الوشاة ، ويوضح أن كل ذلك من الأمراض النفسية التي تضر بصاحبها ، وبالناس فهو يحارب هذه الآفات ، والمفسدات ، ويعمل على استئصالها ؛ فالإسلام عندما دعا إلى الحب ، والوئام ، والتعارف ليصير المجتمع المسلم متماسكاً يشدّ بعضه بعضاً و نهى عن عوامل التفرقة مثل الغيبة ، والوشاية .

والبارودي في مواعظة يقدّم الحقائق الدينية المتعلقة بحياة الإنسان ، ومصيره ، ومآله ، ويقدم حقائقه في هذا المجال في صيغ تقريرية مباشرة عارية من الزخرف ،

والتموهيات ، و لذا فهي تستقر في النفوس بكل سهولة ، ويسر ، وهو في موعظته
يكثر من تذكير الناس بأمرين لهما عظيم الأثر في النجاة يوم القيامة ، والفوز برضا
الله في الدنيا وهما :

١. الغاية من خلق الإنسان ، وهي عبادة الله وحده ، وامتنال حدوده .
 ٢. مصير الإنسان المحتوم ، وهو الموت الذي يفّر منه ، وهو ملاقيه .
- فهذان الأمران لهما تأثيرهما الكبير في النفوس ، وتحملان النفوس . طوعاً ،
أو كرهاً . على الرجوع إلى الحق ، والتفكير في المصير ، والمآل ، وما يكون عليه
الحال بعد الموت مثل تصوير خروج الروح عن الجسد ، وذهابه إلى بارئته ^(١) .
والإنسان إن وعى دوره في الحياة ، وخاف الآخر ، واستعد للموت ، والتزم
الصالحات ، وعمل لما بعد الموت لزحزح عن النار .

ومن أساليب البارودي في الموعظة أنه يجعل من نفسه نموذجاً يتناول من
خلاله معنى معيناً ، ثم يعممه على جميع الناس ، فيهيئ في كل أودية ذلك المعنى ،
فيأتي مواعظاً ممزوجة بالحكمة التي تمس جوهر الحقيقة الإنسانية ، مما يجعل
لمواعظه تأثيراً خاصاً ترقى بها إلى قمة الدعوة إلى الفضائل ، فقد كانت بعض
قصائده أشبه بخطب دينية ^(٢) على منابر المساجد ، فيأخذ الناس على أجنحة
الهداية ، وذلك لسهولة ألفاظه المنتقاة ، ووضوح معانيه ، وسلاسة نظمه ، وثقافته
الواعية ، فهو في مواعظه ينقل صوراً صادقة لوقائع الناس مع الزمان ، ولخبايا
النفوس ، وطبائعها ، ويهدف من ذلك إلى حمل الناس على استقاء العظة ، والعبرة
، واكتساب التجارب الجديدة المفيدة .

ومن أساليبه في الموعظة الدعوة إلى التأمل فيما مضى من آثار الماضيين ،
وفي ذلك أكبر باعث على الاعتبار ، وهذا من أساليب القرآن الكريم ، فكثيراً ما كان
يدعو إلى التأمل ، والتدبر فيما حاق بالأمم السالفة من الموت ، والاندثار ، وما حلّ
بهم من العذاب ، والنقمات بسبب المعصية .

(١) ديوان البارودي ١٠٧/١ .

(٢) المرجع السابق ٧٠/١ .

ومن أساليبه كذلك أنه يخاطب نفسه ، ويسوق الكلام على سبيل المناقشة الموضوعية ليقدم من خلالها الحكمة ، والموعظة الحسنة ، وأحياناً يخاطب فئة لا يعينها ، ولا يحددها ، ويتخذ منهم مادة للموعظة ، ثم يوجهها إلى الجميع ، وهذا أسلوب بليغ مؤثر .

ومن هنا امتزجت مواعظ البارودي بكؤوس الحكمة التي تجعل من الموعظة سهماً يستقر في القلب إلا إذا كان القلب في أكنة ، أو عليه غطاء .

وقد ارتبطت بعض مواعظ البارودي ببعض الحوادث ، والمواقف المؤثرة في حياته فاتخذ منها معبراً ليدعو الناس إلى الاعتبار ، وقدّم عبرها العظة ، والعبرة ذات الأبعاد الإسلامية ، ودعاهم إلى التأمل ، والتدبر . وقد ارتبطت الموعظة في شعر البارودي ببعض المناسبات مثل الرثاء حيث يتخذ منه مدخلاً للموعظة ، ويستمد من لوعة الحزن ، والأسى ، والفجعة عوامل تعينه على تبليغ أفكاره .

وما أبلغ العظة ! عندما تأتي في أعقاب الأحداث المرتبطة بالنواحي الفكرية للموعظة ، والبارودي . كما أوضحنا . يتخذ من المناسبات ذات الصلة معبراً يصل بها إلى عميق المعاني في الموعظة ، وهذا يخرجها من نطاق شاعر المناسبات الوقتية إلى رحاب الشاعر الديني الاجتماعي الذي يحرص على ما ينفع الناس ، ويعمل على إذاعة قيم التذكير بالله عبر نظراته الصادقة ، ونفسه التي تملؤها حب الخير للإنسانية جمعاء فقد كان يعرض عدداً من المشاهد ، والتأملات الدالة على المعنى الذي يريده ، ويستطيع الآخرون أن يستخلصوا منها العبر .

ونافلة القول أن البارودي هو رائد النهضة الأدبية الحديثة ، تلك النهضة المباركة الذي كان الدين ، والتربية الأخلاقية إحدى دعائمها ، وكثيراً ما كان البارودي يلقي بقميص موعظته على وجه الغافل الضال فيأتي بصيراً .

٩ . الحكمة :

الحكمة ضالة المؤمن ، وخير الحكمة ما دلت على الصالحات ، وما حثت على فضائل ، والبارودي يطلق حكماً لا تطيش عن الواقع فهو ينزع عن قوس التجارب ، وفي كنانته العديد من الحقائق .

والحكمة ميزان العقل ، وعصارة التجربة ، وهي خير الزاد ، وهي هبة من الله يؤتيها من يشاء ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١) . والحكمة التي تخدم مقاصد الإسلام ، وشريعته ، وتسهم في تربية النفوس هي التي ترفع من قدر الشعر ، والشاعر ، ولم يكن البارودي ليبخل بنتائج خبرته الطويلة في الحياة . فهو مهياً لأن يكون واعظاً دينياً عبر شعره ، فالموعظة تتطلب الخبرة في الحياة ، والمعرفة بحدود الشرع من أوامر ، ونواهٍ ، والإلمام بما تعانيه المجتمعات من العلل ، وفوق كل ذلك تتطلب الحكمة ، وكان البارودي حكيماً حقاً ، تمرّس بالآفاق حتى تركها تقول : أمات الموت أم دعر الذعر ، وهو القائل (٢) :

حَلَبْتُ أَشْطَرُ هَذَا الدَّهْرِ تَجَرِبَةً وَذُقْتُ مَا فِيهِ مِنْ صَابٍ وَمِنْ عَسَلٍ (٣)

وهو هنا يهيئنا لتقبل الحكمة منه ، وهذه الخبرة قمينة بذلك ، ويقول في موضع آخر (٤) :

فَأَقْبَلْ وَصَاتِي وَلَا تَصْرِفْكَ لَاغِيَةً عَنِّي فَمَا كُلُّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثُعَلٍ (٥)

والبارودي بحق شاعر صقلته التجارب (٦) ، ومَرَّ خلال حياته الحافلة بالعديد من المواقف فاستخلص منها العظات ، والعبر ، وعبر عنها في حكم صاغها شعراً ، وقدمها للناس في قوالب شتى ، كما استفاد من ثقافته الدينية الواسعة ، واطلاعه المتواصل في التراث الأدبي القديم ، وتأثر بالشاعرين

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٩ .

(٢) ديوان البارودي ١٥/٣ .

(٣) صاب : عصارة شجرة مرة .

(٤) ديوان البارودي ١٣/٣ .

(٥) ثُعَل : هو ثُعَل بن عمرو بن الغوث ، هو جدّ جاهلي من طي ، اشتهر أبناؤه بإجادة الرمي ، ودقة التصويب ، وإصابة الرمي .

(٦) الشعر العربي الحديث ، والمعاصر ص : ٧٥ .

الحكيمين : أبي تمام ^(١) ، والمتنبي ^(٢) ، وبهذا فهو شاعر الإنسانية ، وشاعر الإسلام الذي ضرب بسهام شعره في كل المعاني السامية التي تهّم الإنسان ، وتخدم البشرية ، وللبارودي حكماً كثيرة صائبة منتشرة في شعره ، وهي في مجملها دعوة إلى المكارم ، والمحامد ، وخلق الإسلامي ، وهو القائل ^(٣) :

إِنَّ فِي الْحِكْمَةِ الْبَلِيغَةِ لِلرُّوحِ غِذَاءً كَالطَّبِّ لِلْأَجْسَادِ

والبارودي لا يطلق الحكمة مجردة من التجارب ^(٤) ، والمواقف التي يعرض البارودي الحكمة في أثنائها تعين على التسليم بمضمون الحكمة ، ويسهل على الإنسان الاستفادة من الناحية الفكرية لها في المواقف المتشابهة ، فمزج الحكمة بالتجربة تمنح الفكرة قوة ، وقبولاً ، ودلالة ، وتأثيراً ؛ فالحكمة التي تدعو إلى الفضيلة ، وترشد إلى الخير هي ضالة المؤمن ، وهي من كنوز القول ، والحكمة الإسلامية في حقيقتها تشتمل على قدر كبير من القيم ، والشيم ، وهي في المقابل تحتاج من الشاعر إلى قدر كبير من الثقافة ، والتجربة ، والنظرة الثاقبة ، والتعبير المحكم .

ولعل أهم ما يميز الحكمة عند البارودي أنها صادقة ، تعبر عن تجارب حقيقية عاشها الشاعر ^(٥) فصورها للناس حتى يستفيدوا من تلك التجارب ، والمواقف ؛ فحياة الناس متشابهة ، وكأسا الأفراح ، والأحزان تدوران على الجميع ، والشاعر الحكيم أشبه ما يكون بالطبيب الذي يداوي بالقيم الإسلامية أمراض النفوس ، وحكم البارودي مرتبطة بحياة الناس ، فهي تلائم حياة العصر ، وأحداث الدهر ، فتأتي لتنشيط النفوس ، وإيقاظ الهمم النائمة ، وتنبيه الخواطر

الفاترة ، فالحكم عند البارودي هي في الأساس جرعات تعليمية ، ومنارات تربية ، تأخذ الإنسان على الدرب الصحيح ، وتقومه على ما يرضى الله .

وقد أكثر البارودي من الحكمة في شعره ، ولكن معانيه في هذا المجال غير مبتكرة ، فقد سبقه إليها الأقدمون ، ولكنه صاغها صياغة جديدة ، وبأسلوب يلائم روح العصر ، وطوعها لخدمة أغراض سامية ^(١) . فأبياته في الحكمة أشبه ما تكون بتوجيهات صادرة من معلم إلى تلاميذه ، فهو يرسم للناس منهاج الهدى ، وطريق الرشاد ، وسبيله ، فهو يدعو إلى حسن الظن ، والتفكير في عواقب الأمور ، وغيرها من المعاني الرفيعة ، ولكن الحكمة في شعر البارودي لم يكن تقليداً ، وإن اتحد في المعنى ، والفكرة مع غيره ، فحكيمته ناشئة عن تجارب واقعية ، وامتزج بها ^(٢) ، وعبر عنها أصدق تعبير ، وهو بذلك يستمد من محيط حياته الخبرة ، وهو القائل ^(٣) :

أَنَا الَّذِي عَرَفَ الْأَيَّامَ وَانْكَشَفَتْ لَهُ سَرَائِرُهَا مِنْ كُلِّ مُخْتَرَنٍ
طُفْتُ الْبِلَادَ وَجَرَّبْتُ الْعِبَادَ فَلَمْ أُرْكَنْ لِخَلٍّ وَلَمْ أَجْنَحْ إِلَى سَكَنٍ ^(٤)

فالبارودي في حكمه مجدد، وهو الذي جدد مضامين الشعر ، وبعث الأدب ، وعاش حتى خبر الدهر ، وحلب أشطره ^(٥) :

حَلَبْتُ شَطْرِيهِ : مِنْ يُسْرِ وَمَعْسَرَةٍ وَذُقْتُ طَعْمِيهِ : مِنْ خِصْبٍ وَ إِمْحَالٍ ^(٦)

(١) في الأدب الحديث ٢٣٣/٣ .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٤٩ ، ٧٦ .

(٣) ديوان البارودي ٧٩/٤ .

(٤) أركان : اطمئن . الخل : الصديق المخال . أجنح : أميل .

(٥) ديوان البارودي ١٠٠/٣ .

(٦) حلبت أشطره : جريت أموره . الإمحال : الجذب ، والافقار ، وانقطاع الأمطار .

ووصف البارودي الخمر ، وتحدث عن مجالسها ، وتناول الغزل ، وعبر عن العشق ، والهوى ، وهذا لا ينتقص من تمسكه بالقيم الإسلامية ، فهو في حديثه عن الخمر لم يكن خليعاً ، ماجناً ، داعراً ، بل تحدث عنها كفارس ، وبطل وقور ، أو محاكاة للأقدمين ، فهو يربط حديثه عن الخمر بتناوله للعشق ، والبطولة ، وكريم الخصال ، ومن هنا كان وصف الخمر ، ومجالسها في شعره من باب إيراد الصورة الشعرية التي تبرزه فارساً عربياً قديماً بكل صفاته ، وسلوكه ، وهي الصورة التي طالما داعبت خياله ، وتمثلها في نفسه بجزئياتها ، و رآها تتحقق في أرض الواقع ، فحقق شرب الخمر في شعره لتكتمل له الصورة التي أرادها لنفسه ، وليس لأجل تزيين شربها ، وتعاطيها للناس كما كان يفعل أبو نواس ^(١) الخبيث ، و من هم على شاكلته .

فهو مع رفاقه من الشباب ملتزمون بحدود العفة ، والأدب ، مترفعون عن الشوائب ، و هو القائل ^(٢) :

شَارَفْتُ سَاحَتَهَا فِي فِتْيَةِ الْفَوَا صِدْقَ الْوَدَادِ فَلَمْ تَعْرِضْ لَهُمْ شُبَّةً ^(٣)
مُوقَّرُونَ كِرَامٌ لَا يَخِفُّ بِهِمْ طَيْشٌ وَلَمْ يَجْرِ فِي أَخْلَاقِهِمْ سَفَهٌ ^(٤)

أما غزله فلم يكن فاحشاً يمسّ الذوق ، أو يخدش الأدب ، بل كان غزله ، وتشبيهه سامياً ، عفيفاً ؛ فهو يتناول الغزل تقليداً لفرسان العرب الذين مزجوا بين الغزل ، والحماسة ، وهو من هذه الناحية يتغزل ارضاءً لنزعتة الأدبية ، وإشباعاً لموهبته الفنية .

(١) هو : الحسن بن هانئ ، وأبو نواس كنيته ، ولد سنة ١٣٦ هـ تقريباً ، ونشأ بالبصرة ، وقرأ القرآن ، وكان شاعراً فصيحاً ، ماجناً ، متهتكاً ، داعراً ، وقيل توفي سنة ١٩٥ هـ .

(٢) ديوان البارودي ١٧٥/٤ .

(٣) شارفت : دنوت ، واقتربت . الشبه : الاختلاط والالتباس ، وقد يكون بمعنى الريب ، والشك .

(٤) موقَّرون : معظمون ، مبدلون . يخف : يصير أحرق . الطيش : الجهل ، والسفه .

والبارودي في غزله لا يتعارض مع تمسكه بالقيم الدينية ؛ فالغزل ، والخمر عنده أدوات ، ووسائل يعبر بها عن عواطف ، ومضامين بطريقة رمزية أقرب إلى طريقة الصوفيين ، والدلالات الحقيقية لخمرياته ، وغزله تستمد دلالاتها ، وجوهر معانيها من التجربة المحورية للقصيدة ، فكثيراً ما يكون الغزل ، أو الخمر مقدمة للفخر ، أو لإصدار حكم يفيد التربية الأخلاقية .

❖ أثر القيم الإسلامية في شعره :

للقيم الإسلامية التي تناولها البارودي آثار واضحة في شعره أهمها :

- ١- منح شعره قيمة إضافية تحسب لصالح التيار الديني ، فهو في نهضته الأدبية الحديثة لم يغفل هذه الناحية الحيوية المرتبطة بحياة الناس .
- ٢- سلامة التعبير وسلاسته ، وقوة المعاني ، ورشاقة الألفاظ هي من خصائص التعبير القرآني ، وقد تأثر البارودي بالقرآن العظيم ، واقتبس من معانيه ، وأساليبه فانعكس ذلك على شعره عموماً ، ولكن أثر ذلك على شعره الإسلامي أوضح لارتباط المعاني الدينية بمنابعها .
- ٣- تناول الشامل للقيم الإسلامية المختلفة جعل شعر البارودي حافلاً بالأغراض الشعرية المتعددة ، فلم يعد شعره قاصراً على الأغراض التقليدية للشعر العربي ، فهو لم يتناول المعاني الدينية تناولاً باهتاً ، أو من قبيل المصادفة ، وإنما تناولها تناولاً عميقاً حتى يصلح أن نعتبره قسماً قائماً بذاته لولا امتزاجها بغيرها من الأغراض.
- ٤- المناسبات الحقيقية ، والمواقف الواقعية التي ارتبطت بتناوله للقيم الإسلامية المختلفة منحت شعره قدراً من الصدق ، والتأثير ، فقد كانت المناسبات تشفع للمعاني كمن يعطي الحقيقة ، وفي طيها الدليل .
- ٥- جعلت من شعره صورة روحية حيّة للشاعر ، وشاهداً أميناً على ما يدور في دواخله ، فعكس لنا النزعة الإيمانية للشاعر ، كما عكس لنا مقدار ثقافته ، وحبه للناس ، وسعيه المحمود لمنفعتهم ، وهدايتهم .

الفصل الثاني : النصوص الشعرية ، وتحليلها .

١. شعر الزهد .
- ٢ . شعر الثناء على الله .
- ٣ . شعر التأمل والموعظة .
٤. شعر الحكمة .
٥. شعر المواقف الروحية .
- ٦ . شعر النصيح والإرشاد .
- ٧ . مدح النبي صلى الله عليه وسلم .
- ٨ . شعر تقبيح الرذائل .

❖ النصوص الشعرية ، وتحليلها

كانت نفس البارودي تظلّها غمامة الإيمان ، تتفجّر شاعريته بينابيع القيم الإسلامية العذبة ، تكاد كلما هزرت قصيدة من قصائده تتساقط عليك رطباً من معاني الصلاح ، والهداية جنيّاً .

فشعر البارودي في هذه الناحية مزادنة بالمعاني ، وبالمبادئ الإسلامية النضرة التي منحت شعره جمالاً ، وقيمة حقيقية ، ونحاول في هذا المضمون تحليل بعض النصوص الشعرية لتوضيح تلك القيم الخالدة .

١ . شعر الزهد :

قال البارودي (١) :

- وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ لَيْسَ بِخَالِدٍ وَالْدَّهْرُ فِيهِ صِحَّةٌ وَسَقَامٌ (٢)
يَهْوِي الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ دُونَ الشَّغَافِ عِقَامٌ (٣)
فَاطْمَحْ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ ؟ وَهَلْ لَابِنِ السَّبِيلِ مُقَامٌ ؟ (٤)
صَغُرَى الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النَّعِيمِ وَهَذِهِ الْأَهْرَامُ (٥)
لَا شَيْءَ يَبْقَى غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِي الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَحْلَامُ (٦)
وَلَقَدْ تَبَيَّنَتْ الْأُمُورَ بَغِيرَهَا وَأَتَى عَلَى النَّقْصِ وَالْإِبْرَامُ (٧)
فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرَّكَ وَإِذَا الْخُمُودُ م تَلْهَبُ وَإِذَا السُّكُوتُ كَلَامٌ (٨)

(١) ديوان البارودي ٣/ ٣٢٦ .

(٢) الدهر : مدة الحياة . الصحة والسقام : المراد بهما تبدل الأحوال ، وتغيرها .

(٣) الشغاف : غلاف القلب . عقام : داء عضال لا طب له ولا برء منه ، ولا أمل في شفاؤه .

(٤) اطمح : مد بصرك ، وانظر باهتمام . ابن السبيل : هو الإنسان ، فقد شبه الحياة بطريق .

(٥) صغرى المدائن ، والاهرام : المراد بها أشكال العمار الذي أنشأه الناس صغيرها ، كبيرها .

(٦) تنكل : تعجز ، وتضعف . الأحلام : العقول .

(٧) الأمور : شؤون الحياة . النقص : إفساد العمل بعد التعب فيه . الإبرام : أبرم الشيء إذا فعله .

(٨) الخمود : سكون لهب النار ، ولم يطفئ جمرها . تلهب : انتقاد النار ، وارتفاع لهبها .

- وَإِذَا الْحَيَاةُ . وَلَا حَيَاةَ . مَنِيَّةٌ تَحْيَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهِيَ رِمَامٌ ^(١)
 هَذَا يَحُلُّ ، وَذَاكَ يَرْحَلُ كَارِهَاً عَنْهُ : فَصُلِّحْ تَارَةً وَخِصَامٌ ^(٢)
 فَالْنُّورُ . لَوْ بَيَّنْتَ أَمْرَكَ . ظُلْمَةً وَالْبَدْءُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ . خِتَامٌ ^(٣)

يقول البارودي : اعلم أنه لا سبيل إلى خلود الإنسان في هذه الحياة ، فالموت مصيره المحتوم ، وأحواله متغيرة بين الصحة ، والعلة ، وبين القوة ، والضعف . والإنسان بطبعه يشتهي طول الحياة ، وامتداد العمر ، ولكنه لو تدبّر المصير لعلم أنه يشتهي ما يضره ، ويرجو ما يؤذيه ، فطول العمر يجلب الآلام ، والضعف ، والنكبات ، وربما يحصد من خلالها المزيد من الذنوب ، والخطايا . ثم يوجه النظر للتأمل في أحوال الحياة والناس ، حيث يدرك أن الإنسان مثل عابر السبيل في قصر عمره ، وانطواء حياته ، فكل الذين عاشوا من قبل قد هلكوا ، وبادوا ، فكل المدن ، والأمصار ، والقرى ، والاهرامات الضخمة قد مات أصحابها ، وساكنوها ، ومنشئوها ، وطوتهم يد الفناء ، وهذه إشارة إلى معنى عدم الخلود ، وإشارة إلى كثرة الذين أكلتهم الأرض بعد أن قضى عليهم الموت فتركوا ما شادوا ، وما عمروا . وكل هذا العالم سيفنى ، ومصير الخلق إلى الزوال ، والاضمحلال . والشواهد الدالة على ذلك كثيرة .

ويبرز الشاعر نفسه نموذجاً حياً لمن خبر حقائق الحياة ، وعمل للاستعداد للآخرة ، وما يبدو من سكون الدهر ، ومسالمتة هي في الحقيقة استعداد للوثبة ، والبطش ، وتحت خمود الدهر نيران تلتهب ، وتتقد بالكوارث ، والفجائع ، وفي سكوته نطق بالموعظة ، والعبرة . ونهاية الحياة لا بدّ منها ، والموت لا شك فيه ؛ فالحياة قصيرة تافهة متصلة بالموت تفقدنا إليها دون أن ندرك ذلك . وقد جمع الدهر بين النقائص فيفرحنا بالمولود الجديد ، ويحزننا بموت الآخرين .

(١) المنية : الموت . الرِمام : بقايا الأجساد في القبور .

(٢) صلح الدهر وخصامه : المراد به تبدل أحواله بين النعيم ، والشقاء .

(٣) بينت أمرك : أوضحت ، وأظهرته ، وعرفت حقيقة أمرك .

ونور الحياة ظلمة لأنه لا يلبث أن يطفئ ، ويعقبه الأسى ، والحسرات ، والوجود فيه عدم لأن الموت يعقبه ، وبدء لحياة هي ختامها لقصر المسافة بينهما ، ولشدة اتصال الموت بالحياة .

يتناول البارودي في الأبيات السابقة ما يحيط بالإنسان من ظواهر الوجود ، وأسباب الفناء ، والنهاية المحتومة لكل حي من المخلوقات ، وبصر الغافلين وغيرهم بتفاهة الدنيا ، وخداها قال الله تعالى : ﴿...وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١) . ورسم للحياة صورة قاتمة مليئة بالمشاهد المفزعة التي تثير في النفوس الخوف ، والرجاء ، وهدف البارودي من ذلك ترغيب الناس في الزهد في هذه الحياة الدنيا الفانية ، وتنفيرهم من الانسياق خلف الملذات ، والسعي وراء متع العيش ، وحملهم على الاستعداد للموت ، ولقاء الجبار سبحانه ، وتعالى ، ونلاحظ هنا أن أسلوبه رادع ، وناجع يصلح تماماً لمحاربة غرور النفوس ، وضلالها .

كان البارودي يتخذ من بعض المناسبات معبراً ليدعو إلى الزهد ، ومن ذلك عند ما ورد إليه نعي والدته (٢) قال (٣) :

وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا رَأَى مَا يَسْرُهُ مِنْ الْعَيْشِ هَمًّا يَتْرُكُ الشُّهْدَ عَلَقَمًا (٤)
وَأَيُّ نَعِيمٍ فِي حَيَاةٍ وَرَاءَهَا مَصَائِبُ لَوْ حَلَّتْ بِنَجْمٍ لِأَظْلَمًا (٥)
إِذَا كَانَ عُقْبَى كُلِّ حَيٍّ مَنِيَّةً فَسَيَّانٍ مَنْ حَلَّ الْوَهَادَ وَمَنْ سَمَا (٦)
وَمِنْ عَجَبٍ أَنَا نَرَى الْحَقَّ جَهْرَةً وَنَلْهُو كَأَنَّا لَا نُحَاذِرُ مَنَدَمًا (٧)

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٥ .

(٢) ورد إليه نعي أمه ، وهو في حرب الثورة العراقية سنة ١٨٨٢ م ، ، و كان البارودي من قادة الثورة العراقية ، الموقدين نارها ، الضارين في غمارها .

(٣) ديوان البارودي ٣/ ٣٩٤ .

(٤) الشهد : غسل النحل ما دام لم يعصر من شمعه . العلقم : الحنظل ، وهو نبات كالبطيخ مر الطعم .

(٥) البيت كله كناية عن شدة مصائب الدنيا ، ونكارتها .

(٦) الوهاد : جمع وهدة ، وهي : الأرض المنخفضة . سيان : مثان متساويان .

(٧) الحق : الموت . جهرة : عياناً . نحاذر : نحذر . مندم : الندم ، والأسف .

- يَوَدُّ الْفَتَى فِي كُلِّ يَوْمٍ لَبَانَةً فَإِنْ نَالَهَا أَنْحَى لِأُخْرَى وَصَمَمًا (١)
 طَمَاعَةً نَفْسٍ تُورِدُ الْمَرْءَ مَشْرَعًا مِنَ الْبُؤْسِ لَا يَغْدُوهُ أَوْ يَتَحَطَّمَا (٢)
 أَرَى كُلَّ حَيٍّ عَافِلًا عَنْ مَصِيرِهِ وَلَوْ رَامَ عِرْفَانَ الْحَقِيقَةِ لَانْتَمَى (٣)
 فَأَيْنَ الْأَلَى شَادُوا وَبَادُوا؟ أَلَمْ نَكُنْ نَحُلُّ كَمَا حَلُّوا ، وَنَرَحُلُ مِثْلَمَا (٤)
 مَضَوْا وَعَفَتْ آثَارُهُمْ غَيْرَ ذِكْرَةٍ تُشِيدُ لَنَا مِنْهُمْ حَدِيثًا مُرَجَّمَا (٥)

لو فكر العاقل الحكيم في أمر هذه الدنيا لأدرك ببصيرته حقيقتها ، ولعلم أن حلاوتها متصلة بمرارتها ، وأنّ ربها يقود إلى خسارتها ، وحياة الإنسان في هذه الدنيا محفوفة بالنكبات ، والفجائع المتتالية ، وأنّ الموت هي النهاية المحتومة لجميع الناس رفيهم ، و وضعهم ، و يعجب الشاعر من الذين يغترون بزخرف الحياة الدنيا ، و يغرقون في اللعب ، واللهو ، مع علمهم القاطع بأن نعيمها سراب خادع ، وأن عاقبته الموت ، والاغترار بالدنيا ، والاسراف في تحصيلها أمر مذموم ، وضرب من الغفلة ، وعاقبة ذلك الخسران المبين ، والحرص على الدنيا لا نتيجة له سوى الخسران ، والضياع ؛ فالدنيا تخدع الناس بزينتها ، وجمالها ، ولكن المتأمل المتدبر يدرك أن الموت لا يترك أحداً ، وأن عمر الدنيا قصير محدود ، وكل الذين عمروا هذه الدنيا بالمباني ، والأعمار الطويلة قد رحلوا ، وبادوا ، ولسوف نرحل كما رحلوا ، ونبيد كما بادوا ، وكلّ الذين عاشوا في هذه الأرض قد سحب عليهم الدهر ذيل الفناء ، والانقراض .

النزعة الصوفية ، والزهدية واضحة في النص ، فالشاعر يوضح حقيقة الدنيا ، والحياة ، ويدعو إلى الاهتمام بهذه الحقيقة ، فنعيم الدنيا لا استقرار لها ، و

(١) اللبانة : الحاجة . أنحى : مال ، وقصد . صمم : إذا عقد العزم ، وجد ، وصبر .

(٢) المشرع : مورد الماء حيث يستقى فيه بلا رشاء ، أو دلو .

(٣) رام : أراد ، ورجب . انتمى : انتسب إلى الحقيقة ، ولزمها ، وهي حقيقة الموت ، والإستعداد لها .

(٤) الألى : السابقون . شادوا : بنوا البناء العالي . بادوا : هلكوا ، وانقرضوا .

(٥) عفت : زالت ، وامحت . الحديث المرجم : غير المؤكد ، وهذا كناية عن بعد العهد بهم .

لا دوام ، وفي البيت الثالث يهون من أمر الدنيا ، وينهي عن الاغترار بها ، ويحذر من الحرص المذموم عليها . وفي هذا المعنى عزاء لكل من فقد حبيباً ، أو صديقاً في هذه الحياة . ، ونجد في البيت الرابع تنبيهاً لا يخلو من استهزاء ، وسخرية محمودين بهدف تقريع كل من ينغمس في لهو الدنيا ، ويغفل حقيقة الردى ، ومعنى هذا البيت أشبه ما يكون بجرس قوي الرنين ، قصير المدى في أذن من كان ذلك شأنه ، وفي البيت السادس فكرة الزهد تأتي من صورة الموت الذي لا يمكن الفكك منه . وبذلك فلا بد من بناء السلوك ، والمعاملات على هذه الحقيقة المبنية على مثل هذه النظرة المتألمة . وفي البيت الثامن نجد معنى عميقاً في زوال الحياة ، وتبدل الناس ، وفيها دعوة إلى التأمل ، والتدبر لأجل إدراك حقيقة هذه الدنيا التي لا تبقى على إنسان ، ولا على جماد ، وفي البيت الآخرة يعرض صورة حزينة لمصير الإنسان ، ومآله ، ونهايته ، وهذه الصورة لها أثر في النفوس ، فالحقيقة بينة ماثلة لا مجال لإنكارها .

يقول ^(١) البارودي في قصيدة أخرى داعياً إلى الزهد :

- إِنَّ الْغِنَى وَالْفَقْرَ فِي هَذَا الْوَرَى لَمُقَدَّرٌ وَاللَّهُ ذُو قِسْطَاسٍ ^(٢)
 فَعَلَامٌ يُبْلِي الْمَرْءَ جَدَّةَ عُمْرِهِ مُتَقَلِّباً بَيْنَ الرَّجَا وَالْيَاسِ ^(٣)
 أَوْ لَيْسَ أَنَّ الْعَيْشَ لُبْسٌ عِبَاءَةٌ وَسِدَادُ مَسْغَبَةٍ وَنَغْبَةٌ حَاسِي؟ ^(٤)
 تَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ الرِّجَالُ بِمَكْرِهَا عِلْمِي . لَبَاغَوْهَا بِغَيْرِ مِكَاسٍ ^(٥)
 هِيَ سَاعَةٌ تَمْضِي ، وَتَأْتِي سَاعَةٌ وَالْدَّهْرُ ذُو غَيْرٍ بِهَذَا النَّاسِ ^(٦)

(١) ديوان البارودي ١٣٤/٢ .

(٢) الورى : الخلق . القسطاس : أعدل الموازين ، وأقومها ، أو هو ميزان العدالة .

(٣) يبلى : يخلق ، ويقدم . العباءة : ضرب من الأكسية الواسعة . الرجاء : الأمل . اليأس : انقطاع الرجاء .

(٤) المسبغة : الجوع . النغبة : جرعة الماء . الحاسي : العطشان .

(٥) المكاس : المجادلة في البيع .

(٦) غير : متغير لا تثبت على حال تكون به .

يقول البارودي : نصيب الناس من الغنى ، والفقر بتقدير الله العادل الحكيم ، وليس بكثرة السعي ، والكد ، وما دام ذلك كذلك فيما يتعلق بالفقر ، والغنى فلماذا يفني الإنسان عمره متقلباً بين رجاء الغنى ، واليأس من ذهاب الفقر ، أو اليأس من مجيئ الغنى ، والإنسان ليس له من حياته إلا ما يستر جسمه ، ويسد جوعه ، ويطفئ عطشه ، ومن هنا ينبغي ألا يشتد حرصه على الدنيا ، وينبغي ألا يفني عمره في تحصيلها ؛ فالدنيا بكل ما فيها من الملاهي ، والمتاع ، والملذات تغري المرء ، وتغرر به ، وتقوده إلى الهلاك ، و المقبلون عليها لو علموا ذلك لزهدوا فيها ، وانصرفوا عنها ، وباعوها بيعاً هيناً ، ولم يغالوا فيها ، والعمر إنما هوساعة قصيرة تنتقضي بسرعة ، ويعقبها ساعة أخرى ثقيلة هي أدهى ، وأمرّ ، وحتى العمر مع قصره الدهر فيه غير مستقرّ فيداول الفقر ، والغنى ، والشقاء ، والسعادة ، وغيرها من المتناقضات .

والبارودي يناقش مسألة حرص الناس على المال ، وخوفهم من الفقر ، وحبهم للغنى ، ويربط ذلك بحرصهم على الحياة ، وإقبالهم على ملذاتها ، وخوفهم من انقضائها ، واهمالهم لشأن الموت ، وما بعده ، ويخبرهم بأن الدنيا الجميلة خادعة مأكرة ، يهلك من ركن إليها ، ومشى في ركابها ، وسعى في اعمارها ، ويخبرهم كذلك بأن العمر قصير ، يمضي بسرعة ، والمرء هالك لا محالة ، وتعقبه ساعة أخرى فيها الحساب ، والخلود ، ويذكر بأن الدهر لا يدوم على سلام ، أو خصام فهو متقلب من حال إلى حال ، والمرء في يده كالثوب عند الطي ، والنشر ، والأبيات دعوة إلى الزهد ، و التقلل من الدنيا ، والاستعداد للموت ، والمعاد .

٢. شعر الثناء على الله :

يثني البارودي على ربه عن طريق شكره ، وبيان فضله ، وحمده ، وتزيينه ، ونعته بصفاته الحسنی ، ومن ذلك قوله (١) :

(١) ديوان البارودي ١٩١/١ .

- سُبْحَانَ مَنْ أَبْدَعَ فِي مُلْكِهِ حَتَّى بَدَا مِنْ صُنْعِهِ مَا بَدَا (١)
 تَنَزَّهَتْ عَنْ صِفَةِ ذَاتِهِ وَقَامَ فِي لَاهُوتِهِ أَوْحَدًا (٢)
 فَاسْجُدْ لَهُ وَأَقْصِدْ حِمَاهُ تَجِدْ رَبًّا كَرِيمًا وَمَلِيكًا هَدَى (٣)

البارودي يسبح الله تعالى ، ويرى أنه أبداع خلق الكون على غير مثال سابق . وروعة خلقه ، وعظيم أعماله واضحة للعيان لا تخفى على ذي لبّ وعقل ، وهو منزّه عن الشبيه ، والمثال ، متصف بالجبروت ، والكمال ، وهو واحد صمد لا شريك له متصرف في شؤون خلقه بتدبيره . وكل من يرجو رحمته ، ويطلب معونته يجد العون ، والرحمة ، والهدى ، فهو رب قادر صانع له الأسماء الحسنى ، تجب عبادته ، والسجود له .

ويحمد البارودي ربه ، ويعترف بجزيل نعمه فيقول (٤) :

- لَكَ الْحَمْدُ إِنَّ الْخَيْرَ مِنْكَ وَإِنِّي لِصُنْعِكَ يَا رَبَّ السَّمَوَاتِ شَاكِرٌ
 فَأَنْتَ الَّذِي أَوْلَيْتَنِي كُلَّ نِعْمَةٍ وَهَذَّبْتَنِي حَتَّى اصْطَفَيْتَنِي الْعَشَائِرُ
 فَقَرَّبَ لِي الْخَيْرَ الَّذِي أَنَا رَاغِبٌ وَبَاعَدَنِي الشَّرَّ الَّذِي أَنَا حَازِرٌ
 فَلَيْسَ لِمَنْ تُقْصِيهِ فِي النَّاسِ نَافِعٌ وَلَيْسَ لِمَنْ تُدْنِيهِ فِي النَّاسِ ضَائِرٌ
 وَلَا لِمَنْ أَلْهَمْتَهُ الرُّشْدَ خَازِلٌ وَلَا لِمَنْ أَوْرَدْتَهُ الْغِيَّ نَاصِرٌ
 فَإِنْ أَدْرَكَتْ نَفْسِي الْمَرَامَ وَلَمْ أَقُمْ مَقَامَ ضَلِيعٍ بِالَّذِي أَنْتَ أَمْرٌ (٥)
 فَلَا لَاحَ لِي فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ كَوَكَبٌ وَلَا طَارَ لِي فِي قَنَةِ الْعِزِّ طَائِرٌ (٦)

(١) سبحان : تنزيه الله تعالى .

(٢) تنزهت : تباعدت . عن صفة ذاته : يعني : أن الله تعالى منزّه عن صفات المحدثات ، متصف بكل كمال .

(٣) حمى الله : المراد به : الاتجاه إليه ، وطلب حمايته ، ورحمته .

(٤) ديوان البارودي ١٠٧/٢ .

(٥) ضليع : قوي ، جدير ، وقادر .

(٦) قنة : قنة كل شيء أعلاه .

يعلن البارودي حمده لربه على نعمه ، و خيراته ، ويشكره عليها ، ثم يذكر فضل الله تعالى عليه فيقول : إن الله هو الذي اختصه بنعم لا تُحصى ، وهذب طباعه حتى أحبه الناس ، ثم يدعو ربه أن يشملته بالخير ، ويجانبه الشرور ، وكل ما يخافه ، ويحذره ، ويمدح الله تعالى بمقدرته ، وإرادته التي لا يملك الإنسان حيالها شيئاً ، فلا معطي لما منع ، ولا مانع لما يعطيه ، ولا يهتدي إلا من هداه ، ولا يضل إلا من أضله ، وأخيراً يعقد الشاعر عزمه على طاعة ربه ، والإخلاص له .

تناول البارودي في الأبيات السابقة أهم القيم الإسلامية وهي : حمد الله ، وشكره ، والاعتراف بفضله ، ورجاء خيره ، والاعتماد في تحقيق الأغراض عليه . كما أوضح أن قدرة الله لا تحدّها حدود ، وأنه متصرف في خلقه بما يشاء ولا شيء يداني هذا الثناء ، ولا قيمة أعلى من هذه القيم التي قلما يتغنّى بها شاعر في عصر الماديات هذه .

وفي الأبيات الآتية يتجلى مدح البارودي لله تعالى والاعتراف بفضله (١) :

- يَغْفُو عَنِ الذَّنْبِ حَتَّى يَسْتَوِيَ كَرَمًا لَدَيْهِ ذُو الْعَمَلِ الْمَبْرُورِ وَالْجَانِي (٢)
هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْأَفْلَاقَ دَائِرَةً وَصَوَّرَ الْخَلْقَ مِنْ إِنْسٍ وَمِنْ جَانٍ (٣)
وَقَدَّرَ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي مَنَازِلِهَا وَالنَّجْمَ وَالْقَمَرَ السَّارِي بِحُسْبَانٍ (٤)
وَأَرْسَلَ الْغَيْثَ أَرْسَالًا بِرَحْمَتِهِ وَأَنْبَتَ الْأَرْضَ مِنْ حَبٍّ وَرِيحَانَ (٥)
سُبْحَانَهُ جَلَّ عَنْ وَصْفٍ يُحِيطُ بِهِ وَكَيْفَ يُدْرِكُ وَصْفَ الدَّائِمِ الْفَانِي (٦)

(١) ديوان البارودي ١٤٩/٤ .

(٢) المبرور : المتوسع في عبادة الله . الجاني : المذنب الآثم .

(٣) الأفلاك : جمع فلك ، وهو الفضاء يدور النجم فيه ، والمراد بالأفلاك هنا كل الكواكب السيارة .

(٤) الحسبان : الحساب ، والاحصاء .

(٥) الريحان : كل نبات طيب الرائحة .

(٦) جل : تعالى ، وارتفع . الدائم : هو الله . الفاني : الإنسان ؛ لأنه يفنى ويزول .

- لَقَدْ تَفَرَّدَ فِي لَاهُوتِ قُدْرَتِهِ فَمَالَهُ أَبَدًا فِي مُلْكِهِ ثَانِي ^(١)
 وَإِنَّمَا نَحْنُ نُنْطَرِيهِ كَمَا سَبَقَتْ بِهِ الْإِرَادَةُ مِنْ وَصْفٍ وَتَبْيَانٍ ^(٢)
 كُلُّ يَقُولٍ عَلَى مِقْدَارٍ فِطْنَتِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْقَاصِي وَبِالدَّانِي ^(٣)
 تَبَارَكَ اللَّهُ عَمَّا قِيلَ وَابْتَدَعَتْ فِي ذَاتِهِ مِنْ أَضَالِيلٍ وَبُهْتَانٍ ^(٤)
 لَقَدْ لَفَّقُوها أَسَاطِيرًا مُحَبَّرَةً بِحِكْمَةٍ ذَاتِ أَشْكَالٍ وَالْوَانِ ^(٥)
 كَأَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا طُرْفَهُ عَجَبًا أَوْ جَاءَهُمْ نَبَأٌ صِدْقٌ بِبُرْهَانٍ ^(٦)
 وَلَوْ تَكشَّفَ هَذَا الْأَمْرُ لَارْتَدَعَتْ مَعَاشِرٌ خَلَطُوا كُفْرًا بِإِيمَانٍ ^(٧)

والبارودي هنا يمدح المولى بالرحمة ، والعفو ، والغفران ، فهو يتجاوز عن الجاني ، ويمحو خطاياهم حتى يستوي مع ذي العمل الصالح المبرور يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٨) والله تعالى هو الخالق البارئ المصور لجميع الكائنات خلق الإنس ، والجن ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴾ ^(٩) ومن دلائل قدرته ترى النجوم معلقة في السماء ، والكواكب سابحة في أفلاكها ، والشمس ، والقمر ، والكواكب السيارة تجري في منازلها بحساب معلوم ، وتقدير دقيق ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ^(١٠) .

(١) اللاهوت : أصله (لاه) بمعنى (إله) ثم زيدت فيه الواو ، والتاء للمبالغة ، والتعظيم ، والتفخيم كما زيدت في (جبروت) و (ملكوت) وأصلهما (جبار) و (ملك) ولاهوت قدرته : قدرته الإلهية .

(٢) نظريه : نحمده ، ونثني عليه .

(٣) الفطنة : العلم ، والفهم . القاصي : البعيد . الداني : القريب .

(٤) ابتدعت : ما قاله المشركون في حق الله من الضلال ، والكذب ، والافتراء ، والبهتان .

(٥) التلقيق : زخرفة الحديث ، وتمويهه بالباطل . المحبرة : المزينة المنمقة .

(٦) الطرف : المستحدث العجيب . (٧) الارتداع : الكف والامتناع .

(٨) سورة الزمر الآية : ٥٣ . (٩) سورة الرحمن الآية : ١٤ ، ١٥ .

(١٠) سورة يس الآية : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

ثم بين الشاعر نعم الله ، وشواهد قدرته ، وعظيم منّهُ ، وتفضله فيقول : فهو الذي يرسل الغيث رحمة منه ، ويخرج به من الأرض الزرع ، والكأ ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ ^(١) ولعل الإشارة إلى المطر ، والنبات باعتبارها أعظم نعم الرحمن على خلقه ، والتدبر ، والتفكر فيهما يهدي إلى الرشد .

والله سبحانه وتعالى لا تحيطه الأوصاف ، ولا تدركه الحواس ، وهو منزّه عن الشبيه ، والمثال ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(٢) وهو الإله الواحد القهار القوي الذي ليس كمثله شيء ، لم يتخذ صاحبة ، ولا ولداً .

ثم يتحدث البارودي عن قيمة إسلامية مهمة وهي أن ما يجري به ألسنتنا من وصف ، وبيان ، وحسن ثناء على الله تبارك وتعالى ينبغي ألا يتجاوز ما رسمه الله تعالى لعباده ، وأراده منهم ، وجاء في كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ . وإذا تجاوزنا ذلك لا نأمن من الانحراف ، والضلال ، والزيغ ، والفساد . والشاعر هنا يجلّ الله تعالى فهو أعلى من أن يحيط به الوصف ، والإطراء ، فوصفه ، والثناء عليه يجب أن يكون محصوراً في الدائرة الإلهية ، والتعليمات الدينية . وأن ما يقوله الناس عن الله تعالى ، وما يصفونه به يأتي على قدر فهمهم ، ودرجة إدراكهم ، والله يعلم الحق ، والباطل . ومن هنا يدعو الشاعر إلى التزام حدود الدين ، وما جاء به القرآن ، والسنة ويقول تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ... ﴾ ^(٣) ويقول تبارك وتعالى : ﴿ ... وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة الأنعام الآية : ٩٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٧١ .

(٤) سورة البقرة : الآية : ١٦٨ ، ١٦٩ .

ويعرض الشاعر ما ابتدعه الملاحدة ، و المشركون في ذات الله ، وخرجوا به عن الحق ، والرشاد ، وانحرفوا به عن الهدى ، والإيمان . فكل ما قالوه و جاءوا به من الأدلة فهو باطل قبيح ، ومعرفة خاطئة ، وفلسفة منحرفة عن الحق ، والصواب . وهنا يسخر الشاعر من الملحدين ، والمبتدعة ، وينبه إلى حقيقة جهلهم ، وقلة عقلهم ، وإمعانهم في الغواية ، والضلال ، ولا يزدادون في أدلتهم التي يؤيدون بها افتراءاتهم على الله إلا وهماً ، وصغاراً ، ومذلة . ثم يحث الشاعر علماء المسلمين أن يردّوا على هؤلاء المبتدعة ، وكشف ما في كلامهم من التمويه ، والتخليط ، والبهتان ؛ فإن كشفهم ، وهتك ستر الباطل عنهم يبيدي سوءاتهم فيردعهم ، ويزجرهم ، ويقطع ألسنتهم ، ويحبط كيدهم ، ويدفع عن الناس شرهم ، فيخسفون على أنفسهم من ورق جنّة الحق .

وفي الأبيات السابقة تناول البارودي قيماً رائعة فقد أثنى على الله تعالى ببعض صفاته ، وبيّن النعم التي تفضّل بها على عباده ، وأظهر بعض دلائل قدرة الله تعالى ، ثم نزهه عن الشبيه ، والمثال ، وردّ على أهل البدع ، والضلال ، وأرشد الناس إلى النأي بأنفسهم عن المهالك ، وسخر من الفلاسفة ، وكل من يسهم في غواية الناس ، ويضلّهم عن سبيل الله ، وحرّض علماء الأمة على كشف أهل البدع حتى يتقي الناس شرهم ، وحتى يعود من هداه الله منهم إلى دائرة الحق .

٣. شعر التأمل والموعظة :

يدعو البارودي إلى التأمل ، وأخذ العظة ، ويضرب لذلك أمثلة بالأمم ، والجماعات السابقة ، وفي ذلك أكبر باعث على الخوف ، والاعتبار ، وهذا يدخل في باب الذكرى ، ومن ذلك قوله ^(١) :

كُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا مُلَاقٍ رَبَّهُ وَالنَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مِيعَادٍ ^(٢)

وَكَفَى بِعَادِيَةِ الْحَوَادِثِ مُنْذِرًا لِلْغَافِلِينَ لَوْ اِكْتَفَوْا بِعَوَادِي ^(٣)

(١) ديوان البارودي ١/ ١٦٤ .

(٢) يقصد : أن الإنسان على ميعاد مع الموت .

(٣) عادية الحوادث : شرها ، وشدتها .

- فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ نَظْرَةً عَاقِلٍ لِمِصَارِعِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ (١)
 عَصَفَ الزَّمَانُ بِهِمْ فَبَدَّدَ شَمْلَهُمْ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ تَهَائِمٍ وَنِجَادٍ (٢)
 دَهْرٌ كَأَنَّا مِنْ جَرَائِرِ سِلْمِهِ فِي حَرِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَجَلَادٍ (٣)
 أَفْنَى الْجَبَابِرِ مِنْ مَقَاوِلِ " حَمِيرٍ " وَأُولَى الزَّعَامَةِ مِنْ " ثَمُودَ " وَ" عَادٍ " (٤)
 وَرَمَى " قُضَاعَةَ " فَاسْتَبَاحَ دِيَارَهَا بِالسُّخْطِ مِنْ " سَابُورَ " ذِي الْأَجْنَادِ (٥)
 وَأَصَابَ عَنْ عُرْضٍ " إِيَادَ " فَأَصْبَحَتْ مَنكُوسَةً الْأَعْلَامِ فِي " سُنْدَادٍ " (٦)
 فَسَلِ " الْمَدَائِنَ " فَهِيَ مَنْجَمٌ عَبْرَةٍ عَمَّا رَأَتْ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادٍ (٧)
 كَرَّتْ عَلَيْهَا الْحَادِثَاتُ فَلَمْ تَدَعْ إِلَّا بَقَايَا أَرْسَمِ وَعَمَادٍ (٨)

- (١) مصارع الآباء ، والأجداد : أسباب موتهم ، وسبل فنائهم ، وما خلفوه من خراب ديارهم .
- (٢) تهائم : جمع تهامة ، وهي منطقة معينة في جزيرة العرب ، ولكن الشاعر أراد بها المنخفض من الأرض .
- الأنجاد : جمع نجد وهو ما علا من الأرض .
- (٣) جرائر : جمع جريرة ، وهي ما يتلو الشيء ، وينتج عنه . سلمه : مسالمة الدهر ، والركون إليه .
- (٤) مفاول : جمع مفاول ، وهو الملك . حمير : هي قبائل تنسب إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، و كانوا يسكنون أول أمرهم غربي صنعاء ، وأسسوا مملكة ، وجعلوا عاصمتها (ظفار) ، واستمرت دولتهم من القرن الثاني قبل الميلاد ، وحتى القرن السادس الميلادي ، وقد امتازت هذه المملكة بالفتوحات ، ومحاربة الفرس ، والحبشة ، والعرب ، وتسمى كل دول اليمن قبل الإسلام بدول حمير ، لاتساع شهرتهم ، وعظيم سلطانهم ، ولزعامتهم ، وشرفهم في السيادة .
- ثمود : قوم نبي الله صالح عليه السلام الذين عقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، وكانت تسكن الحجر ، وتسمى الآن مدائن صالح ، أو وادي القرى الواقعة بين الشام ، والحجاز .
- عاد : قوم نبي الله هود ، وهي تسكن الأحقاف . مناطق رملية . في جنوب الجزيرة العربية .
- (٥) قضاة : قبيلة يمنية تنسب إلى عمرو بن مالك بن حمير الملقب بقضاة ، وتسكن شمالي الحجاز ، وجنوبي الشام . سابور : هو سابور بن أردشير أحد الأكاسرة ملوك الفرس بنى مدينة عظيمة قرب شيراز .
- الأجناد : الجنود .
- (٦) إياد : قبيلة عربية قديمة تسكن العراق .
- (٧) المدائن : عاصمة فارسية عظيمة ، كانت ذائعة الصيت في الزمان القديم .
- (٨) أرسم : جمع رسم ، وهو الأثر ، والبقية . عماد : الأبنية الرفيعة .

البارودي يذكر الناس بأنهم سوف يموتون ، وإن طالَّت أعمارهم ، فعلى الإنسان أن يتخذ من الشدائد التي يمر بها ، والتي يمر بها الآخرون منذراً من كل شر ، وداعياً إلى كل خير ، ثم يوجّه الناس إلى التأمل فيما حل بالأمم السابقة ، فقد ماتوا ، وانتهوا بعد أن سطا عليهم الدهر ؛ والدهر لا يعرف المسالمة مع الناس ، ولا يفى بتعهداته ، فهو في حالة حرب مع البشر ، فقد أهلك كثير من الأمم ، ودمّر العديد من الممالك ، وأباد الكثير من الشعوب ، والقبائل الذين أثاروا الأرض ، وعمروها ، وجاس ملوكها خلال الديار ، وملأوا السهل ، والجبل مثل عاد ، وثمود ، وحمير ، و قضاة ، وإياد حيث لم يبق منهم سوى آثارهم التي تدل عليهم .

البارودي في النص السابق يدعو إلى اليقظة ، وعدم الغفلة ، والاستعداد للموت ، وعدم الركون إلى نعيم الدنيا ، والاتعاظ بما حل بالسابقين حيث طوى الموت صحائفهم .

ويقول البارودي في نص آخر (١) :

وَمَا الْإِيَّامُ إِلَّا صَائِبَاتٌ تَمُرُّ بِكُلِّ سَابِغَةٍ وَتُرْسٍ (٢)
أَبَادَتْ قَبْلَنَا إِرْمًا وَعَادًا وَطَارَتْ بَيْنَ ذُبْيَانٍ وَعَبْسٍ (٣)

(١) ديوان البارودي ١٤٢/٢ .

(٢) صائبات : لا تخطئ أهدافها . السابغة : الدرع الواسعة . الترس : ما يستر المقاتل ، ويقيه من النبال .

(٣) إرم : قبيلة عاد الأولى ، وهي من القبائل العربية البائدة تسمية لها باسم جدها إرم بن سام بن نوح ، وقيل إن إرم بلدتهم ، وحاضرة ملكهم ، ومقر قوتهم ، وعظمتهم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ دَاثِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ سورة الفجر الآية : ٦ ، ٧ ، ٨ .

عاد : سبقت ترجمتها ص : ١٤٣ وقصتها مذكورة في القرآن الكريم .

طار : أبادت ، وأهلك . ذبيان ، وعبس : هما قبيلتان عظيمتان من العرب المستعربة ، وعبس ، وذبيان أختان من سلالة غطفان من قيس عيلان ، وقيس عيلان من مضر ، وهي أعظم القبائل العدنانية ، وأشهرها ، وكانت بينهما في الجاهلية حروب طويلة ، ومشهورة ، وأشهرها حرب داحس ، والغبراء التي تناولها الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة .

- وَأَلَوْتُ بِالْمُضَلَّلِ وَاسْتَمَالَتْ عِمَادَ الشَّنْفَرَى وَهَوَتْ بِقُسٍّ (١)
 فَلَا جَمَشِيدُ دَافِعَ إِذَا أَتَتْهُ بِحَادِثِهَا وَلَا " رَبُّ الدَّرْفُسِ " (٢)
 عَلَى هَذَا يَسِيرُ النَّاسُ طُرًّا وَيَبْقَى اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ نَفْسٍ (٣)

يخبرنا البارودي أَنَّ الأيام تبديد الناس ، وتصيبهم بسهام الموت التي لا توقفها ترس ، أو درع ؛ فالموت ينفذ فيما لا تتفد فيه الإبر فقد أهلك أشد الأقوام ، وأطولها أعماراً مثل عاد ، وإرم التي اتخذت من الجبال بيوتاً فارهين ، وأفنت أكبر القبائل ، وأشهرها ، وأكثرها عدداً من مثل عبس ، وذبيان ، وأباد كبار الشعراء أمثال امرئ القيس ، والشنفرى ، و أشهر الخطباء الذين دانت لهم رقاب البيان مثل قس بن ساعدة ، وأهلكت كبار الملوك ، والسلاطين الذين أسسوا دول ، وممالك عظيمة مثل : جمشيد ، وكسرى أنوشروان . ثم يذكر البارودي بأن الله هو الباقي ، و وارث الكون ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٤) .

-
- (١) ألوت : أهلكت ، وأبادت . المضلل : هو امرؤ القيس بن حجر الكندي ، أشهر شعراء الجاهلية ، وأميرهم ، ويلقب بالملك الضليل لكثرة ضلالته ، وخروجه عن حدود الذوق ، والأدب .
- الشنفرى : شاعر جاهلي قحطاني اسمه ثابت بن أوس ، والشنفرى لقبه ، وكان صعلوكاً ، شجاعاً ، فاتكاً يضرب به المثل في العدو فقيل (أعدى من شنفرى) وكان لا تدركه الخيل .
- هوت : أهلكت ، أبادت . قس : هو قس بن ساعدة الأيادي أشهر خطباء العرب ، وحكمائها في الجاهلية ، وقد سمعه النبي ﷺ . يخطب بعكاظ فأعجب به ، وأثنى عليه .
- (٢) جمشيد : لقب ملك عظيم من ملوك الفرس الأقدمين . وقيل إنه أول من علّم الناس اتخاذ الأسلحة ، وكانوا قبله يحاربون بالحجارة ، والعصى ، وأول من كشف صناعة النسيج ، واستخرج اللآلئ من البحار ، والمعادن من باطن الأرض . وعاش عمراً طويلاً .
- رب الدرفس : الدرفس هو العلم الكبير ، ويقصد الشاعر برب الدرفس : كسرى أنوشروان وهو أيضاً من أعظم ملوك الفرس ، وأبعدهم صيتاً ، وأسيرهم ذكراً ، وأقام بالمدائن حاضرة ملكه نحواً من سبع وأربعين سنة ، وفي عهده بلغت بلاد الفرس غاية مجدها ، وارتقائها ، وفي عصره وُلد النبي ﷺ . ، وإلى كسرى ينسب القصر الأبيض الفخم ، و الأيوان الفخيم ، وكان من عجائب الدنيا ، وقد وصفه البحري في سينيته المشهورة .
- (٣) طُرًّا : أجمعين .
- (٤) سورة الرحمن الآية : ٢٦ ، ٢٧ .

ونرى في الأبيات السابقة موعظة بليغة ، ودعوة للتأمل فهذه هي الأيام التي نحيها قد بطشت بمن قبلنا ، وأبادتهم ، ولا أظنها ستعفوا عنا ، فقد أبادت الأمم ، والملوك ، وبعض ذوي السيرة الخالدة ، والأسماء اللامعة ، وأصحاب الذكريات الباقية ، فقد فتك الدهر بهم ، وأبادتهم صروف الليالي ، ولم يبق بعدهم إلا العبرة ، والموعظة لمن أراد العظة ، والاعتبار .

ويقول البارودي في نص آخر (١) :

بَلِينَا وَسِرْبَالُ الزَّمَانِ جَدِيدُ وَهَلْ لَامَرِي فِي الْعَالَمِينَ خُلُودُ؟^(٢)
قَضَى آدَمَ فِي الدَّهْرِ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى وَكُلُّ الَّذِي مِنْ صُلْبِهِ سَيِّبُودُ^(٣)
فَلَا تَبْكُ مَيِّتًا حَانَ يَوْمُ رَحِيلِهِ فَلِلْمَوْتِ مَا يَمْضِي الْفَتَى وَيَرُودُ^(٤)
دَعِ الْفَلَكَ الدَّوَارَ يَجْرِي وَلَا تَسَلْ أَفْوَزَ كَهْلٌ أَمْ أَهْلٌ وَلِيدُ؟^(٥)
وَلَا تَلْتَمِسْ أَمْرًا يَزِيدُكَ يَقْظَةً فَلَيْسَ لِإِدْرَاكِ الْيَقِينِ مَزِيدُ^(٦)
فَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا وَإِنْ جَلَّ قَدْرُهَا سِوَى مُهْلَةٍ نَأْتِي لَهَا وَنَعُودُ^(٧)
تَبُوحُ بِهَا الْأَنْفَاسُ وَهِيَ نَسَائِمُ وَتَعْفُو بِهَا الْأَبْدَانُ وَهِيَ صَعِيدُ^(٨)
فَيَا ضَارِبًا فِي الْأَرْضِ يَرْتَادُ غَايَةً رُوَيْدُكَ إِنَّ الْفَوْزَ مِنْكَ بَعِيدُ^(٩)

(١) ديوان البارودي ٢١٩/١ .

(٢) بلينا : من البلى وهي القدم . السريال : الثوب ، أو القميص .

(٣) الورى : الناس أجمعين . من صلبه : من ذريته .

(٤) يرود : يطلب ، وينشد .

(٥) الفلك الدوار : أمور الدنيا ، وأحوال الكون . أفوز : أهلك . أهل : الإهلال صرخة الطفل .

(٦) يقظة : نقيض النوم ، والمراد بها الانتباه .

(٧) مهلة : مدة يسيرة .

(٨) تبوخ : تسكن ، وتهذا . تعفو : تزول ، وتمحي . صعيد : الصعيد هو التراب .

(٩) ضارباً : سائراً .

يقول البارودي إن الزمان لا يبلى ، ولا يكبر ، ولا يقدم بينما يشيخ الإنسان ، ويفنى ، ولا يخلد في الوجود ، فآدم الذي ولد كل هذا العالم قد مات منذ زمن بعيد ، وذاك سُنَّة في سلالته . وعلى الإنسان ألا يبكِ من يموت ، أو يجزع من الموت ، فكل سعي الإنسان في حياته ينقطع بالموت ، فكأنما يسعى في كل حركاته لغاية هي الموت . والمرء يدرك أنه ميت ، ويعلم هذا علم اليقين ، وليس بعد هذا اليقين زيادة ، وبذلك فعليه أن يتذكر الموت على الدوام لعلمه بحتمية هذا الأمر ، ودورة الفلك ، وأحوال الدهر تستلزم الحياة ، والفناء ، فعلى العقل أن يستسلم لما تجري به المقادير فلا يندعش لحياة ، وميلاد ، ولا لموت ، وفناء ، فكل الدنيا ، وما فيها سوف تزول بعد برهة من الزمن ، ويعود الناس بعد زوالها إلى الله فيجزئهم الجزاء الأوفى ، والأنفاس تخدم ، والأجسام تدفن ، وتعود تراباً كما كانت .

في المشهد السابق يوضح البارودي قصر دورة حياة الإنسان في الأرض ، وسرعة زواله مثلما زال أبوه من قبل مؤكداً حتمية هذا الزوال ، وأنه نهاية كل حي ، مخبراً بأن المقادير لا مفر منها ، ويجب الاستسلام لها ، ثم يحقّر الدنيا التي يراها الإنسان جليلة عظيمة ، ولكنها تزول كالإنسان بعد حين بحيث يطوى سماؤها كطي السجل للكتب ، وتُبْعَث كواكبها ، وتُكَوَّر شمسها ، وتتكدّر نجومها ، وتطير جبالها كالعهن المنفوش ، وهذه الأنفاس التي تتردد سوف تخدم ، وتعود الأجسام بروعتها ، وجمال خلقها تراباً كما كانت .

فوعظ الإنسان بالموت ، وتذكيره بمنشئه ، ومصيره ، ومآله ، وما ينبغي له في الدنيا من عوامل التقوى والصلاح لهي من القيم الإسلامية التي يجب إذاعتها ، فإذا كانت الدنيا هذه حالها ، والإنسان هذا شأنه لا يملك الإنسان العاقل سوى الاعتاظ !

٤. شعر تمجيد الفضيلة :

مجدّ البارودي الفضيلة وزيّنها عن طريق فخره بها ، وعن طريق مدح تلك

الفضائل المحموده في الآخرين ، ومن فخره قوله ^(١) :

- وَأَيُّ أَمْرٍ يَقْوَى عَلَى رَدِّ لَوْعَةٍ إِذَا التَّهَبَّتْ أَرَبَتْ عَلَى وَهَجِ الْجَمْرِ ^(٢)
 عَلَى أَنَّنِي لَمْ آتِ فِي الْحُبِّ زَلَّةً تَغْضُ بِذِكْرِي فِي الْمَحَافِلِ أَوْ تُزْزِي ^(٣)
 وَلَكِنِّي طَوَّفْتُ فِي عَالَمِ الصَّبَا وَعَدْتُ وَلَمْ تَغْلُقْ بِفَاضِحَةٍ أَزْرِي ^(٤)
 سَجِيَّةً نَفْسٍ آثَرَتْ مَا يَسْرُهَا وَلِلنَّاسِ أَخْلَاقٌ عَلَى وَفْقِهَا تَجْرِي ^(٥)
 مَلَكْتُ يَدِي عَنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَنْطِقِي فَعِشْتُ بِرِيَّ النَّفْسِ مِنْ دَنْسِ الْعُذْرِ ^(٦)
 وَأَحْسَنْتُ ظَنِّي بِالصَّدِيقِ وَرَبِّمَا لَقِيتُ عَدُوِّي بِالطَّلَاقَةِ وَالْبَشْرِ ^(٧)
 فَأَصْبَحْتُ مَأْثُورَ الْخِلَالِ مُحِبِّبًا إِلَى النَّاسِ مَرْضِيَّ السَّرِيرَةِ وَالْجَهْرِ ^(٨)
 فَمَا أَنَا مَطْلُوبٌ بِوَتْرِ لِمَعْشَرٍ وَلَا أَنَا مَلْهُوفٌ الْجَنَانِ عَلَى وَتْرِ ^(٩)
 رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كُنْتُ مُثْرِيًا بِعِفَّةِ نَفْسٍ لَا تَمِيلُ إِلَى الْوَفْرِ ^(١٠)
 وَأَخْلَصْتُ لِلرَّحْمَنِ فِيمَا نَوَيْتُهُ فَعَامَ لَنِي بِاللُّطْفِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي ^(١١)

يقول البارودي بأنه يستطيع السيطرة على أحاسيسه العاطفية مهما ازدادت ،
 أو التهبت ، وهو في حبه عفيف لا يرتكب الفواحش ، والردائل ، وكل ما يحط

(١) ديوان البارودي ١١/٢ .

(٢) اللوعة : حرقه الحب في القلب . أربت : زادت .

(٣) زلة : خطأ يقلل من شأن صاحبه . غض : قلل من قدره وقصّر من منزلته . تزري : تحقر ، وتعييب .

(٤) الفاضحة : الفضيحة من مثل الفواحش ، والردائل . أزرى : الإزار هو كل ما يستر الجسد من الثياب ،
 وقيل هو كل ما يستر وسط الجسد إلى أسفله .

(٥) سجية : الخلق ، والعادة . وفقها : هواها ، ونهجها .

(٦) دنس العذر : الاعتذار من ارتكاب الردائل التي تسبب للإنسان حرجا .

(٧) الطلاقة : ما يظهر على الوجه من علامات البشر ، والسعادة ، والترحيب .

(٨) مأثور : محمود .

(٩) الوتر : الثأر . الملهورف : المتحير المضطرب . الجنان : الرغبة .

(١٠) مثريا : غنياً كثير المال . الوفر : المال الكثير .

(١١) أخلصت : المراد بالاخلاص هنا صدق النية .

من قدر الإنسان ، فهو مهذب ، ملتزم حدود الأخلاق شبّ منذ صباه على الأدب ، واللياقة ، والخلق الحسن .

وفخر بأن نفسه اختارت من الأخلاق ما فيه رفعة الإنسان ، وسعادته ، وهكذا كل إنسان يختار أخلاقه حسب سجيته ، وهو لا يؤذي الناس بقوله ، أو بفعله ، ولذا فهو يعيش بعيداً عن إذلال الاعتذارات التي يسببها المداومة على أذى الآخرين ، وهو يحسن الظن بالآخرين ، ومع ذلك لا يفقد حذره ، ويلقى أعداءه بوجه يفيض بشراً ، وليس نفاقاً ، وإنما سماحة نفس ، ونقاء روح .

وقد سما به أخلاقه حتى أحبه جميع الناس ، ورضوا عنه لسلامة مظهره ، وسريته ، وهو مطمئن البال يسالم الناس ، و يسالمونه فلا هو مطلوب بثأر يزعجه ، أو يكدّر عليه عيشته ، ولا هو طالب ثأر تملي عليه الرغبة في الانتقام ، وتملأ نفسه حقداً ، وضغينة ، وهمماً ، وحيرة وهو رغم غناه ، وكثرة ماله عفيف النفس عن الكبر ، والغرور ، والتعالي ، والتبذير ، وهو خالص النية لله ، ولذا فهو يجد اللطف ، والعون منه .

وهذه القيم التي يفخر البارودي بها ، ويجسدها في نفسه تمثل وجهاً مشرقاً من أوجه الفضيلة ، فهو يسيطر على أحاسيسه العاطفية حتى لا تقوده إلى مهاوي الرذيلة ، و مساقط الشهوات ، والدنايا ، يميل دوماً إلى المعالي ، والمكارم ، يكفّ أذى لسانه ، ويده عن الناس ، وهو حسن الظن بأصدقائه ، حسن المعاملة لأعدائه ، وحاسديه . يحبه جميع الناس لحسن خلقه ، يسالم الناس فما هو حاقد عليهم ، ولا هم حاقدون عليه ، وهو على الرغم من غناه ، وثرائه لم يداخله الغرور ، أو التعالي ، بل ظلّ عفيف النفس ، نقي الجوهر لا يمثّل له الغنى شيئاً ، و يتوكل دائماً على الله ، ويخلص له النية حيث يجد اللطف ، والتوفيق .

والبارودي يفتخر بكل هذه الصفات الكريمة ، والخصال الحميدة ؛ ليكون نموذجاً تتجسد فيه الفضائل ، والمكرّمات .

وفي النص الآتي يفخر البارودي بعدد من الخلال السمحاء ، و يعبر عن نهجه السياسي القائم على المبادئ الإسلامية ^(١) :

وَلَكِنِّي نَادَيْتُ بِالْعَدْلِ طَالِباً رِضَا اللَّهِ وَاسْتَنْهَضْتُ أَهْلَ الْحَقَائِقِ
أَمَرْتُ بِمَعْرُوفٍ وَأَنْكَرْتُ مُنْكَرًا وَذَلِكَ حُكْمٌ فِي رِقَابِ الْخَلَائِقِ
فَإِنْ كَانَ عَصِيَانًا قِيَامِي فَإِنِّي أَرَدْتُ بِعَصِيَانِي إِطَاعَةَ خَالِقِي
وَهَلْ دَعْوَةُ الشُّورَى عَلَيَّ غَضَاضَةً وَفِيهَا لِمَنْ يَبْغِي الْهُدَى كُلُّ فَارِقٍ ^(٢)
بَلَى إِنَّهَا فَرَضٌ مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْ مَسْوُوقٍ وَسَائِقٍ ^(٣)
وَكَيْفَ يَكُونُ الْمَرْءُ حُرّاً مُهَذَّباً وَيَرْضَى بِمَا يَأْتِي بِهِ كُلُّ فَاسِقٍ
فَإِنْ نَافَقَ الْأَقْوَامُ فِي الدِّينِ عَدْرَةٌ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ غَيْرُ مُنَافِقٍ
عَلَى أَنَّنِي لَمْ آلْ نَصْحاً لِمَعْشَرٍ أَبِي غَدْرُهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا قَوْلَ صَادِقٍ ^(٤)
رَأَوْا أَنْ يَسُوسُوا النَّاسَ قَهْرًا فَاسْرِعُوا إِلَى نَقْضِ مَا شَادَتْهُ أَيْدِي الْوَثَائِقِ ^(٥)

يفخر البارودي بأنه يناضل في المعترك السياسي ، ويطالب بالعدالة ، ويبث الحماسة في النفوس ، ولا يطلب جاهاً ، أو غرضاً ، فهدفه نبيل ، وهو إرضاء المولى عزّ وجل . ويقول بأنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؛ لأن ذلك من الواجبات الدينية الحتمية المعلقة في عنقه . ويردّ على الذين انتقدوه على عصيانه للحكومة الغاشمة ، وأخبرهم بأنه لا يبتغي من عصيانه سوى طاعة مولاه ؛ فهو متمرد على الظلم ، وهضم الحقوق .

والبارودي لا يرى عيباً في دعوته إلى الشورى في حكم الدولة ، لما في الشورى من التفريق بين الحق ، والباطل ، وعدم الاستئثار بالحكم ، والرأي ،

(١) ديوان البارودي ٣١٨/٢ .

(٢) فارق : الفرق بين الهدى ، والضلال ، وبين الصلاح ، والفساد .

(٣) مسوق وسائق : المسوق هو المحكوم ، والسائق هو الحاكم .

(٤) آل : أقصر ، وأتوانى .

(٥) الوثائق : العهود المبرمة .

والشورى هو المبدأ الذي ارتضاه الشارع تبارك وتعالى لعباده جميعاً ، لا فرق بين حاكم ، ومحكوم إذ يقول تعالى : ﴿ ... وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ... ﴾ ^(١) . وفي آية أخرى يقول الله تعالى مخاطباً المصطفى . ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ^(٢) .

ويقول البارودي : إن المذهب المصقول بالآداب الربانية لا يرضى مطلقاً بأعمال الفساق المخالفين لأوامر الله ، الخارجين عن طاعته ، ورضا الآخرين بأفعال الفساق نفاق في الدين ؛ لأنهم يرضون بما حرّمه الله ، فكأنهم قد ران النفاق على قلوبهم فلم يصل الإيمان إليهم ، ولكنه يحمد الله على عدم وروده حياض النفاق .

ويفخر البارودي بأنّه لم يقصر ، ولم يتوان في إسداء النصح لهؤلاء المنافقين ، والفاسقين الذين غلب عليهم حب الغدر ، وأحاط بهم سُرادقها ، بل إن هؤلاء الفاسقين وبطانتهم ، ومن والاهم لجّوا في طغيانهم يعمهون ، فهم مصرّون على حكم الرعية بالقهر ، والغلبة ، ونقض العهود ، والنكوث بالمواثيق ، وبصرون على الحنث العظيم .

فهذه الخصال التي يفخر بها البارودي لهي خصال عظيمة حريّة بالتأمل ، فهو عندما رأى الحكام ، وبطانتهم حادوا عن طريق الحق ، وأظهروا القهر ، والتسلط أخذ يطالبهم بالعدل ، والشورى ، وأخذ ينادي برّد الحقوق ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويتمسك بما يرضى الله ، خالق العباد ، ويتمرد على كل ما حرّمه تعالى ، لا ينافق كما نافق الكثيرون ولا يتملق تملق الإماماء ، وظل ينادي بقيم الحق ، والعدل الذي فرضه الدين ، وأوجبه ، وهو في ذلك لا يخشى إلا الله ، ولا يبتغي سوى مرضاته . وهذا من المفاخر المشرقة التي يعيد إلى أذهاننا صفات الصحابة ، والسلف الصالح ، وهي خصال تدل على امتلاء قلب صاحبها بمبادئ العقيدة الإسلامية التي لا تعرف الضعف ، والرياء ، والملق

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

(١) سورة الشورى الآية ٣٨ .

، وبالتالي فهذه الخصال تعبر عن قيم إسلامية خالدة نادى بمثلها الإسلام ، وحضّ عليها .

وهكذا كان البارودي يمجّد الفضائل ، وخصال الشرف عن طريق تفاخره بالمحامد ، والمكارم .

وأيضاً كان البارودي يمجّد الفضيلة بمدح البعض بحيث يبرز فيهم أروع ما يتحلون به من الخصال ، فنراها مجسّدة في صاحبها زاهية يانعة ، ومن ذلك مدحه لعبد الله فكري باشا^(١) حيث قال ^(٢) :

هُوَ الصَّاحِبُ الْمَشْكُورُ فِي الْوَدِّ سَعْيُهُ وَمَا خَيْرُ وَدٍّ لَيْسَ يُلْحَقُهُ شُكْرُ؟ ^(٣)
أَمِينٌ عَلَى غَيْبِ الصَّدِيقِ إِذَا وَنَتْ عُهُودُ أَنْاسٍ أَوْ تَطَرَّقَهَا فَتْرُ ^(٤)
فَلَا جَهْرُهُ سِرٌّ ، وَلَا سِرُّ صَدْرِهِ إِذَا امْتَحَنَ الْوَأْشِي ضَمَائِرُهُ جَهْرُ ^(٥)

البارودي يمدح عبد الله فكري بالخلال الكريمة ، فهو دائماً يسعى إلى تقوية روابط الإلفة ، والمحبة بين الأهل ، والأصدقاء ، ولذا كان مشكور المسعى . وهو أمين على غيب الصديق لا يخون عهده ، ولا يفشي سره ، ولا يذكره بسوء مهما ضعفت علاقته به ، أو تسرّب إليها الفتور ، والضعف حيث يظل مؤمناً بدوره كصديقاً وفيّاً ، وهو مع ذلك شجاع حازم يجهر برأيه في المواضع التي تتطلب الجهر بالرأي ، ويكتم سره إذا دعت الحاجة إلى كتمانته .

(١) عبد الله باشا فكري (١٢٥٠ - ١٣٠٧ هـ) كاتب ، وشاعر ، وأديب تعلم بالأزهر الشريف ، وأجاد اللغة العربية ، واللغة التركية ، فعمل مترجماً حيناً من الزمن ، ثم نقل إلى حاشية سعيد باشا ، ثم إلى حاشية إسماعيل باشا ، ثم تقلّب في عدد من المناصب ، وكانت آخرها نظارة المعارف سنة ١٢٩٩ هـ ، وبقي بها حتى قيام الثورة العربية فسقط مع الوزارة ، واتهم مع الثوار فألقي القبض عليه ، ثم أطلق سراحه عندما تبينّت براءته .

(٢) ديوان البارودي ٤٩/٢ .

(٣) السعي : يقصد به وصل الأحباب ، والأصدقاء .

(٤) الونى : التعب ، والفتور . تطرقها : دخلها ، وتسرب إليها . الفتور : الضعف ، والخور .

(٥) امتحن . اختبر .

وكل هذه صفات كريمة ، وهي من القيم التي دعا الإسلام إليها ، وهي السعي إلى محبة الأصدقاء ، وزرع المودة بينهم ، وهي من أقوى عوامل تقوية الروابط ، والشكر الذي يستوجب الزيادة ، والتوفيق ، ثم الوفاء ، وحفظ عهود الأصدقاء ، وعدم إفساد الخلق لمجرد فساد أخلاق الآخرين ، وعدم ذكر الآخرين في غيبتهم بما يكرهون ، والشجاعة في مواضع الحق ، والحزم ، والحكمة ، والتعقل في القول ، والجهر بالرأي حسب مقتضيات الأمور .

وقد جسّد كل المكارم ، والمحامد في ممدوحه من باب تمجيد الفضيلة ، وتزيينها .

وقال^(١) يمدح إسماعيل باشا^(٢) خديوى مصر :

أَبُو الْمَجْدِ نَجْلُ الْجَوْدِ خَالُ زَمَانِهِ أَخُو الْفَخْرِ إِسْمَاعِيلُ خِذْنُ الْمَكَارِمِ^(٣)
قَشِيبُ الصَّبَا كَهْلُ التَّدَابِيرِ جَامِعُ صُنُوفِ الْعُلَا وَالْمَجْدِ فِي صَدْرِ جَارِمِ^(٤)
تَجَمَّعَ فِيهِ الْحِلْمُ وَالْبَأْسُ وَالنَّدَى فَلَيْسَ لَهُ فِي مَجْدِهِ مِنْ مُزَاجِ^(٥)
ذِكَاؤِ " أَرِسْطَالَيْسَ " فِي حِلْمِ " أَحْنَفِ " وَهَمَّةُ " عَمْرُو " فِي سَمَاحَةِ " حَاتِمِ " ^(٦)

الأحنف : هو الضحاك بن قيس بن معاوية التميمي ، والأحنف لقبه ، وهو سيد تميم ، وأحد العظماء ، الدهاء ، الفصحاء ، الشجعان ، الفاتحين ، يضرب به المثل في الحلم ، ورجاحة العقل ، ولد بالبصرة ، وأدرك النبي

(١) ديوان البارودي ٢٩٨/٣ .

(٢) هو إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير خديوى مصر ، ولد سنة ١٨٣٠م ، وتولى مصر سنة ١٨٦٣ م ، وله آثار باقية في العمران ، والمدنية ، والثقافة ، وفي عهده حفر قناة السويس ، وكان مسرفاً سفيهاً ، فخلع عن ولاية مصر . سافر إلى أوروبا ، وتوفي بالاستانة سنة ١٨٩٥م ، ونقلت جنته إلى القاهرة ، ودفن بمسجد الرفاعي بالقاهرة .

(٣) نجل : ابن . خدن : صديق .

(٤) قشيب : جميل زاه . كهل التدابير : كناية عن الحكمة ، وحسن التخطيط .

(٥) الندى : الكرم ، والجد .

(٦) ارسطاليس ولد سنة ٣٨٤ق.م ، وهو فيلسوف يوناني عريق ، ومن كبار مفكري البشرية ، تعلم في أثينا على يد أفلاطون ، واتصل بملك مقدونيا فيليبس ، و له من مؤلفات في المنطق ، والأخلاق ، والسياسة ، والفن ، والبلاغة ، والفلك ، والحيوان ، والطبيعة ، والإلهيات ، وما بعد الطبيعة ، وما وراء المادة ، وغيرها توفي سنة

ينظر البارودي إلى خصال إسماعيل باشا ، ثم يعتمد إلى ما يؤيده الإسلام فينوه بما ، فهو كريم ، جواد ، يغمر أهل زمانه بالعطايا النافعة ، وهو مع حداثة سنّه ، وفتوته ، وقوة شكيّمته سديد الرأي ، حسن التدبير ، صحيح التفكير ، جمع في شخصيته صدق العزم ، والخزم ، وأنواع المعالي ، والمكرّمات ، وتميز بسعة الصدر ، والبأس ، والنكاية بالأعداء هذا إلى جانب كرمه ، وتطلعه إلى المعالي . ثم قرن في بعض صفاته بأربعة من عظماء العرب ، والعجم فهو ذكي وقاد الذهن ، حليم واسع الصدر ، له همّة غلاية ، وعزم حديدي ، ويمتاز بالسماحة ، والجود الغامر .

٥ . شعر الحكمة :

الحكمة في الشعر العربي شملت مختلف مناحي الحياة ، وجاءت متخللة
العديد من الأغراض الشعرية ، ولكن الحكمة في شعر البارودي مرتبط بالدين ،
ويتجه اتجاهًا تربويًا ، وأخلاقيًا ، ومن ذلك قوله (١) :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا أَنْ يَعِيشَ مُحْسَدًا تَنَازَعُ فِيهِ النَّاجِدِينَ الْأَنَامِلُ (٢)
لَعَمْرُكَ مَا الْأَخْلَاقُ إِلَّا مَوَاهِبُ مُقَسَّمَةٌ بَيْنَ الْوَرَى وَفَوَاصِلُ (٣)

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَادِحَانِ : فَعَالِمٌ يَسِيرُ عَلَى قَصْدٍ وَآخِرُ جَاهِلُ (١)
فَذُو الْعِلْمِ مَأْخُودٌ بِأَسْبَابِ عِلْمِهِ وَذُو الْجَهْلِ مَقْطُوعُ الْقَرِينَةِ جَافِلُ (٢)
فَلَا تَطْلُبُنَّ فِي النَّاسِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ الْوُدِّ أَمْ الْوُدُّ فِي النَّاسِ هَابِلُ (٣)
مِنْ الْعَارِ أَنْ يَرْضَى الْفَتَيَّعِرَ طَبْعُهُ وَأَنْ يَصْنَحَبَ الْإِنْسَانُ مَنْ لَا يُشَاكِلُ (٤)

يقول البارودي لا قيمة للرجل إلا بأن يحيى حياة النباهة ، والصعود في
سلام المجد ، وبذلك يكثر حساده فيعضّون عليه أنامل الغيظ ، والأخلاق الكريمة

= . . ، ولكنه لم يره ، وأسلم في عهد عمر بن الخطاب ، وشارك في الفتوح الإسلامية ، وشهد (
صفين) مع علي بن أبي طالب . . ، وولى خرسان ، وكان صديقاً لمصعب بن الزبير أمير العراق ،
وتوفي بالكوفة .

عمرو : هو عمرو بن معدي كرب الزبيدي فارس اليمن المضروب به المثل في شدة البأس ، والشجاعة ،
والإقدام ، و هو من أصحاب النجدة ، والمروءة في الجاهلية ، والاسلام ، شهد القادسية ، وتوفي في حصار
نهاوند سنة ٢١ هـ .

حاتم : هو حاتم بن عبد الله الطائي ، يُكنى أبا عدي ، فارس ، وشاعر ، من أجواد العرب في الجاهلية ، ذائع
الصيت ، خالد الذكر ، يضرب به المثل في السماحة ، والجود .

(١) ديوان البارودي ٦٨/٣ .

(٢) تنازع : تجاذب . الأنامل : رؤوس الأصابع . وتنزع الناجد للأنامل : كناية عن الغيظ ، والحسرة .

(٣) مواهب : جمع هبة ، وهي المنحة . فواضل : الدرجات الرفيعة في الفضل .

ليس سوى هبات يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ويقسمها بينهم بإرادته ، وحكمته .
والناس في هذه الأرض عاملان جاهدان دؤبان أحدهما : عالم يُهتدى بعلمه ،
ويتوخى الصلاح ، والرشاد ، والآخر جاهل يحجل في قيود جهله ، ويتخبط خبط
العشواء فتتفرق به السبل ، ويتردى في المهالك ؛ فالعالم متصل بحياة الناس ينتفعون
بعلمه ، ويهتدون به ، الجاهل شقي أحرق منقطع عن الناس ؛ كالبعير الشارد الذي
لا يفتأ أن يضل ، وينفرد فتلتوي عليه الأمور ، ويقول أن المودة الصادقة في
الناس معدومة فعلى الإنسان الحذر ، والبحث ، والتنقيب للظفر بالمودة الصادقة ،
ثم يطالب الناس أن يظهروا على حقيقتهم ، وأن يتمسكوا بالشجاعة ، والجرأة ،
والوضوح ، ومصاحبة المثل في الشكل ، والطباع .

تشتمل حكمة البارودي في الأبيات السابقة على الدعوة إلى التحلي بالأخلاق
الفاضلة ، وولوج باب المروءة ، والسماحة .

وفي البيت الثالث نلمح صورة مزعجة لكل من لا يستقيم على طريق العلم ،
والهدى ، وتحمل في طياتها دعوة ضمنية إلى انتهاج نهج العلم النافع ، والتزامه ،
ونرى في البيت الرابع تشبيهاً رائعاً بليغاً يبرز الفرق بين الجاهل ، والعالم ، و

يبرز كذلك عاقبة الجهل ، ولا يخفى ما ينطوي عليه معنى البيت الخامس من
المبالغة ، والنظرة القاتمة ، وذلك لما لحق بالشاعر من الأذى ، والبؤس ، والشعر
ما هو إلا انعكاس لنفس صاحبه ، وفي البيت الأخير نهى ضمني عن الملق ،
والرياء ، والتذلل المصطنع ، والخضوع الكريه ، والتفريط في العزة ، والكرامة .
وهكذا تحمل الحكمة في شعر البارودي مضامين إسلامية فاضلة .
و في حكمة أخرى يقول البارودي ^(١) :

(١) كادحان : مثى كادح وهو التعب الدائب . القصد : سبيل الرشاد .

(٢) مأخوذ بأسباب علمه : يهتدي به الناس . القرينة : النفس . جافل : نافر شارد فزع .

(٣) المتقال : ما يوزن به . الذرة : النملة الصغيرة . هابل : مثكول ، أو لا وجود له .

(٤) المشاكلة : المطابقة ، والمشابهة ، والمماثلة .

- إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْكُنْ إِلَى اللَّهِ فِي الَّذِي يُحَازِرُهُ مِنْ دَهْرِهِ فَهُوَ خَاسِرٌ (٢)
 وَإِنْ هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ فَلَيْسَ لَهُ فِي مَعْرِضِ الْحَقِّ نَاصِرٌ (٣)
 وَمَنْ لَمْ يَذُقْ حُلُوَ الزَّمَانِ وَمُرَّهُ فَمَا هُوَ إِلَّا طَائِشٌ اللَّبَّ نَافِرٌ (٤)
 وَلَوْلَا تَكَالِيفُ السِّيَادَةِ لَمْ يَخْبِ جَبَانٌ وَلَمْ يَحْوِ الْفَضِيلَةَ ثَائِرٌ (٥)

في حكمة البارودي هذه إشارة إلى الاعتماد على الله في كل ما نحذر ،
 ونخاف ، وإلا فالخسران هو المصير ، والمآل ، وإرشاد إلى الصبر في المصاب وإن
 عظم فهو الحق ، والحق قديم قوي ، وعلى الإنسان المجرب الخبير أن يعتاد على
 شدائد الأيام ، ورخائها ، ففيها اكتمال العقل ، وهي ميزان الحكمة ، وكل من لم
 يخبر الزمان فهو جاهل غرير غير مجرب ، وهذا مظنة الفشل ، والانهزام .
 وكل من يطلب المعالي ، و الآمال البعيدة لا بدّ له من السعي ، وتحمل
 الصعاب ، وركوب الأسنة ، وهذا يحتاج بدوره إلى العزيمة ، وهي مقياس التفاضل
 بين الشجعان ، والجبّاء ، وبين الأقوياء ، والضعفاء .
 ومعاني هذه الحكم كلها تتجه اتجاهًا إسلاميًا فنجد فيها قيم الصبر ،
 والاعتماد على الله ، وخوض غمار الحياة للتجربة ، وأخذ العبر ، والعظات ، كما
 تحمل معاني الدعوة إلى السعي الجاد لنيل الأمنى ، وتحقيق المطالب .

(١) ديوان البارودي ٦٧/٢ .

(٢) يركن : يعتمد . يحاذره : يخافه ، ويحذره .

(٣) معرض الحق : مواضعه المعروفة .

(٤) الطائش : الخفيف الحلم ، القليل العقل ، المتهور .

(٥) يحوي : يحوز ، ويملك . الثائر : الشجاع الوثاب .

٦ . شعر المواقف الروحية :

في شعر البارودي العديد من التأملات الروحية العذبة التي تحكي عن نزعة إيمانية صادقة قوامها الابتهالات ، ومناجاة الخالق عز وجل ، والتسليم بإرادته ، والصبر على ابتلاءاته ، ومن ذلك قوله (١) :

كُلُّ أَمْرٍ ذَاهِبٌ لِيَغَايَتِهِ وَكُلُّ نَفْسٍ بِالْغَيْبِ مُؤْتَمِرَةٌ (٢)
يَا رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الْكِرَامَةِ مَا يَسُرُّ نَفْسِي فَإِنَّهَا وَجِرَةٌ (٣)
وَلَا تَكْنِي لِمَنْ يُعَذِّبُنِي فَإِنَّ نَفْسِي إِلَيْكَ مُفْتَقِرَةٌ (٤)

يخبر البارودي أولاً بأن نفس المخلوق خاضعة لأحكام الغيب ، وخاضعة لما يجري عليها من أمور القضاء ، والقدر ، ثم يطلب من ربه . في خضوع وتذلل . أن يهبه الكرامة ، والرضا ، والعافية ، ويرجو منه ألا يجعله يعتمد على غيره في قضاء حوائجه ، فلا راحم إلا هو ، ثم يعلن . في خضوع واستسلام . بأنه فقير إلى الله يحتاج إلى لطفه ، وعونه .

وهكذا تكون سريرة المؤمن ، وشأن المسلم الذي يرفع أمره لمولاه عز وجل . وفي النص التالي يتضرع البارودي لبارئه قائلاً (٥) :

يَا رَبِّ بِالْمُصْطَفَى هَبْ لِي . وَإِنْ عَظُمَتْ جَرَائِمِي . رَحْمَةً تُغْنِي عَنِ الْحُجَجِ (٦)
وَلَا تَكْنِي إِلَيَّ نَفْسِي فَإِنَّ يَدِي مَغْلُولَةٌ وَصَبَاحِي غَيْرُ مُنْبَلَجٍ (٧)

(١) ديوان البارودي ٨٠/٢ .

(٢) مؤتمرة : خاضعة لحكم الغيب ، ومشيتة الأقدار .

(٣) وجرة : ضعيفة .

(٤) لا تكنني : لا تكلف أمري .

(٥) ديوان البارودي ٨٦/١ .

(٦) الحجج : جمع حجة ، والمراد بها الأعداء التي يتعلل بها الإنسان في يوم الحساب .

(٧) مغلوله : مربوطه إلى العنق بالغل ، الغل هو طوق حديدي يوضع على العنق . منبلج : مضىء مشرق .

مَالِي سِوَاكَ وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ إِذَا ضَاقَ الزَّحَامُ غَدَاةَ الْمَوْقِفِ الْحَرَجِ ^(١)
لَمْ يَبْقَ لِي أَمَلٌ إِلَّا إِلَيْكَ فَلَا تَقْطَعْ رَجَائِي فَقَدْ أَشْفَقْتُ مِنْ حَرْجِي ^(٢)

يبتهل البارودي إلى الله راجياً منه الرحمة ، والعفو ، وأن يدخله الجنة بلا حساب ، ويتضرع إليه بأن لا يفوض أمره إلى نفسه ففي هذه الحالة سيهلك ؛ لأنه ضعيف على أن يقضى حوائجه بنفسه ؛ فهو مغلول اليد ، مظلم الإدراك بالقياس إلى إدراك الله ، وعلمه بالأشياء .

ويصرّح بصوت عال مفعم باليقين بأنّ الله وحده هو المستعان به على قضاء الحوائج خاصة يوم القيامة الذي لا يملك حق التصرف فيه سوى الله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ^(٣) ، ويصرّح بأنّ الله هو أمل المؤمن في أحلك اللحظات ، فلا ملجأ سواه ، ولا قادر غيره .

ومثل هذه المناجاة ، والابتهال تظهر حقيقة المسلم في علاقته بربه ، وترسم الخطى السليمة ، والنهج القويم الذي يجب أن يسير عليه الإنسان في حياته ، بحيث يعترف بضعفه ، وحاجته الماسة إلى ربه مهما كثر ماله ، وأولاه ، وطاب له العيش ، والعافية .

وفي العديد من المناسبات التي يمر بها البارودي يتجلّى إنابته إلى الله ، وتفويض الأمر إليه ، وتوجيه النفس التوجيه السليم ، فهو عندما ورد إليه نبأ وفاة زوجه ، ذلك النبأ الذي غصّ به ، وأنبت الشوك في وساده ، وكادت تذهب نفسه عليه حسرات ، أو يكون حرضاً ، أو يكون من الهالكين ، ولكن نور الإسلام ، وسنا الإيمان ينفذان في جوانب هذه النفس المظلمة بالحزن ، فيكشف عن جوهر نبيل حين يقول ^(٤) مخاطباً نفسه :

(١) الموقف الحرج : موقف يوم القيامة .

(٢) حرجي : إثمي ، وذنبني .

(٣) سورة الفاتحة ، الآية : ٤ .

(٤) ديوان البارودي ١٦٦/١ .

فَاسْتَهْدِ يَا "مَحْمُودُ" رَبَّكَ وَالتَّمَسْ مِنْهُ الْمَعُونَةَ فَهُوَ نِعَمُ الْهَادِي (١)

وَأَسْأَلُهُ مَغْفِرَةً لِمَنْ حَلَّ الشَّرَى بِالْأَمْسِ فَهُوَ مُجِيبُ كُلِّ مُنَادِي (٢)

قَدْ كِدْتُ أَقْضِي حَسْرَةً لَوْ لَمْ أَكُنْ مُتَوَقِّعًا لُقْيَاكَ يَوْمَ مَعَادٍ (٣)

ما أروع هذا الإيمان الذي يتلأأ في هذه الأبيات ، وما أطيب ريحها فهو بعد أن عصفت به الأحزان لجأ إلى الله . ولا ملجأ سواه . يلتمس منه الهداية ، والصبر ، والمعونة على البلوى ، وجليل المصاب ، ثم يسأله المغفرة ، ثم يعلن بأن لولا أمله في الآخرة لقضى عليه الحزن في الدنيا ، وهذا ما نسميه بالاستسلام لقضاء الله ، والإنابة إليه ، وهذا هو الذي يبعث في النفوس حياة جديدة ، وروحاً جديداً ، وهذا هو الذي أوصانا به شرعنا الحنيف يجسده البارودي في هذه الأبيات ، ويتركها آية خالدة يُهتدي بها .

ويقول الشاعر وهو في بسرنديب (٤) :

يَا قَلْبُ صَبْرًا جَمِيلًا إِنَّهُ قَدَرٌ يَجْرِي عَلَى الْمَرْءِ مِنْ أَسْرٍ وَإِطْلَاقٍ (٥)

لَا بُدَّ لِلضِّيقِ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْ فَرَجٍ وَكُلُّ دَاجِيَةٍ يَوْمًا لِإِشْرَاقٍ (٦)

يدعو الشاعر نفسه إلى التجمل بالصبر ، والتجلد للخطوب ، فالأحوال تتبدل ، وتتغير ، وأحكام القضاء تجري على الناس بتقدير الله ، ولذلك لا حيلة له في دفعها ، ثم يقول بأنه لا محالة من أن يعقب الضيق فرج ، والشدة لا بد أن يتلوها رخاء ، مثلما يعقب الليل إشراق الصباح ، وكل الدواهي ، والمصائب لا بد أن تتكشف ، وتزول كربها ، وتنقشع سحابتها .

(١) محمود : يقصد بها نفسه .

(٢) حل الثرى بالأمس : يقصد بها زوجه المتوفية .

(٣) يوم معاد : يوم القيامة .

(٤) ديوان البارودي ٢/٢٩٠ .

(٥) أسر وإطلاق : المراد بها سيطرة الأقدار خيرها ، وشرها .

(٦) الداجية : المراد بها المصائب ، والأمور الشديدة . الإشراق : المراد بها انكشاف الشدة ، وزوال المحنة .

٧ . شعر النصيح والإرشاد :

في شعر البارودي العديد من ثمار النصيح الدانية يقول في إحدى قصائده^(١) :

إِنَّ النَّمِيمَةَ وَالْأَفْوَاهُ تُضَرِّمُهَا نَارٌ مُّحَرِّقَةٌ لَيْسَتْ لَهَا شُغْلُ^(٢)
فَاتَّبِعْ هَوَاكَ وَدَعْ مَا يُسْتَرَابُ بِهِ فَأَكْثَرَ النَّاسِ إِنْ جَرَّبْتَهُمْ هَمَلُ^(٣)
وَاحْذَرْ عَدُوَّكَ تَسْلُمُ مِنْ خَدِيعَتِهِ إِنَّ الْعَدَاوَةَ جُرْحٌ لَيْسَ يَنْدَمِلُ^(٤)
وَعَالِجُ السَّرِّ بِالْكَيْتَمَانِ تَحْمُدُهُ فَرَبَّمَا كَانَ فِي إِفْشَائِهِ الزَّلَلُ^(٥)
وَلَا تَكُنْ مُسْرِفًا غَرًّا وَلَا بَخِلًا فَبِنَسْتِ الْخَلَّةِ الْإِسْرَافُ وَالْبَخْلُ^(٦)
وَلَا يَهْمُنْكَ بَعْضُ الْأَمْرِ تَسَامُهُ لَا يَنْتَهِي الشُّغْلُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَجَلُ^(٧)
وَاعْرِفْ مَوَاضِعَ مَا تَأْتِيهِ مِنْ عَمَلٍ فَلَيْسَ فِي كُلِّ حِينٍ يَحْسُنُ الْعَمَلُ^(٨)
فَالرَّيْثُ يُحْمَدُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ كَمَا فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ يُسْتَحْسَنُ الْعَجَلُ^(٩)

يحذر البارودي من النميمة ، ويشبهاها بالنار المحرقة التي تحرق المودة بين الناقل ، والمنقول إليه ، ويفسد أحوال الناس ، ويبعث الفتنة ، يقول الله تعالى : ﴿... وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ...﴾^(١٠) ، والقرآن يشبه المنام المغتاب بمن يأكل لحم أخيه ميتاً بهدف التبشيع ، والتفطيع ، والبارودي هنا يشبه النميمة نفسها بالنار التي تحرق أعراض الناس ، وتبيد المحبة ، والمودة .

(١) ديوان البارودي ١٦٨/٣ .

(٢) تضرمها : توقدها ، وتشعلها . الشغل : لهب النار .

(٣) يستراب : من الشك ، والريبة ، والتهمة . همل : المهمل المتروك ليلاً ، ونهاراً بلا رعاية ، أو عناية .

(٤) يندمل : يلتئم ، ويتمائل للشفاء ، ويبرأ .

(٥) الزلل : السقوط ، والضرر .

(٦) غراً : جاهلاً ، غافلاً . الخلّة : البخل ، والشح .

(٧) لا يهمنك : لا يحزننك . تسامه : تملّه ، وتتضرع منه .

(٨) مواضع : أماكن . تأتية : تفعله ، وتقوم به .

(٩) الريث : الإبطاء . العجل : السرعة ، والعجلة .

(١٠) سورة الحجرات الآية : ١٢ .

وينصح البارودي بالتباعد هوى النفس ما دامت سليمة بعيدة عن الريب ،
والشبهات ، والمنكر ، وبعدها يجب عدم الاهتمام بما يقوله الناس فأكثرهم . مع
التجربة . همل لا يعول عليهم . وبما أن النفس مجالاً للصراع بين نزعات الخير ،
والشر ﴿ ... إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ... ﴾ ^(١) ، فالبارودي ينادي
بجهاد النفس ، وحملها على الخيرات . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ
الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ^(٢) . وكذلك يدعو إلى الاحتراز من الأعداء حتى
يأمن المرء شرهم ، ومكرهم ، ثم ينصح بكنمان السر ، والحفاظ عليه ، وعدم التفريط
فيه ، فإن التفريط في الأسرار يورث الندم ، ويجلب الضرر ، والأذى ، وينجم عنه
الضعف ، والاستسلام لمن اطلع عليه ، والإسلام ينهى عن كل أسباب الضعف ،
والمذلة .

ويرشد البارودي أيضاً إلى فضيلة القصد ، والاعتدال ، ويذم رذيلتي : البخل
، والإسراف لما فيهما من الغرارة ، والجهل ، والغفلة ، والانخداع ، ويوجه أن يكون
المرء واثقاً بربه غير متضجر من تعب الحياة ، صابر على أحداثها المحزنة ،
والحياة . كما يراها الإسلام . كلها عمل ، ونصب ، وجهاد ، والإنسان إنما خلق ليجد
، ويعمل ما دام حياً ، وعليه الاستعانة بالصبر ، ويقول تعالى حاثاً على السعي ،
والدأب ، والعمل : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ ^(٣) .

ويحث البارودي كذلك على إتقان العمل عن طريق اختيار الوقت المناسب ،
والأسلوب المناسب ، وتنظيم العمل حسب أهميته ، ومراعاة ما يتطلبه كل أمر من
الريث ، أو العجلة ، ففي بعض الأحوال يستحسن العجلة ، فتحمد عواقبها ، وقد
يتطلب الأمر التأني فيحمد أيضاً .

وكل النصائح ، والارشادات في الأبيات السابقة تحمل قيماً إسلامية فاضلة ،
وضرورية لحياة الأفراد ، والجماعات ، وفيها للمسلمين عزة ، ومنفعة .

(١) سورة يوسف الآية : ٥٣ . (٢) سورة النازعات الآية : ٤٠ ، ٤١ .

(٣) سورة الشرح الآية : ٧ ، ٨ .

وللبارودي في النصح ، والإرشاد قصائد رائعة خالدة ، ولولا ضيق المقام لأوردناها كلها ، ولكننا نكتفي بالنصين ، السابقين ، والآتي (١) :

- إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيداً فَلَا تَكُنْ لَدُوداً وَلَا تَدْفَعْ يَدَ اللَّيْنِ بِالْقَسْرِ (٢)
وَلَا تَحْتَفِزْ ذَا فَاقَةٍ فَلَرَبِّمَا لَقِيتَ بِهِ شَهْمًا يُبْرِ عَلَى الْمُثْرَى (٣)
فَرُبَّ فَقِيرٍ يَمْلَأُ الْقَلْبَ حِكْمَةً وَرُبَّ غَنِيٍّ لَا يَرِيشَ وَلَا يَبْرِى (٤)
وَكُنْ وَسْطاً لَا مُشْرَباً إِلَى السُّهَى وَلَا قَانِعاً يَبْغِي التَّزْلَفَ بِالصُّغْرِ (٥)
فَاحْمَدُ أَخْلَاقِ الْفَتَى مَا تَكَافَأَتْ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْكَبَرِ
وَلَا تَعْتَرِفْ بِالذُّلِّ فِي طَلَبِ الْغَنَى فَإِنَّ الْغَنَى فِي الذُّلِّ شَرٌّ مِنَ الْفَقْرِ
وَإِيَّاكَ وَالتَّسْلِيمَ بِالْغَيْبِ قَبْلَ أَنْ تَرَى حُجَّةً تَجْلُو بِهَا غَامِضَ الْأَمْرِ
وَدَارَ الَّذِي تَرْجُو وَتَخْشَى وَدَادَهُ وَكُنْ مِنْ مَوَدَّاتِ الْقُلُوبِ عَلَى حِذْرِ
فَقْدِ يَغْدِرُ الْخُلُوفِ لِهَفْوَةٍ وَيَجْلُو الرِّضَا بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ
وَفِي النَّاسِ مَنْ تَلْقَاهُ فِي زِيٍّ عَابِدٍ وَلِلْغَدْرِ فِي أَحْشَائِهِ عَقْرَبٌ تُسْرِى
إِذَا أُمَكَّنَتْهُ فُرْصَةٌ نَزَعَتْ بِهِ إِلَى الشَّرِّ أَخْلَاقُ نَبْتَنَ عَلَى غَمْرِ (٦)

يرسم البارودي لمن يريد السعادة طريقها ، ويوضح سلوك المسلم الحق في نهج الحياة ، وما ينبغي له ليبلغ ذرا الفضيلة ، ويتفَيَّ ظلال الكرامة في جنات الأخلاق العالية. فالبارودي يدعو إلى عدم الخصومة ، وتجنب العداوة ، وينصح بعدم استعمال الشدة ، والخشونة مع الذين يتعاملون بالرفق ، واللين ، وينهى عن

(١) ديوان البارودي ١٣/٢ .

(٢) اللدود : الشديد الخصومة ، والفاجر في عداوته . القسر : القهر ، والشدة .

(٣) الفاقة : الفقر . بير : يغلب الخصم ، ويردعه . المثرى : صاحب الفضل ، والمروءة .

(٤) يریش : ينفع . يبرى : يضر .

(٥) مشرباً : رفعاً رأسه ، وهي كناية عن التطلع . السها : كوكب خفي من بنات نعش الصغرى ، يمتحن الناس به أبصارهم .

(٦) نزعت : مالت ، وذهبت . الغمر : الحقد الشديد .

احتقار الفقراء لفقرهم ؛ لأن العبرة ليس في الفقر ، و العدم ، وإنما في العقل ، والقلب ، فرب فقير قلبه يمتلئ حكمة ، موعظة ، ورب غني حسن المظهر لا ينفع ، ولا يضر لقصور إدراكه ، وقلة عقله ، وعلى الإنسان أن يكون في كل الأمور بين التواضع ، والكبر .

ويرشد البارودي إلى عدم القناعة بالمذلة في طلب الثراء ، فإن المذلة أشد وطأة من آلام الفقر ، وينصح ، ويحذر من التسليم بما يغيب عنا من الحقائق فلا بد من التحقق ، والكشف بالحجة ، والبرهان قبل الأخذ ، ويدعو إلى إظهار المودة لمعرفة الودّ الصادق من المموه الكاذب ، وهذا قد يكشف عن غدر الصديق الوفي لسبب ، أو لضعف ، وقد يكشف عن مودة حقيقية من شخص تعتقد عداوته ، وعليه فالحذر يبين حقيقة بعض من يتظاهرون بالزهد ، والتمسك بالدين ، وقلوبهم تنطوي على الشر ، والحق ، فإذا سنحت له الفرصة ظهرت خبايا نفسه التي لا تتفق مع مظهره .

ويرشد البارودي في الأبيات السابقة إلى تجنب أذى الناس ، وإلى اللين في المعاملة ، وعدم احتقار الفقراء لفقرهم ، كما ينصح بالتوسط في الأمور . فخير الأمور أوسطها . وينادي بعدم الصبر على المذلة ، أو الرضا به ، ويحذر من التسليم بالغيب ، والقضاء به قبل التحقق منه ، وإقامة البرهان عليه ، ويرشد إلى الحذر في معاملة الأصدقاء ، والأعداء ، وكل هذه النصائح هي قيم إسلامية ، وهي تمثل بعضاً من أخلاق نبي هذه الأمة ﷺ ..

٨ . مدح المصطفى ﷺ .:

وهو من أجل القيم الإسلامية إذ يقول (١) :

هَيْهَاتَ يَسْئَلُكَ لَوْمَ الْعَادِلِينَ إِلَى قَلْبٍ بِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ مُمْتَرِجٍ
هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي لَوْلَا هِدَايَتُهُ لَكَانَ أَعْلَمُ مَنْ فِي الْأَرْضِ كَالْهَمَجِ (٢)

(١) ديوان البارودي ٨٥/١ .

(٢) الهمج : الحمقى ، وهم خفاف الأحلام ، وضعاف العقول .

- أَنَا الَّذِي بَتَّ مِنْ وَجْدِي بِرَوْضَتِهِ أَحْنُ شَوْقًا كَطَيْرِ الْبَانَةِ الْهَزَجِ (١)
 هَاجَتْ بِذِكْرِهِ نَفْسِي فَأَكْتَسَتْ وَلَهَا وَأَيَّ صَبٍّ بِذِكْرِ الشَّوْقِ لَمْ يَهْجِ؟
 فَمَا احْتِيَالِي وَنَفْسِي غَيْرُ صَابِرَةٍ عَلَى الْبُعَادِ وَهَمِّي غَيْرُ مُنْفَرَجِ
 لَا أَسْتَطِيعُ بَرَاحًا إِنْ هَمَمْتُ وَلَا أَقْوَى عَلَى دَفْعِ مَا بِالنَّفْسِ مِنْ حَوْجِ (٢)
 لَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ حُكْمٌ فِي تَقْلِيلِهِ مَا كَانَ إِلَّا إِلَى مَغْنَاهُ مُنْعَرَجِي (٣)
 فَهَلْ إِلَى صِلَةِ الْأَمَالِ مِنْ سَبَبٍ أَمْ هَلْ إِلَى ضِيقَةِ الْأَحْزَانِ مِنْ فَرَجِ؟

البارودي يمدح النبي ﷺ . ويرى بأن لوم العاذلين لا تحول دون محبته ،
 وذلك لعظمته ، وأنه لولا ما أتى به من الهدى لصار الناس ضعاف العقول لا دراية
 لهم ، ولا حضارة ، ثم عبّر عن أحاسيس تتمّ عن حُبّه العميق له ، واشتياقه الخالص
 لزيارة قبره الطاهر ، وأنه لا يطيق صبراً عن ذلك ، ولكنه يتعلل عن عدم القدرة على
 الذهاب لأسباب قاهرة ، ولكنه أوضح بأنه لو كان في مكنته التنقل لقصد روضته .

فحبّ النبي ﷺ . من أسس الإسلام ، ومدحه ﷺ . دليل هذا الحب ،
 والبارودي يحقق هذه القيمة في شعره .

قال (٤) في قصيدته : (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) (٥)

- وَلَيْ بِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ مَنْرِلَةً أَرْجُو بِهَا الصَّفْحَ يَوْمَ الدِّينِ عَنْ جُرْمِي
 لَا أَدْعِي عِصْمَةً لَكِنْ يَدِي عَلَقْتُ بِسَيْدٍ مَنْ يَرِدُ مَرَعَاتِهِ يَسْمُ (٦)
 خَدَمْتُهُ بِمَدِيحِي فَأَعْتَلَوْتُ عَلَى هَامِ السَّمَاءِ وَصَارَ السَّعْدُ مِنْ خَدَمِي (٧)

(١) الروضة : قبر النبي ﷺ . ، وأحياناً تطلق الروضة على ما بين قبره ، ومنبر مسجده فهي روضة من رياض الجنة .

(٢) الحوج : جمع حاجة .

(٣) منعرجي : انعطافي ، وسيري .

(٤) معارضات البارودي ، محمد بوذينة ص : ١٩٥ . ٢٢٧ ، منشورات محمد بوذينة . تونس ، (ط ١) ، بدون تاريخ .

(٥) وهي قصيدة طويلة بلغت أبياتها (٤٤٧) سار فيها على نهج البردة .

(٦) يسم : يرعى الوسم ، وهو الكلاء ، والعشب الكثير .

(٧) السماك : نجم بعيد .

- وَكَيْفَ أَزْهَبُ ضَيْمًا بَعْدَ خِدْمَتِهِ وَخَادِمِ السَّادَةِ الْأَجَوَادِ لَمْ يَضُمَّ (١)
 أَمْ كَيْفَ يَخْذُلُنِي مَنْ بَعْدَ تَسْمِيَّتِي بِاسْمِ لَهُ فِي سَمَاءِ الْعَرْشِ مُحْتَرَمٍ (٢)
 أَبْكَانِي الدَّهْرُ حَتَّى إِذَا لَجَأْتُ بِهِ حَنَا عَلَيَّ وَأَبْدَى ثَغَرَ مُبْتَسِمٍ (٣)
 فَهُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الْعَافِينَ مَا سَأَلُوا فَضلاً وَيَشْفَعُ يَوْمَ الدِّينِ فِي الْأَمَمِ (٤)
 نُورٌ لِمُقْتَبَسٍ ذُخْرٌ لِمُلْتَمَسٍ حِرْزٌ لِمُبْتَسِسٍ كَهْفٌ لِمُعْتَصِمٍ (٥)
 بَثَّ الرَّدَى وَالنَّدَى شَطْرَيْنِ فَاَنْبَعَثَا فِيمَنْ غَوَى وَهَدَى بِالْبُؤْسِ وَالنِّعَمِ (٦)
 فَالْكَفْرُ مِنْ بَاسِهِ الْمَشْهُورِ فِي حَرْبٍ وَالدِّينُ مِنْ عَدْلِهِ الْمَأْثُورِ فِي حَرَمٍ (٧)
 هَذَا ثَنَائِي وَإِنْ قَصَرْتُ فِيهِ فَلَئِي عَذْرٌ وَأَيْنَ السُّهْا مِنْ كَفِّ مُسْتَلَمٍ (٨)
 هَيْهَاتَ أَبْلُغُ بِالْأَشْعَارِ مِذْحَتَهُ وَإِنْ سَأَلْتُ سَبِيلَ الْقَالَةِ الْقُدَمِ (٩)
 مَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولَ الْمَادِحُونَ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ بِفَضْلِ مَنْزِلِ الْكَلِمِ (١٠)
 فَهَآكَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ زَاهِرَةً تُهْدِي إِلَى النَّفْسِ رِيًّا الْآسِ وَالْبَرَمِ (١١)

يقول الشاعر إنه يحب النبي حباً يأمل به التجاوز عن سيئاته يوم الحساب ،
 ويخبرنا بأن هذا الحب لا ينجيه من الحساب ، ولا يعصمه من أمر الله ، ولكنه يأمل
 أن يكون هذا الحب سبباً في نجاته ، والدخول في شفاعة الرسول ﷺ . وعندما
 مدحه ارتفعت مكانته إلى منزلة السمّك ، ويرى أن هذا المديح ، وتسميته باسم النبي
 قد ينجيانه في الآخرة ، وهو بعد أن ضاقت عليه الحال استجار به

(١) الضيم : الظلم ، والذل .

(٢) يقصد : بالاسم هنا (محمود) فالشاعر يدعي (محمود) والرسول أيضاً يسمى (محمود) .

(٣) حنو الدهر ، وإظهار الثغر المبتسم : كناية عن تبدل الحال من الشقاء إلى النعيم .

(٤) العافين : ذوي الحاجات من الفقراء ، والأرامل ، والذين انقطعت بهم السبل ، واليتامى وغيرهم .

(٥) الذخر : الشيء المخز . الملتمس : طالب الشيء . الحرز : المانع ، والحامي . والمعتصم : اللأجئ ، أو المتحصن .

(٦) بَث : نشر . غوى : ضلّ .

(٧) في حرم : أي حرمة ، وحماية ، وصيانة .

(٨) السها : نجم بعيد .

(٩) القالة القدم : الشعراء القدامى ، وهم مشهورون بالاجادة ، والسبق في مضمار الشعر ، والإبداع فيه .

(١٠) منزل الكلم : هو الله سبحانه وتعالى .

(١١) ربا : الرائحة الطيبة الذكيّة . الآس : زهر من الريحان ، البرم : نوع من الثمار زكي الرائحة . فانكشفت غربته ، وتبدل حاله ، وهذا الرسول ﷺ . كريم جواد ، وجود لذوي الحاجات بما طلبوه ، ويتولى الشفاعة في الخلق ، وهو مثل النور في هدايته ، يجد عنده السائل ما يرجوه ، وهو حماية وصون لكل بائس ، وملجأ حصين لكل خائف مذعور ، فيه الندى ، والسماحة ، والجود لمن أطاع الله ثم اهتدى ، وفيه الشدة ، والصرامة ، والبأس لمن كفر بالله ، وتعدى محارمه ، وهو مع هذا المدح يشعر بالقصور عن إيفائه حقه ، فالرسول بعيد المنزلة لا يلحقه بشر ، ولو استعان البارودي بقرائح الشعراء الأقدمين ، والفحول السابقين ، فلا يستطيع أحد أن يثني عليه كما أثنى عليه الله ، ويصف قصيدته بأنها زاهرة جميلة تفوح منها الروائح الذكيّة ، والطيبة .

مدح البارودي المصطفى ﷺ . في هذه المقطوعة بعدد من الخصال مثل بُعد المنزلة ، والجود ، والكرم ، وأن محبته ، الاعتصام به ، وأتباعه من أسباب النجاة يوم البعث ، وبأنه نور يهتدي به الهداة ، يغضب الله ، يجير من استجاره ، ويحمي من يلجأ إليه ، ويحسن معاملة الجميع ، ثم مدحه بأنه لا يستطيع أن يوفيه حقه من المديح لبُعد مكانته ، ومنزلته ؛ ولأن رب الأنام قد مدحه .

وإذا نظرنا إلى طول القصيدة ، وما بذله الشاعر فيه من جهد عظيم ، وما ضمنه من المعاني ، والصور البلاغية البديعية ؛ لأدركنا مقدار حب الشاعر لهذا النبي ﷺ .

٩ . شعر تقبيح الرذائل :

يقبح البارودي الرذائل بالهجاء ، والشكوى ، ففي الهجاء يعدد المساوئ ، وينقّر منها ، وفي الشكوى يظهر الضيق ، والتبرم بالمفاسد ، والشرور ، ومن شعره في الشكوى قوله (١) :

وَلَكِنِّي فِي مَعْشَرٍ لَمْ يَقُمْ بِهِمْ كَرِيمٌ وَلَمْ يَرْكَبْ شَبَا السَّيْفِ خَالِعٌ (٢)

(١) ديوان البارودي ١٨٥/٢ .

(٢) شبا السيف : كناية عن ركوب المصاعب . الخالع : الشاب القوي القادر على حمل السلاح ، والقتال .

لَوَاعِبُ بِالْأَسْمَاءِ يَبْتَدِرُونَهَا سَفَاهًا وَبِالْأَلْقَابِ فَهِيَ بَضَائِعُ ^(١)
 وَهَلْ فِي التَّحْلِي بِالْكُنَى مِنْ فَضِيلَةٍ إِذَا لَمْ تُزَيِّنْ بِالْفِعَالِ الطَّبَائِعُ؟ ^(٢)
 أَعَاشِرُهُمْ رَغْمًا وَوُدِّي لَوْ أَنَّ لِي بِهِمْ نَعْمًا أَدْعُو بِهِ فَيُسَارِعُ ^(٣)
 فَيَا قَوْمٍ هُبُوا إِنَّمَا الْعُمْرُ فُرْصَةٌ وَفِي الدَّهْرِ طُرُقٌ جَمَّةٌ وَمَنَافِعُ
 أَصْبَرًا عَلَى مَسِّ الْهَوَانِ وَأَنْتُمْ عَدِيدُ الْحَصَى؟ إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعُ
 وَكَيْفَ تَرَوْنَ الذِّلَّ دَارَ إِقَامَةٍ وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَاسِعُ

يشكو البارودي من أنه يعيش مع أناس من بني وطنه ، لا يعرفون الكرامة ، ولا يقتحمون المصاعب ، والأقوياء لا يقاتلون ، ولا يمتشقون الحسام ، وهم جماعة سفهاء ، حمقى يشتغلون بما لا يفيد ، ويتباهون بالأسماء ، والنعوت الضخمة ، والألقاب ، وتلك هي بضاعتهم ، وسلعتهم التي بها يتجرون . ولكن الشاعر يرى أن الكنى المشعرة بالتعظيم ، والألقاب الرفيعة لا تُعدّ من الفضائل التي تزين الناس ، وترفع من قدرهم ، ومراتبهم إلا إذا استقامت طبائعهم ، وحسنت أخلاقهم ؛ فالأفعال هي التي تزين السجاياء ، ويقول إنه يعاشر هؤلاء الناس على الرغم منه ، ويود لو يبدله الله بهم مَنْ هُمْ خير منهم ، فالبهائم أفضل له منهم ، ثم ينكر عليهم صبرهم على المهانة فيقول : كيف تصبرون على الذل ، والهوان مع كثرة عددكم ، ثم ردّد ما يردّده اليائس من عبارات العجب ، والرجوع إلى الله ، والاستسلام لحكمه ، ويعلن موت صفات الرجولة فيهم ، ويوبّخهم على الرضا بالذل ، والإقامة في ديار الهوان ، والخلود إلى المهانة مع أن أرض الله واسعة ، ونعمه كثيرة تملأ الأرض ، والسماء . والبارودي في الأبيات السابقة ينتقد في مجتمعه بعدهم عن الكرامة ، وجبنهم ونكولهم عن القتال ، وعن الدفاع عن أنفسهم ، وأوطانهم ، وينتقد فيهم

(١) لواعب بالأسماء : يلعبون بها . يبتدرونها : يسارعون إليها . بضائع : تجارة ، ومكاسب .

(٢) التحلي بالكنى : التجميل بالألقاب .

(٣) النعم : الإبل ، والعرب تسمي الإبل نعماً لكونها عندهم أعظم نعمة . المسارعة : السرعة ، والجد فيه .

الحماقة ، والسفه ، والاهتمام بالأسماء ، والألقاب ، و تفاضلهم بها ، ثم يوجههم إلى ما فيه الخير ، والمنفعة ، وإلى ما يحقق لهم العلو ، والرفعة .

وهذه النظرة الناقدة للمجتمع تعبّر عما في نفس البارودي من الفضائل ، والسجايا الرفيعة التي يتمنى لو تسود المجتمع ، ويتحلى بها جميع الناس ، وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن شاعرنا كان يسعى لأن تسود في مجتمعه قيم النخوة ، والشجاعة ، والكرم ، وحسن المعاشرة ، والعزة ، وهي القيم التي بنى بها النبي ﷺ . المجتمع المسلم في أوائل العصر الإسلامي فصار مجتمعاً متماسكاً يشدّ بعضه بعضاً كالبنيان .

وقال ^(١) يذم القبائح عبر هذه القصيدة الهجائية :

مَعَاشِرُ سَادُوا بِالنَّفَاقِ وَمَا لَهُمْ أَصُولٌ أَظْلَنَتْهَا فُرُوعٌ بَوَاسِقُ ^(٢)
فَأَعْلَمُهُمْ عِنْدَ الْخُصُومَةِ جَاهِلٌ وَأَتَقَاهُمْ عِنْدَ الْعَفَافَةِ فَاسِقُ
طَلَاقُهُ وَجْهٌ تَحْتَهَا الْغَيْظُ كَاشِرٌ وَنَعْمَةٌ وَدَّ بَيْنَهَا الْغَدْرُ نَاعِقُ ^(٣)
وَأَخْلَقُ صَبِيانٍ إِذَا مَا بَلَوْتَهُمْ عَلِمْتَ بِأَنَّ الْجَهْلَ فِي النَّاسِ نَافِقُ ^(٤)
تَعَلَّمْتُ كَظْمَ الْغَيْظِ فِيهِمْ وَإِنَّهُ لَحِلْمٌ وَلَكِنْ لِلْحَفِيزَةِ مَا حِقُ ^(٥)

يهجو البارودي جماعة من الناس بأنهم وصلوا إلى مراتب الزعامة ، والسيادة ، بالنفاق ، والحيل ، والمداينة ، والخداع فهم ليسوا من أشراف الناس الذين كرمت أصولهم ، وزكت فرووعهم ، وهم يدّعون العلم ، ولكن جهلهم يفضحهم عند الجدل ، والخصومة حيث يحتاج المرء إلى العلم ، والحجج ، و

(١) ديوان البارودي ٢٩٧/٢ .

(٢) بواسق : جمع باسقة ، أي : طويلة عالية ممتدة ، والمراد بها أصولهم ، وأجدادهم ، وأنسابهم .

(٣) كاشر : أبرز أنيابه للافتقار . ناعق : صوت الغراب ، والمراد به الظاهر المكشوف المحسوس .

(٤) بلوتهم : اختبرتهم ، وجربتهم . نافق : رائج شائع منتشر بين الناس .

(٥) الحفيظة : الحمية ، والغضب للمحارم . ماحق : من المحق : وهو الإزالة ، والإبطال .

المنطق ، ومع ذلك يظهرون التقوى ، والعفة ، والصلاح ، ويكتمون الفسق ،
والفجور ، والفساد ، وهم أيضاً منافقون مردوا على النفاق ؛ فيظهرون بشاشة الوجه ،
والمودة ، ويضمرون الحقد ، والغدر ، والبغضاء ، ومع ذلك فإن ما يضمرونه من
هذه النقائص بين ظاهر محسوس ، وتصرفاتهم تشبه تصرفات الصبيان في الطيش
، والخفة ، وقلة العقل حين تختبرهم فتدرك أن الجهل ، والسفه فاشيان في الناس .
ويقول إنه يحلم عن هؤلاء القوم الخبيثاء ، ويكظم غيظه ، ويصفح عن سيئاتهم ،
ولكنه يقول أن حلمه عنهم قد جاوز الحد .

والبارودي حين يهجو هؤلاء القوم يبرز ما يسوءه فيهم : الخداع ، والمكر
السيئ ، والمداهنة ، والنفاق ، والجهل ، وادعاء المعرفة ، والعلم ، والتمسك بالفجور
، و المناكير .

❖ طريقته في التعبير عن القيم الإسلامية :

وخلاصة القول أن تناولنا القيم الإسلامية في شعر البارودي في هذا الباب بشيء من التفصيل ، ووقفنا على بعض الحقائق ، وهنا نتوقف مع هذه الحقائق المتعلقة بهذه الدراسة.

١. شيوع المعاني الإسلامية في شعره :

تناول البارودي العديد من القيم الإسلامية في شعره ، ولكنه لم يفرد لها قصائد مستقلة على نحو منهجي واضح ؛ فقد جاءت متخللة معظم شعره ؛ فالمطلع على شعره يجد المعاني الإسلامية منتشرة في القصائد ، وذلك يعود إلى القيمة الواقعية ، والموضوعية لشعره ؛ فالبارودي في أغلب قصائده يتناول موضوعات ترتبط بحياته الخاصة ، أو بالحياة الاجتماعية العامة من حوله ، ونحن ندرك دور الدين في الحياة ، وشدة ارتباط موجهاته بسلوك الأفراد ، والجماعات ، وكان البارودي مفعماً بالثقافة الإسلامية ، وأثر أي ثقافة ينعكس على شعر الشاعر ، وأدائه الفني .

٢. تكرير بعض المعاني الشعرية :

البارودي في تناوله الواسع للقيم الإسلامية ، وتطرقه للعديد من مبادئ الفكر الإسلامي ، لجأ إلى تكرير ، وإعادة كثير من المعاني المرتبطة بها ، ولكنه كرر بعضها تكريراً جيداً يدل على سعة الخيال ، والقدرة على التصرف في أفانين القول ، ومع ذلك قد أعاد بعضها بصورة باهتة لا جديد فيها .

وعليه فإن تكرير المعاني في شعره قد يعود إلى تشابه الأحداث ، وتكررها في الحياة ، وقد تعود إلى وحدة الجو النفسي للشاعر في بعض مراحل حياته ، وإعادة المعاني نفسها ، وتكريرها بأشكال مختلفة لا قيمة لها إلا من الناحية الفنية المتعلقة بالأخيلة ، والألفاظ ، والأساليب . أما فيما دون ذلك فهو ضرب من الحشو .

٣. تداخل القيم الإسلامية :

القيم الإسلامية في شعر البارودي ممتزجة متداخلة ؛ فهو يجمع النصح إلى جانب الموعظة ، والزهد ، ويقرن ذلك بالترغيب في الفضائل ، أما الحكمة فتكاد تكون قدراً مشتركاً بين كل القيم الإسلامية التي يدعو إليها ، ويضمّنها في شعره مما

يؤكد أن الإسلام يتجه اتجاهاً واحداً ، ويدل على أن النزعة الدينية تتملك الشاعر فتتزاخم المعاني المتنوعة في مخيلته ، وربما يكون ذلك بسبب تشتت خواطره على غرار ما كان للجاهلين من التثقل بين خواطر شتى أثناء خلقهم للعمل الأدبي ، ولكن ما يميز البارودي أن هذا التداخل بين معانيه الإسلامية المتعددة لا تفقد قصائده وحدتها العضوية ، ووحدة الشعور النفسي ، ومن ثم فإن التسلسل السلس لهذه القيم تلغي الفوارق بينها .

٤. النزعة الحزينة :

تسيطر على جل شعر البارودي الإسلامي نزعة حزينة مشوبة بمرارة الألم ، فأغلب الأبيات التي تناول فيها قيماً دينية جاءت في أعقاب بعض الأحداث المأساوية ، أو المؤلمة التي مر بها الشاعر خلال رحلة حياته المثيرة ، وكلما مُني الشاعر بنكسة ، أو واجهته شدة لا طاقة له بدفعها فزع إلى ربه ، وتعلق بالدين ، ومنه كان يستمد القوة ، ويجد فيه ما يعزّيه .

وكانت المحن ، والشدائد التي قاساها الشاعر هي المحرك الأساس لنزعة الدينية ، والحزن مولود شرعي للمحن ، والشدائد .

٥. التوسط والالتزام :

إذا نظرنا إلى المعاني الإسلامية ، والقيم الدينية التي تناولها البارودي لا نجده مترمّماً متطرفاً يتشدد في نظرته ، وآرائه الدينية ، وفي المقابل لا نجده متساهلاً مستهتراً ، أو يقول ما لا يؤمن به . فهو ملتزم بحدود الدين ، وبكل ما توجبه خصال الكرامة ، والسماحة . فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وبلّور آراء ، ومبادئ سامية بدأ بتطبيقها في نفسه ، وتجسيدها في شخصيته فهو لا يدعو إلى البر ، وينسى نفسه .

الباب الثالث الدراسة الفنية

وفيه فصلان :

الفصل الأول : بناء القصيدة .

الفصل الثاني : الصور والأخيلة والموسيقى والوزن والمعاني .

الفصل الأول : بناء القصيدة .

١. المطلع .
٢. المقدمة .
٣. الخاتمة .
٤. اللغة والألفاظ .
٥. الأسلوب .

❖ بناء للقصيدة :

بنى الجاهليون قصائدهم على الأبيات ، واهتموا اهتماماً بالغاً بعدد أبياتها ، وكلما كانت القصيدة طويلة ، ومتنوعة دلّت على النبوغ ، والتقدمة ، وللنقاد في ذلك أحاديث ، وآراء مبسطة في عدد من الكتب النقدية (١) .

أما في العصر الحديث فقد انصبّ الاهتمام على الوحدة العضوية للقصيدة ، وعلى آثارها الجمالية ، أما عدد الأبيات فلم يعد مهماً في تحديد القيمة الفنية للقصيدة ؛ بل إن القصيدة إن كانت قصيرة وجيدة فهي . بلا شك . أفضل حيث تدل على موهبة الشاعر ، ومقدرته الفنية على تركيز المعاني في أضيق حيز مع استيفاء الجوانب الجمالية المرتبطة بها .

وقد نظم البارودي في المطولات ، وأحسن فيها ، وأجاد أيما إحسان ، وإجادة . وإن كنت آخذ عليه تكرير بعض المعاني ، والأفكار . ؛ فكثير من قصائد البارودي تتميز بالاطالة في غير إملال ، وهذا يكثر في أغراض الوصف ، والحديث عن البطولة ، والدعوة إلى المكارم ، وتقديم الموعظة ، والتعبير عن الآلام ، والمآسي ؛ فالبارودي شاعر تقليدي ذو خيال خصب ، له محفوظ ضخم من أشعار النابهين ، والفحول فالمعاني عنده تتولد ، وتتشطر ، وكأنه لا يملك عنان موهبته وخياله ، أو تأبى الموهبة ، والخيال أن ينقادان له ، فيبدع ما يشاء من معان ، وصور ، وأفكار ، وينتقل بحرية من معنى إلى آخر ؛ فتطول القصيدة وتطول .

وهذه الإطالة تدل على عبقرية الشاعر ومقدرته الشعرية الفذة ؛ فالبطولة

(١) راجع على سبيل المثال :

١ . العمدة في محاسن الشعر ، وآدابه ، ونقده ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ١٨٢/١ ، وما بعدها ، طبعة دار الجيل . بيروت ، لبنان ، (ط٥) ، سنة ١٩٨١ م .

٢ . كتاب الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٤٣٣/٢ ، طبعة دار مصعب . بيروت ، لبنان ، سنة

١٩٧٨ م . مزاج روحه ، وقطرات دمه ، وتذوب نفسه حين يتحدث عنها ، فالقيم الإسلامية تسكن نفسه ، وتملي عليه التغيي بها ؛ فيعيش في رحاب الهداية ، وينتقل بروحه إلى عوالم روحية بيضاء لا يستطيع العودة منها إلا بعد أن يستوفيها ، وكل هذا كان يدفعه إلى الإطناب ، والإطالة ، والتكرير .

وكذلك نظم البارودي في المقطوعات القصيرة ، وأجاد فيها أيضاً ، وأغلبها في الحكمة ، والنصح ، الإرشاد ، ومع ذلك فهي ليست في كثرة المطولات ، وله نظم لا يتجاوز البيتين ، أو الثلاثة . (١) .

وشكل القصيدة عند البارودي لا يختلف في شيء عن شكل القصيدة العربية القديمة ؛ فهي تطابق تلك القصائد في النظام العمودي ، وتقسيم البيت إلى صدر ، وعجز ، والتزام القافية ، والروي ، غيرها .

١ . المطلع :

عني الشعراء الجاهليون بمطلع القصيدة ، وعدّوه ركناً مهماً في أركان البناء الفني ، والقصيدة العربية بمقوماتها الموروثة هي النموذج المثالي الذي احتذاه البارودي ، واهتمامه بالمطلع نابع من هذا الاحتذاء ، والتقليد .

والمطلع هو المدخل إلى القصيدة ، وكلما كان هذا المطلع محكماً ، وقوياً أدّى إلى استمالة الأسماع ، وجذب الانتباه ، ومن هنا لا بدّ أن يكون المطلع متناسباً مع موضوع النص ، وهناك بعض الألفاظ ، والعبارات يستحسن اجتنابها في مطلع القصيدة ذكرها ابن رشيق في كتابه (٢) .

وقد ترسّم البارودي خطى الجاهليين في المطلع ؛ فنجدّه يبدأ بالغزل خاصة في شعره البطولي الذي يصف فيه المعارك ، ويتحدث فيها عن الشجاعة ،

(١) انظر على سبيل المثال :

ديوان البارودي ١ / ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، و ٢١٣ / ٣ . ٢٣٢ ، ومن ٤٣٣ . ٤٦٧ ، و ١١٨ / ٤ . ١٣٥ .

(٢) العمدة ١ / ٢١٨ .

والبأس ، وللمرأة تأثير معنوي كبير على الرجل في مقام البطولة ، ومن ذلك قوله في إحدى حماسياته ^(١) .

هَنِيئًا لِرِيًّا مَا تَضُمُّ الْجَوَانِحُ وَإِنْ طَوَّحَتْ بِي فِي هَوَاهَا الطَّوَانِحُ ^(٢)

وبعد ذلك يتخلص الشاعر إلى الفخر ، والحماسة ، والحديث عن الشجاعة ، والبطولة .

وقد يبدأ بالحديث عن الطيف ، والخيال ، وهي أيضاً عادة درج عليها الشعراء القدامى ، ومن ذلك قوله ^(٣) :

صِلَّةُ الْخَيَالِ عَلَى الْبُعَادِ لِقَاءُ لَوْ كَانَ يَمْلِكُ عَيْنِي الْإِغْفَاءُ

يَا هَاجِرِي مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فِي الْهَوَى مَهْلًا فَهَجْرُكَ وَالْمُنُونُ سَوَاءُ

وبعدها ينطلق الشاعر في بيان آثار الهوى ، والجوى في نفسه ، ويعاتب المحبوبة ، ثم يعبر عن تبرمه ، وسخطه على كيد الزمان ، ويشكو جري رياح الأقدار بما لا يشتهي سفن رغباته ، وأمانيه فيقول ^(٤) .

فَعَلَامَ تَخْشَيْنَ الزِّيَادَةَ بَعْدَمَا (أَمِنْ أَزْدِيَارِكَ فِي الدُّجَى الرُّقْبَاءُ)؟ ^(٥)

هِيَ زَلَّةٌ فِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ أَعْقَبَتْ نَفْعًا كَذَلِكَ تَفْعَلُ الْجُهْلَاءُ ^(٦)

فذكره لكلمة (جهلاء) في ضرب البيت الثاني هو بداية التخلص لتقديم النصيح ، والإرشاد ، ولتقديم الحكمة ، والموعظة إذ يقول ^(٧) :

(١) ديوان البارودي ٨٩/١ .

(٢) رِيًّا اسم المحبوبة . الجوانح : أضلاع الصدر . طَوَّحَتْ : قذفت . الطوانح : القوافي ، والمراد من ذلك حمله على ركوب المهالك ، والشدائد .

(٣) ديوان البارودي ١ / ١٠ .

(٤) ديوان البارودي ١ / ١٢ .

(٥) الإزديار : الزيارة . الدجى : جمع دجية ، وهي ظلام الليل .

(٦) زلة : سقطه ، اسم مرة من الزلل .

(٧) ديوان البارودي ١ / ١٠ .

كَيْدُ الْعَبَى مَسَاءَةٌ لِيُضْمِرِهِ وَلِمَنْ يُحَاوِلُ كَيْدَهُ إِرْضَاءٌ (١)

وَالنَّاسُ أَشْبَاهٌ وَلَكِنْ فَرَّقْتُ مَا بَيْنَهُمْ فِي الرُّتَبَةِ الْآرَاءِ (٢)

وَالنَّفْسُ إِنْ صَلَحَتْ زَكَتْ وَإِذَا خَلَّتْ مِنْ فِطْنَةٍ لَعِبَتْ بِهَا الْأَهْوَاءُ (٣)

وفي مقام الهجاء ، وتقبيح الصفات المردولة ، أو إبداء اليأس ، أو سرد المآسي ؛ نجد مطلع البارودي كثيراً ما يتحدث عن الشكوى ، مثل قوله (٤) :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو طُولَ لَيْلَى وَجَارَةٍ تَبَيَّتْ إِلَى وَقْتِ الصَّبَاحِ بِإِعْوَالِ (٥)

أمّا في زهدياته فيأتي بمطلع قوي تهتز له النفوس ، أو تجذبها بقوة كما يفعل الشخص الذي يمسك بتلابيب ثوبك مقرّعاً ، ومهدداً ، وها هو يقول في الزهد (٦) :

إِلَامٌ يَهْفُو بِحِلْمِكَ الطَّرْبُ ؟ أَبْعَدَ خَمْسِينَ فِي الصَّبَا أَرَبُ ؟ (٧)

فهذا الإستفهام الاستنكاري يهبط على السمع ، والقلب فجأة كأنه الصاعقة ، وهو مطلع مناسب في مثل هذه الموضوعات ، ويقول في مطلع قصيدة أخرى زهدية (٨) :

أَيُّ شَيْءٍ يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ ؟ وَالْمَنَايَا خَصِيمَةُ الْحَيَوَانِ (٩)

ومثل قوله في قصيدة زهدية أخرى (١٠) :

(١) الكيد : الخديعة . المساءة : ضد السترة .

(٢) الآراء : جمع رأي ، والمراد به العقيدة ، والمذهب ، والتدبير .

(٣) زكت : استقامت أمورها ، وصلحت أحوالها . الفطنة : الفهم ، والذكاء .

(٤) ديوان البارودي ٢٤٩/٣ .

(٥) الإعوال : رفع الصوت بالبكاء ، وشدة الصراخ .

(٦) ديوان البارودي ٦٨/١ .

(٧) يهفو : يستطير ، ويذهب . الحلم : الأناة ، والوقار ، والعقل . الإرب : الحاجة .

(٨) ديوان البارودي ١٠٧/٤ .

(٩) الحيوان : كل ذي روح .

(١٠) ديوان البارودي ٨٧/١ .

أَبْعَدَ سِتِّينَ لِي حَاجٌ فَأَطْلُبُهَا ؟ هَيْهَاتَ مَا لِأَمْرِي بَعْدَ الصَّبَا حَاجٌ (١)

فهذان المطلعان يداهما قلوب السامعين ، ويبثان الخوف ، والرغبة ، فتجعل النفوس أكثر استعداداً لقبول الموعظة .

أما في الرثاء فهو يبدأ دوماً بمطلع يعطي صورة مؤثرة تناسب الغرض ، وتترك في النفوس أثراً قوياً ، مثل قوله (٢) :

أَيَّدَ الْمُنُونِ قَدَحَتِ أَيَّ زِنَادٍ وَأَطْرَتِ آيَةً شُعْلَةً بِفُؤَادِي

وقوله (٣) :

نَعَاءٍ عَلَيْهِ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ فَقَدْ أَقْصَدْتُهُ أَسْهُمُ الْحَدَثَانِ (٤)

وقوله (٥) :

كَيْفَ طَوْتُكَ الْمُنُونُ يَا وَلَدِي وَكَيْفَ أَوْدَعْتُكَ الثَّرَى بِيَدِي

فكل هذه المطالع توحى بالحزن ، واللوعة ، وفيها تمهيد لطيف لتقبل السامع لما سيأتي بعده .

وعلى عادة العرب يبدأ البارودي أحياناً بالحديث عن الخمر ، وهذا يأتي في سياق الغزل ، أو الذكريات ، ويتخلص بعد ذلك إلى الحماسة ، أو لتقديم الموعظة ، والحث على المكارم مثل قوله (٦) :

(١) حاج : حاجة ، والمراد بها دواعي الصبا ، ورغبات الشباب .

(٢) ديوان البارودي ١٥٦/١ .

(٣) المرجع السابق ٩٩/٤ .

(٤) الثقلان : الإنس ، والجن ، أقصده : أصابته إصابة مباشرة قاتلة . الحدثنان : الليل ، والنهار .

(٥) ديوان البارودي ١٦٨/١ .

(٦) المرجع السابق ٧٣/١ .

أَدْرِ الْكَأْسَ يَا نَدِيمُ وَهَاتِ وَاسْقِنِيهَا عَلَى جَبِينِ الْغَدَاةِ (١)

ومثل قوله (٢):

أَلَا عَاطِنِيهَا بِنْتٌ كَرَمٍ تَزَوَّجَتْ عَلَى نَعَمَاتِ الْغُودِ بَابِنِ سَمَاءِ (٣)

وأحياناً في مقام الموعظة ، وتقديم النصح ، والحكمة يبدأ بالعتاب بحيث يقول هذا العتاب إلى الغرض ، يقول (٤) :

أَطَعْتُ الْغَيَّ فِي حُبِّ الْغَوَانِي وَلَمْ أَخْفِلْ مَقَالَةً مِّنْ نَّهَانِي

فهذا المطلع الذي يعبر عن الندم ، يسهل على الشاعر التخلص إلى تناول القيم الإسلامية ، وما أجمل النصح ، والحكمة التي تأتي في أعقاب الندم ، والتوبة .

وأحياناً يبدأ البارودي قصيدته بمطلع مباشر مما تجعل القصيدة أشبه بالمبتورة ، مثل قوله في الفخر (٥) :

هُوَ مَا قُلْتُ فَأَحْذَرْنَهَا صَبَاحًا غَارَةً تَمْلَأُ الْفُضَاءَ رِمَاحًا

فهذا المطلع مفاجئ يشبه غارة الصعاليك على أحياء العرب ، ويقول كذلك في قصيدة زهدية (٦) :

مَا الدَّهْرُ إِلَّا ضَوْءُ شَمْسٍ عَلَا وَكَوَكَبٌ غَامَ وَنَبْتُ بَقْلٍ (٧)

(١) النديم : المجالس في شرب الخمر . جبين الغداة : يقصد بها الصباح الباكر .

(٢) ديوان البارودي ١٩/١ .

(٣) عاطنيها ناولنيها . بنت كرم : كناية عن الخمر . تزوجت : خلطت ومزجت . ابن السماء : كناية عن الماء .

(٤) ديوان البارودي ٩٣/٤ .

(٥) المرجع السابق ١٠٨/١ .

(٦) المرجع السابق ٢٠٥/٣ .

(٧) الدهر : اسم لمدة ، والمراد به ظواهر الكون . غام : ظهر فيه الغمام فأخفاه . بقل : نبت ، ونشأ .

٢. المقدمة :

سار البارودي على نهج الأقدمين في بناء قصائده ، ولكننا نلاحظه لم يكثر من المقدمات الطللية ، والوقوف على آثار الديار ، ولكنه أكثر من المقدمات التي تتحدث عن أيام الصبا ، وذكريات الشباب ، وهذه المقدمة مناسبة لتناول العديد من الأغراض سواء كانت في البطولة ، والحماسة ، أو في النصيح ، والإرشاد ، والحكمة ، والموعظة ، وغيرها من القيم الإسلامية .

ومن المقدمات الطللية قوله (١) :

أَلَا حَيٍّ مِنْ أَسْمَاءَ رَسَمَ الْمَنَازِلَ وَإِنْ هِيَ لَمْ تَرْجَعْ بَيَانًا لِسَائِلِ (٢)
خَلَاءَ تَعَفَّتْهَا الرِّوَامِسُ وَالتَّقَتْ عَلَيْهَا أَهَاضِيبُ الْغُيُومِ الْحَوَافِلِ (٣)
فَلَأَيَّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَرَسُّمِ أَرَانِي بِهَا مَا كَانَ بِالْأَمْسِ شَاغِلِي (٤)
ومن المقدمات الطللية أيضاً قوله (٥) :

مَالِي وَلِلدَّارِ مِنْ " لَيْلَى " أَحْيِيهَا وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ غَوَانِيهَا مَغَانِيهَا (٦)
دَعِ الدِّيَارَ لِقَوْمٍ يَكْلِفُونَ بِهَا وَاعْكُفْ عَلَى حَانَةِ كَالْبَدْرِ سَاقِيهَا

ونلاحظ في النص الأول أنه قد وقف على الأطلال ، وحيا ديار المحبوبة ، وطلب لها السقيا ، وفي النص الثاني وقف على الأطلال ، وذكر الخمر ، وهذا كثير شائع في الشعر الجاهلي .

(١) ديوان البارودي ١٣٦/٣ .

(٢) حَيٍّ : من التحية مثل قولهم : حَيَّاكَ اللهُ . أَسْمَاءَ : اسم الفتاة التي يقف الشاعر على أطلال ديارها . لم ترجع بيانا لسائل : لم تجب سؤال سائل .

(٣) خلاء : خالية هجرها أهلها . تعفتها : أزالتها ، ومحتها . الروامس : الرياح التي تثير التراب ، وتحمله ، وتغطي به آثار الديار . الأهاضيب : دفعات المطر المتلاحقة . الغيوم : السحب . الحوافل : المجتمعة المتكاثرة ، وهي صفة للغيوم .

(٤) اللَّأَي : الإبطاء ، والاحتباس ، أي عرفته بعد عناء ، وشدة ، وتعب . ترسم : تأمل .

(٥) ديوان البارودي ١٦٤/٤ .

(٦) الغانية : هي المرأة الجميلة التي استغنت بجمالها ، وحسنها الطبيعيين عن الزينة المجلوبة . المغاني : جمع مغنى ، وهو الدار العامرة .

وقد أكثر البارودي في مقدماته من الحديث عن أيام الصيّا ، والشباب ، وذلك أنه عندما يستذكر أيام صباه ، وما فيه من لهو ، وطيش ، وانطلاق ، وفتوة يجد السبيل ممهداً أمامه ليسلك في قصيدته ما يشاء من موضوعات تتصل بالبطولة ، والحماسة ، أو القيم الإسلامية المتعددة التي تزخر بها شعره ، فقال في الرثاء (١) :

أَيْنَ أَيَّامٍ لَدَّتِي وَشَبَابِي أَتْرَاهَا تَعُودُ بَعْدَ الذَّهَابِ

ذَاكَ عَهْدٌ مَضَى وَأَبْعَدُ شَيْءٍ أَنْ يَرُدَّ الزَّمَانُ عَهْدَ التَّصَابِي (٢)

الشاعر هنا يستعرض لهو الشباب ، ثم يتخلص بكل سهولة إلى الموعظة ، والإرشاد إلى الهداية .

وفي قصيدة أخرى يقول (٣) :

رَدَّ الصَّبَا بَعْدَ شَيْبِ اللَّمَّةِ الْغَزْلُ وَرَاحَ بِالْجِدِّ مَا يَأْتِي بِهِ الْهَزْلُ (٤)

وَعَادَ مَا كَانَ مِنْ صَبْرٍ إِلَى جَزَعٍ بَعْدَ الْإِبَاءِ وَأَيَّامُ الْفَتَى دُولُ (٥)

وبعد أن يستطرد في التعبير عما ألم به من الأشواق ، والهيام ؛ ينطلق في التلغني بالفخر ، والبطولة ، وتعدد المآثر .

ويقول (٦) في قصيدة أخرى :

ذَكَرَ الصَّبَا فَبَكَى وَلَاتَ أَوَانٍ مِنْ بَعْدِ مَا وَلَّى بِهِ الْمَلَوَانِ (٧)

هَيْهَاتَ يَرْجِعُ فَاثَتْ لَعِبَتْ بِهِ عُصْرُ الْأَوَائِلِ أُرْدِفَتْ بِنُؤَانِي

ويقول في مقدمة أخرى (٨) :

تَوَلَّى الصَّبَا عَنِّي فَكَيْفَ أُعِيدُهُ وَقَدْ سَارَ فِي وَادِي الْفَنَاءِ بَرِيدُهُ ؟

(١) ديوان البارودي ٤٠/١ .

(٢) التصابي : زمن الشباب ، ودواعي الهوى .

(٣) ديوان البارودي ١٥١/٣ .

(٤) اللمة : الشعر . الهزل : المزاح .

(٥) الجزع : شدة الحزن . الإباء : الامتناع ، والاستعصاء . دول : متداول ، متقلب ، متغير .

(٦) ديوان البارودي ١٤٢/٤ .

(٧) الملوان : الليل ، والنهار .

(٨) ديوان البارودي ١٤٥/١ .

والحديث عن الصبا ، وذكريات الشباب كثير في مقدمات البارودي ؛
فالشاعر شديد الارتباط بماضيه من العنفوان ، والفتوة ، والقوة فضلاً عن أن الحديث
عن الصبا يسهل له التخلص إلى كثير من أغراضه الشعرية .
وعموماً فإن مقدمات البارودي تمتاز بالقوة ؛ فهي تلائم الموضوعات ، مثل
قوله ^(١) في الرثاء :

هَوَى كَانَ لِي أَنْ أَلْبَسَ الْمَجْدَ مُعْظَمًا فَلَمَّا مَلَكَتِ السَّبْفَ عَفْتُ التَّقْدُمًا ^(٢)
وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا رَأَى مَا يَسُرُّهُ مِنَ الْعَيْشِ هَمًّا يَتْرُكُ الشُّهْدَ عُلُقَمًا ^(٣)
وَأَيُّ نَعِيمٍ فِي حَيَاةٍ وَرَاءَهَا مَصَائِبُ لَوْ حَلَّتْ بِنَجْمٍ لِأُظْلَمًا ^(٤)

فهذه المقدمة قوية تناسب الغرض . الرثاء . وتهيي النفوس لسماع المآسى ،
والأحزان التي يؤد الشاعر بثها ، والتعبير عنها .
٣ . الخاتمة :

لا تقل الخاتمة أهمية عن المطلع ، والمقدمة فهي جزء مهم مكمل لبناء
القصيدة ، وصورتها ، ولا يجمل بالشاعر أن يبتز قصيدته فجأة فتولد ناقصة ، وهي
دلالة الضعف ، والقصور ، ولا بدّ للشاعر أن يتدرّج حتى يصل إلى الخاتمة بسلام
، وهذا يشبه الشخص الذي يريد النزول من أعلى ؛ فهو إن قفز أضرّ بنفسه ، وإن
تمهّل ، وتدرّج فاز ، ونجا ، وكذا القصيدة .
وقد اهتم البارودي بالخاتمة ، وكان يصوغها حسب موضوع القصيدة ، ولذا
تميّزت الخاتمة عنده بأنها قويّة شافية .

وعلى عادة العرب كان يختم بطلب السقيا مثل قوله ^(٥) :

(١) ديوان البارودي ٣/ ٣٩٤ .

(٢) معلما : ظاهراً متميزاً .

(٣) الشهد : العسل ما لم يعصر من شمعته . العلقم : الحنظل .

(٤) لو حلت بنجم لأظلم : كناية عن شدة هذه المصائب ، والدواهي .

(٥) ديوان البارودي ١/ ١١٠ .

فَسَقَاهُمْ مُنْزِلُ الْغَيْثِ سَجَلًا يَجْعَلُ النَّبْتَ لِلْعَرَاءِ وَشَاخًا (١)

وكثيراً ما كان يختم بالحكمة مثل قوله (٢) :

شَقَى ابْنُ آدَمَ فِي الزَّمَانِ بِعَقْلِهِ إِنَّ الْفَضِيلَةَ آفَةُ الْعُقَلَاءِ .

ومثل قوله (٣) :

وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ بَدْءٌ وَعَاقِبَةٌ وَكَيْفَ يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ الزَّمَنُ ؟

وأيضاً كثيراً ما كان يختم بالحماسة ، والفخر ، مثل قوله (٤) :

فَلَوْ بَرَزَ الْحِمَامُ إِلَيَّ شَخْصًا دَلَفْتُ إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ الْيَمَانِي (٥)

وكذلك كان يختم ببعض المعاني الروحية مثل الثقة بالله ، وشكره ، والتوكل

عليه ، والرضا بمشيئته ، ولهي من أروع الخواتيم ، مثل قوله (٦) :

إِنِّي . وَإِنْ طَالَ الْمِطَالُ . لَوَاقِقُ بِرَحْمَةِ رَبِّي فَهُوَ ذُو الطَّوْلِ وَالْمَنِّ

ومثل قوله (٧) :

صُورٌ تَدُلُّ عَلَى حَكِيمٍ صَانِعٍ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَبْرَأُ (٨)

وقصائد البارودي بحسبانها أعمالاً شعرية مكتملة الأجزاء ، متينة البناء

فإن المطلع ، والمقدمات تتناسب ، وتتسجم مع الخواتيم مما منح قصائده ، وشعره

هذه المكانة الفريدة في الأدب العربي عموماً ؛ فنجد في شعره لمحات فنية قوية ،

تدل على عبقرية ، وموهبة فطرية ، فاستمع إليه يختم إحدى قصائده البطولية

قائلاً (٩) :

(١) مَنْزِلُ الْغَيْثِ : هو الله سبحانه وتعالى . السجل : الدلو الكبير . الوشاح : الثوب الرقيق .

(٢) ديوان البارودي ١٧/١ .

(٣) المرجع السابق ٤٢/٤ .

(٤) المرجع السابق ٩٨/٤ .

(٥) دلفت : تقدمت . اليماني : السيف المنسوب إلى اليمن ، وكانت مشهورة بصناعة السيوف ، وتجاريتها .

(٦) ديوان البارودي ٢٤/٤ .

(٧) المرجع السابق ١٩/١ .

(٨) يبرأ : يخلق .

صَبَرْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ سَمَاوُهَا وَأَنِّي صَبُورٌ إِنْ أَلَمَ بِي الْخَطْبُ

وكان مطلع القصيدة :

وَلَمَّا تَدَاعَى الْقَوْمُ وَاشْتَبَكَ الْقَنَا وَدَارَتْ كَمَا تَهْوَى عَلَى قُطْبِهَا الْحَرْبُ

ومثل قوله في الحث على المكارم ، والحرص على المحامد خاتماً القصيدة

بقوله (١) :

لَا يَقْعُدُ الْبَطْلُ الصَّنْدِيدُ عَنْ كَرَمٍ مَنْ جَادَ بِالنَّفْسِ لَمْ يَبْخُلْ بِمَا كَسَبَا (٢)

وكان مطلع القصيدة :

مَنْ صَاحَبَ الْعَجَزَ لَمْ يَظْفَرْ بِمَا طَلَبَا فَارْكَبْ مِنَ الْعِزِّ طَرْفًا يَسْبِقُ الشُّهْبَا (٣)

ومثل قوله في الفخر بأمجاد الأمة المصرية حيث ختم القصيدة قائلاً (٤) :

فَلْيَنْظُرِ الْمَرْءُ فِيمَا قَدَّمَتْ يَدُهُ قَبْلَ الْمَعَادِ فَإِنَّ الْعُمْرَ لَمْ يَدُمْ (٥)

وكان مطلع القصيدة قوله (٦) :

بِقُوَّةِ الْعِلْمِ تَقْوَى شَوْكَةُ الْأُمَمِ فَالْحُكْمُ فِي الدَّهْرِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَلَمِ (٧)

فالبارودي بدأ بالحكمة ، وختم بها ، حتى لتكاد تصلح الخاتمة أن تكون

المطلع .

وهكذا جاء البناء الفني في شعر البارودي قوياً متماسكاً ، يشدّ بعضه بعضاً

، جعلت من قصائده أشبه بالأبنية الراسخة الموطدة .

(١) ديوان البارودي ٥٣/١ .

(٢) الصنديد : البطل الشجاع .

(٣) العزم : الإرادة القويّة القاطعة . الطرف : الكريم من الخيل . الشهب : ما ينقض من الكوكب ليلاً .

(٤) ديوان البارودي ٢٧٩/٣ .

(٥) نظر الإنسان في الأمر : تدبره . ما قدمت يده : كناية عن الأعمال ، والسلوك ، والتصرفات . المعاد :

الرجوع ، والمصير إلى الله يوم القيامة .

(٦) ديوان البارودي ٢٦١/٣ .

(٧) قوة العلم : المراد به انتشاره ، واتساعه ، وشموله . الشوكة : القوة ، والبأس . الحكم : السلطان ، والملك .

٤ . اللغة والألفاظ :

أ. اللغة :

قوام لغة البارودي ثلاث لغات ^(١) هي اللغة التركية ، وهي لغته العنصرية ، كانت تتحدث بها الأسر الكريمة في مصر حينذاك ، واللغة الفارسية التي كانت وثيقة الصلة بالتركية ، بل إن اللغة التركية كانت تدرس في المدارس المصرية ، واللغة الثالثة هي اللغة العربية ، لغة عقيدته ، وأدبه ، ولغة أمته المصرية ، والعالم العربي الذي يخاطبهم بشعره .

ولكل لغة من هذه اللغات أثرها في ملكة البارودي ، فقد أعانته على الغوص في أعماق الآداب التركية ، والفارسية ، والعربية فانتنقى منها ما أراد من المعاني ، والتراكيب ، والصور الشعرية مما أعانه على إحكام صنعته .

ولغة البارودي متأثر إلى حد كبير بطبيعة قصيدته ، ووظيفتها ، فلغته تغلب عليه التصوير الحي مما يمنح عباراته حياةً ، وقوةً ، وإيحاءً ؛ فقد كان يهتم اهتماماً بليغاً بالألفاظ ، وإيحاءاتها ، وكل صورته مائجة بالحركة ، والمشاهد الحية ؛ فالقصائد عنده لوحات حية ، فهو يرسم المعاني ، ويجسد الأفكار ، ومن هنا كان يتخير الألفاظ الموحية ، واللغة السليمة ضرورة تفرضها عليه طريقته في التعبير ، والتصوير .

ومع تسليمنا بجزالة البارودي ، وارتياحه منابع الشعر العربي إلا أنه لكل جواد كبوة ، فنجد في شعره بعض الهنات اللغوية ، فهو يستخدم بعض الألفاظ غير الموجودة في المعاجم اللغوية ، ولا تعين عليها الإشتقاقات الصرفية ، وهذه الأخطاء مبسوبة في كتاب عمر الدسوقي ^(٢) ، وليس هنا مجال استقصائها . وإذا أخذنا في الاعتبار أنّ هذا الشاعر لم يدرس اللغة العربية ، ولا قواعد النحو أو الصرف ، بل اعتمد في قرض الشعر السليم على ما قرأه للشعراء القدامى ، تعينه

(١) الأدب العربي وتاريخه ٤١٨/٣ ، وما بعدها .

(٢) في الأدب الحديث ٣٤/٣ ، وما بعدها .

ذاكرته القوية ، فإذا أخذنا في الاعتبار هذا قد نجد له العذر في هناته اللغوية تلك ، وإن كانت تلك الهنات في ذاتها تافهة لا تحطّ من قدر الشاعر ، وشعره الجيد الرائد .

ب . الألفاظ :

اعتمد البارودي في صياغته على الألفاظ الرصينة الجزلة ^(١) التي استخرجها ، وانتقاها من التراث الشعري الذي اطلع عليه ، فجاءت قصائده شامخة متينة البناء ، وكان يختار الألفاظ المتناغمة ذات الجرس الموسيقي مما أثر إيجاباً على موسيقى شعره .

والألفاظ البارودي كلها رشيقة سائقة متسقة مع بعضها أروع انساق كأته عقد منظوم ، فلا نجد كلمة شاذة ، أو نابية ، أو مستكرهة ، وهذا يعود إلى العوامل الآتية :

١- عكوفه على نماذج الشعر العربي في عصور قوة الأدب مما أتاح له ذخيرة لغوية ضخمة ، فقد قرأ دواوين مشاهير الشعراء ، والفحول ^(٢) ، وحفظ العديد من النصوص الجيدة ، فكان يتخير منها أحلى الألفاظ التي تتناسب المعاني ، فجاءت ألفاظه منتقاة بعناية تدل على ذوق صاحبها . إذن فقد صفى لفظ البارودي ، وصقل بفضل محفوظه الكبير من الشعر العربي ، وبفضل اطلاعه الواسع على النماذج الشعرية الممتازة في العصور الذهبية للأدب العربي .

٢- الإطلاع على القرآن الكريم منذ بواكير حياته ، والقرآن هو المنبع العذب للغة العربية ، فقد نزل بلسان عربي مبين ، كما درس بعض علوم القرآن ^(٣) فملك زمام اللغة ، وإليك بعض النماذج الدالة على هذا التأثير العميق بألفاظ القرآن :

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٢٨ .

(٢) في الأدب الحديث ١٨٣/٣ .

(٣) الأدب العربي وتاريخه ٤٠٦/٣ .

فقد قال ^(١) يصف الأعداء في بعض الأراضي الروسية ^(٢) عندما ذهب ليحارب هناك :

يَخُورُونَ حَوْلِي كَالْعُجُولِ وَيَعْضُهُمْ يَهْجُنُ لَحْنُ الْقَوْلِ حِينَ يُجِيدُ ^(٣)
فقد اقتبس قوله (لحن القول) من قوله تعالى ﴿... وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ...﴾ ^(٤) .
ومن ذلك قوله في الموعظة ^(٥) :

فَطُوبَى لَامِرِي غَلَبَتْ هَوَاهُ بِصِيرَتُهُ فَبَاتَ عَلَى رَشَادٍ ^(٦)
فلفظ (طوبى) من ألفاظ القرآن الأصيلة يقول تعالى : ﴿... طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ ^(٧) .
وقوله أيضاً ^(٨) :

وَلَكِنْ لِأَحْكَامِ الْهَوَى جَبَرِيَّةٌ تَبُوحُ لَهَا الْأَنْفَاسُ وَهِيَ تَقُورُ ^(٩)
فلفظ (تقور) في قول الجبار : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَقُورُ﴾ ^(١٠) .
وقوله ^(١١) :

(١) ديوان البارودي ١٤٤/١ .

(٢) وكان ذلك في منطقة (سرنسوف) وهي مقاطعة كبيرة بأكرانيا الروسية ، وعاصمتها (سرنسوف) باسمها .

(٣) يخورون : من الخوار ، وهو صوت البقر . يهجن : من التهجين ، وهو الخلط بمعنى أن من يجيد الحديث منهم يخلط بين العربية ، والعجمية . لحن القول : معناه ، وفحواه .

(٤) سورة محمد ، الآية : ٣٠ .

(٥) ديوان البارودي ٢١٢/١ .

(٦) طوبى : هو اسم للجنة ، وقيل شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها خمسمائة عام .

(٧) سورة الرعد ، الآية : ٣٠ .

(٨) ديوان البارودي ١٨/٢ .

(٩) تقور : تشتد .

(١٠) سورة الملك ، الآية : ٧ .

(١١) ديوان البارودي ٨٧/٢ .

ظُلْمَةٌ مَا إِنَّ بِهَا مِنْ كَوَكَبٍ غَيْرِ أَنْفَاسٍ تَرَامِي بِالْشَّرِّ

فعبارة (ترامي بالشر) مقتبسة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ ﴾ (١) .

ولا يكتفي البارودي بأخذ الألفاظ من القرآن الكريم بل يأخذ بعض التعبيرات القرآنية بألفاظها مثل قوله (٢) :

(وَلَى وَلَمْ يُعَقِّبْ) سِوَى حَسْرَةٍ بَيْنَ الْحَشَا كَالصَّارِمِ الْمُنتَضَى (٣)

فعبارة (ولى ولم يعقب) مأخوذة من قول المولى . جل وعلا . في سياق قصة موسى . عليه السلام . : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ... ﴾ (٤) .

وقوله (٥) :

(وَذَرَهُمْ يَخُوضُوا) إِنَّمَا هِيَ فِتْنَةٌ لَهُمْ بَيْنَهَا عَمَّا قَلِيلٍ مَصَارِعُ (٦)

فعبارة (ذرهم يخوضوا) نجدها في قوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (٧) .

ومثل قوله (٨) في الحث على البطولة :

فَكُونُوا (حَصِيدًا خَامِدِينَ) أَوْ افْرَعُوا إِلَى الْحَرْبِ حَتَّى يَدْفَعَ الضَّيْمَ دَافِعُ (٩)

(١) سورة المرسلات ، الآية : ٣٢ .

(٢) ديوان البارودي ١٥٦/٢ .

(٣) ولى : أدبر ، وهرب . لم يعقب : لم يخلف ، ولم يلتفت ، وهذا كناية عن الجد ، والاجتهاد في الهرب . المنتضى : المسلول المجرد من غمده .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٣١ .

(٥) ديوان البارودي ١٨٢/٢ .

(٦) ذرهم : اتركهم ، ويقصد بذلك الناس أي : لا تعبأ بهم ، ولا تكثر لهم . يخوضون : يتكلمون في الباطل ، والفتنة ، والشر . مصارع : مهالك ، وهو الموت .

(٧) سورة المعارج ، الآية : ٤٢ .

(٨) ديوان البارودي ١٨٧/٢ .

(٩) الحصيد : الزرع المحصود . خامدين : موتى ، وأصله من خمدت النار إذا سكن لهبها .

فعبارة (حصيداً خامدين) نجدها في قول المولى الكريم: ﴿ ... حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾^(١) .

٣- الاعتماد على أسلوب الصنعة ، وذلك بتتقيح شعره ، وتجويده حتى يخرج في أكمل صورة ، وأبهاها ، فهو لا يرسل على عواهنه القول .

البارودي شاعر يطلب إرضاء الأذن فلا يزال يلائم بين الكلمة ، والكلمة ، وينسق ، ويلائم بين الكلمة ، والمعنى يعينه ذوقه المرفه الدقيق على اختيار الألفاظ ، ويعينه أيضاً ما أحاط به من الشعر العربي القديم^(٢) فقد صار لديه ذات الموهبة التي كانت للأقدمين في اختيار ألفاظهم .

والبارودي كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب ، وصقل ، وجهد متصل ، وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكفي . رغم سليقته المواتية . ولذلك كان يتعهد شعر التهذيب ، والتتقية ، فجاءت ألفاظه سلسلة لا نكارة فيها سوى بعض الصعوبة ، وكان يهتف بشعره ليسمعه بأذنه حتى يدرك ما فيه من خلل ، أو اضطراب . وحتى يتبين مواضع العيب ، وهذه الناحية أدت إلى سلامة الموسيقى ، وانسجام الرنين ، والأجراس الصوتية ، واتساقها ، فخلى شعره من السقم ، وعيوب الشعر ، فقد كان ينشد شعره لنفسه جهرة^(٣) :

وَاهْتَفَّ بِهِ مِنْ قَبْلِ إِطْلَاقِهِ فَالْسَّهْمُ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّامِي

٤- المنهج ، والأسلوب الذي اتبعه في النظم ، فقد اتبع منهج الجزالة ، و اختار أسلوب التقليد ، وهذان كانا يفرضان عليه اختيار الألفاظ الفصيحة . وإن كانت غريبة . ليصل بفنه إلى فن القدماء الذين اتخذ منهم مثلاً أعلى يحتذيه .

٥- الموهبة الفنية ، والذوق الرفيع ، والثقافة القوية التي كانت تيسر له اكتشاف الألفاظ المناسبة ، والتعابير الرنانة التي تكسب نظمه الشعري قوة ، وإيحاء ، وبفضل هذه الموهبة كان لشعره أثر قوي ؛ فالألفاظ هي التي تبني هيكل القصائد

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٥ .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٢٠٢ .

(٣) ديوان البارودي ٥٣٢/٣ .

، فإذا كانت جزلة رشيقة كان البناء الشعري متيناً متماسكاً ، وإن كانت ضعيفة كان البناء الشعري واهياً مضطرباً .

وبما أن الألفاظ هي التي تخدم المعاني ، وتؤثر تأثيراً كبيراً في الموسيقى ، وتطبع الأسلوب الشعري بطابع محدد ، فإن البارودي قد أولى الألفاظ عناية حقيقية ، فبحث عنها في مواطنها الأصيلة ، ومنابعها العذبة .

وقد كان البارودي يتخير الألفاظ المناسبة لمعانيه فيرق ، ويلطف ، ويشد حين تقتضى الضرورة ^(١) ، فعندما يفخر نجد ألفاظه قوية صلبة تناسب المقام . وعندما يتناول بعض القيم الإسلامية ، والغزل ، أو يتناول بعض ذكرياته العذبة يأتي بألفاظ رشيقة دالة على الحيوية ، والنشاط ، وعندما يشكو ، أو يتبرّم ، أو يحكي مأساته ، أو يعبر عن بعض معاني الزهد ، والموعظة فألفاظه تفيض ألماً ، وتتضح حزناً .

(١) في الأدب الحديث ١٨٩/٣ .

٥. الأسلوب :

الأسلوب هو الاختيار الواعي لأدوات التعبير الأدبي ، وقد اختار البارودي أسلوباً يقوم على الإحكام ، والتلاحم ؛ فالمعاني تتولد بعضها من بعض ، فكل معنى يسلم إلى تاليه في تدرج ، وتسلسل سهل ، ولذلك فإن القصيدة عنده ليست مجرد انطباعات نفسية تجمعها قافية ، ووزن فحسب ، بل إن أسلوبه جعل من قصائده أعمالاً فنية مترابطة لها بدء يتدرج فيه على مراحل حتى يصل إلى غاية معينة ^(١) . ويتميز أسلوب البارودي في عمومته بالموضوعية الجادة في تناوله للأفكار وفي إيراده للمعاني ، مع اهتمامه بموسيقى العرض الفني ؛ والعرض الفني الجميل هو الذي جعل البارودي يبلغ بشعره ذرا المجد التليد ^(٢) .

وشعر البارودي يغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى ، والأسلوب ، فأسلوبه قائم على تقليد الأقدمين ^(٣) ومعارضتهم ، وكثيراً ما نجده متأثراً بالصورة الشعرية القديمة ، أو تحويلها مع إضافة بصماته إليها ، أو بمزجها ببعض الصور الحديثة ، وهو ما يمكن أن نسميه بالصورة الشعرية المهجنة ، وقد يتحول بالمعنى الطارئ حتى لنحسبه المعنى الأصلي ، وهذا الأسلوب نجده بكثرة في تناوله البطولة ، ووصف مشاهد الحروب ، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين ، والمخضرمين ^(٤) ، وكذلك يتحول بالمعنى عندما يتناول بعض القيم الإسلامية ؛ ففي قصيدته التي يمدح فيها النبي ﷺ . ينتقل من الحديث عن الهجرة إلى وصف الحمامتين ، والعنكبوت ، وغيرها من المعاني الإضافية ، وهذا ليس حشواً بل محاولة من الشاعر لاستيفاء المعاني .

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٣٣ .

(٢) دراسات في الأدب العربي على مر العصور ص : ٩٦ .

(٣) الشعر العربي الحديث والمعاصر ص : ٦٤ .

(٤) شعراء خالدون ص : ١٩٨ .

ولا شك أن البارودي شاعر فحل . بالمنظور القديم . لجأ إلى الأساليب القوية ذات الصياغة المتينة ، معوّلاً على مناهج الأقدمين ، مبالغاً فيها حتى تعدّى عصره ، واخترق الحواجز الزمنية ليحلّق في سماوات القدماء فجاء أسلوبه الشعري متناغماً مع شخصيته ، واتجاهه الفني ، وهي تعكس بوضوح الدوافع التي جعلته يميل إلى البطولة ، والحماسة .

ومن أساليب البارودي الاستفهام الذي يلقي حول الموضوع ظلالاً وارفة من الدلالات المتصلة بها ، والاستفهام يؤكد المعنى ، ويقويه ، ومن ذلك تساؤله عن حتمية الموت ، والفناء ^(١) :

فَعَلَامَ يَخْشَى الْمَرْءُ صَوْعَةَ يَوْمِهِ ؟ أَوْ لَيْسَ أَنَّ حَيَاتَهُ لِنَفَادٍ ؟ ^(٢)

يتساءل البارودي متهكماً كيف يخشى الإنسان الموت مع يقينه بحتميته ؟ وهذا سؤال جيّد يأخذ النفس إلى آفاق بعيدة نحو عالم الأموات ، والقبور ، وفي ذكر الموت جلاء القلوب إن ران عليها النسيان .

وأحياناً يأتي بتساؤلات أقرب إلى سخرية من إدراك حقيقة غفل عنها الآخرون ، وهو أسلوب تهكمي مقبول يردع المتجبرين التائهيين في ظلمات الغي ، فيسائلهم عن قيمة الجبروت أمام سطوة الموت ، ويسائلهم عن دواعي صمت من مات منهم ، ومثل هذه التساؤلات تفعل فعلها في النفوس مما تجعلها تحس بهوانها ، وضياعها ، ومن ذلك قوله ^(٣) :

أَيُّهَا السَّادِرُ قُلْ لِي أَيْنَ ذَاكَ الْجَبَرُوتُ ؟ ^(٤)

كُنْتُ مَطْبُوعًا عَلَى مِ النَّطْقِ فَمَا هَذَا الصُّمُوتُ ؟ ^(٥)

لَيْتَ شِعْرِي أَهْمُودٌ مَا أَرَاهُ أَمْ قُنُوتٌ ؟ ^(٦)

(١) ديوان البارودي ١٦٦/١ .

(٢) صولة اليوم : الموت ، أو الهلاك .

(٣) ديوان البارودي ٧٩/١ .

(٤) السادر : التائه في الغي لا يهتم بأمر ، ولا يكثرث لشيء ، ولا يبالي ما ضاع . الجبروت : الكبر .

(٥) الصموت : السكوت ، من الصمت .

(٦) الهمود : الموت . القنوت : الخشوع ، والسكون .

- أَيْنَ أَمْلَاكَ لَهُمْ فِي كُلِّ أَفْقٍ مَلَكُوتٌ (١)
 زَالَتْ التَّيْجَانُ عَنْهُمْ وَخَلَّتْ تِلْكَ التُّخُوتُ (٢)
 أَصْبَحَتْ أَوْطَانُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهِيَ خُبُوتٌ (٣)
 لَا سَمِيعٌ يَفْقَهُ الْقَوْلَ وَلَا حَتَّى يَصُوتُ (٤)
 عَمَرَتْ مِنْهُمْ قُبُورٌ وَخَلَّتْ مِنْهُمْ بُيُوتٌ (٥)
 لَمْ تَدُدْ عَنْهُمْ نُحُوسَ الدَّهْرِ إِذَا حَانَتْ بُخُوتٌ (٦)

يهدف البارودي من طرح هذه الاستفهامات ، والتساؤلات الواقعية المؤثرة إلى التمهيد لما يريد أن يذيعه من قيم ، ويوضحه من حقائق ، وذلك بوصف ما يستتبع الأحوال المرتبطة بالأمر التي استفهم عنها ، فهو بعد أن سأل عن الجبابة وما آل إليه أمرهم بعد الموت ، أخذ يجيب عن بعض هذه التساؤلات بأنهم فقدوا تيجانهم ، وكراسي ملكهم ، وتركوا ديارهم ، وقصورهم العالية ليعيشوا في حفر تحت الأرض بين الدود ، والتراب ، ولم يستطع أن تدفع عنهم كيد الدهر .

ثم يخلص من الاستفهام ، وأجوبته إلى الحقيقة ، والنتيجة التي يريد أن يقتنع بها الناس فيقول:

- إِنَّمَا الدُّنْيَا خَيَالٌ بَاطِلٌ سَوْفَ يَفُوتُ (٧)
 لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ قُوْتُ (٨)

(١) ملكوت : الملك ، والعز .

(٢) التُّخُوت : الكراسي التي يجلس عليها الملوك ، والأباطرة .

(٣) الخبوت : المكان المتسع في باطن الأرض ، ربّما أراد بها قبورهم التي سكنوها بعد القصور .

(٤) يصوت : يصدر صوتاً عالياً .

(٥) البيت كله كناية عن موتهم ، و مفارقة دار عزهم ، وملكهم .

(٦) بخوت : جمع بخت ، وهو الحظ ، و الفأل الحسن ، وحسن الطالع .

(٧) خيال باطل : يقصد بها حتمية زوالها .

(٨) قوت : يقصد أن التقوى تنتفع الإنسان في رحلة الموت مثل القوت الذي ينتفع به الإنسان في رحلات حياته .

وأسلوب البارودي هنا جيد في الاقناع بعد هذا التدرج ، والتسلسل الرائعين ،
ويستخدم البارودي الاستفهام بدلالاته المختلفة في مجال الاقناع ، وتقوية المعاني ،
ومن ذلك الاستفهام الدال على النفي في سياق اللوم ، والعتاب على عدم التزام
المكارم ، والمعروف حيث قال (١) :

أَيُّ مَنْ رَأَى فَاسِدًا صَلَحَ ؟

وقوله في سياق الموعظة ، والزهد (٢) :

وَأَيُّ حَيٍّ . وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ . يَبْقَى ؟ وَأَيُّ عَزِيزٍ لَيْسَ يُمْتَنَّهُ ؟ (٣)

والاستفهامان هنا يفيدان النفي ، ويؤكدان أن الأحياء من الخلق لا يعيشون
طويلاً ، وإن طالت سلامتهم .

ومن ذلك الاستفهام الدال على التعجب في مثل قوله (٤) :

وَكَيْفَ تَنَالُ النَّفْسُ فِي الدَّهْرِ عَيْشَةً تَلْذُّ بِهَا وَالدَّهْرُ غَيْرُ مُسَالِمٍ ؟

فالشاعر يعجب من الشخص الذي يطمع في الحياة ، والعيش الآمن الرغيد
مع علمه بأن للدهر وثبات ؛ فالدهر بالمرصاد لا يلبث أن يفجأه بالمكاره ، والبلايا ،
والنكبات .

ومن ذلك الاستفهام الذي يفيد التمني في مثل قوله في معرض الحديث عن
بطولته ، ورغبته المكبوتة في خوض غمار الحروب الطاحنة (٥) :

فَمَنْ لِي . وَالْأَمَانِي كَاذِبَاتٌ . بِيَوْمٍ فِي الْكَرِيهَةِ أَرْوَانِ

فالاستفهام هنا يؤكد هذه الرغبة البطولية ، و يقوي من الإحساس بها .
ومثله قوله عن بطولته (٦) :

(١) ديوان البارودي ١٠٤/١ .

(٢) المرجع السابق ٣٧/٤ .

(٣) يمتن : من الامتحان ، وهو الابتذال ، والتعرض للنكبات ، والمنغصات .

(٤) ديوان البارودي ٤٦٣/٣ .

(٥) المرجع السابق ٦٥/٤ .

(٦) المرجع السابق ٤٢٢/٣ .

فَأَيُّهَ أَرْضٍ لَمْ تَجْبُهَا سَوَابِقِي وَغَمْرُهُ بِأَسٍ لَمْ تَخُضْهَا صَوَارِمِي ؟ (١)

والاستفهام يفيد النفي ؛ فالشاعر ينفي أن يكون هناك أرض لم تجر فيه خيله ، وينفي أن تكون هناك معركة لم تلمع فيها سيوفه ، بمعنى أنه قطع بخيله كل بقاع الأرض مقاتلاً ، وخاض بسيوفه القاطعة كل غمرات البأس ، وهذه مبالغة مقبولة في مقام الحماسة ، والبطولة ، ونرى أن الاستفهام قد قوي من هذا الإدعاء.

ومن ذلك الاستفهام الاستنكاري الذي يقرع النخوة ، ويستفز الرجولة ، والشهامة ، وذلك يأتي كثيراً في مقام الدعوة إلى الفضائل ، والحض على البطولة ، والانتفاض ضد الذل ، والخمول في مثل قوله (٢) :

فَكَيْفَ يَرْضَى الْفَتَى بِالذُّلِّ يَحْمِلُهُ؟ وَالذُّلُّ تَأْنِفُهُ الْعُبْدَانُ وَالْخَدَمُ ؟

الشاعر يستنكر على الفتیان الأحرار رضاهم بالذل ؛ فالعبد الذليل ، والخادم الحقير يستنكف الذل أحياناً ، والهدف من هذا الاستفهام الاستنكاري الحض على إباء الضيم ، والحث على دفع الذل بالكفاح ، وقوة السلاح ، وبذل المهج ، والأرواح .

ومن ذلك الاستفهام التقريري في مقام الموعظة ، والزهد في مثل قوله (٣) :

أَيْنَ الْأَلَى شَادُوا وَبَادُوا ؟ أَلَمْ تَكُنْ نَحْلُ كَمَا حَلُّوا وَتَرَحَّلُ مِثْلَمَا ؟

الاستفهام الأول يبعث على الحيرة مع أن الإجابة معروفة ، ولكنه يأخذ الإنسان إلى التفكير فيما حلّ بهم ، وما آل إليه شأنهم ، والاستفهام الثاني تقريري ، والاستفهام من المؤكدات البلاغية التي تفيد تقوية الكلام .

اعتمد البارودي على الاستفهام في تقوية دعوته إلى الله ، والحث على الخير ، وفي تقديم الموعظة ، فافقرأ قوله (٤) :

(١) تجبها : تجري في نواحيها . السوابق : الخيل المسرعة . غمرة البأس : شدته . الصوارم : السيوف .

(٢) ديوان البارودي ٥٤٠/٣ .

(٣) المرجع السابق ٣٩٧/٣ .

(٤) المرجع السابق ١٨٣/٢ .

- فَأَيْنَ الْمُلُوكُ الْأَقْدَمُونَ تَسْنَمُوا قَلَالَ الْعُلَا ؟ فَالْأَرْضُ مِنْهُمْ بَلَاقِعُ (١)
 مَضَوْا وَأَقَامَ الدَّهْرُ وَانْتَابَ بَعْدَهُمْ مُلُوكٌ وَبَادُوا وَاسْتَهَلَّتْ طَلَائِعُ (٢)
 أَرَى كُلَّ حَيٍّ ذَاهِبًا بِسَيْدِ الرَّدَى فَهَلْ أَحَدٌ مِمَّنْ تَرَحَّلَ رَاجِعُ ؟ (٣)
 أَنَادِي بِأَعْلَى الصَّوْتِ أَسْأَلُ عَنْهُمْ فَهَلْ أَنْتَ يَا دَهْرُ الْأَعَاجِبِ سَامِعُ ؟ (٤)
 فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَسْمَعْ نِدَاءً وَلَمْ تُحَرِّ جَوَابًا فَأَيُّ الشَّيْءِ أَنْتَ أَنْزَعُ ؟ (٥)
 فَمَنْ لِي . وَرَوْعَاتُ الْمُنَى طَيْفٌ حَالِمٍ بِذِي خُلَّةٍ تَزْكُو لَدَيْهِ الصَّنَائِعُ ؟ (٦)

يسأل البارودي في تحد هل أحد ممن ذهب في ركاب الموت يرجع وهذا الاستفهام الذي يفيد النفي فمع كونه سهلاً بسيطاً ، ويبدو سؤالاً ساذجاً ، إلا أن الإجابة المتوقعة تنزل في النفس كالصاعقة ، ويظل صداها يتردد في الأذن زمناً ليس بالقصير .

ثم يخبر البارودي بأنه يسأل الدهر عنهم بأعلى صوته دون أن يدري هل سمعه هذا الدهر أم لا ، ولا شك أن هذا الاستفهام ذو دلالة خاصة في الموعظة ، فهو يبعث على اللهفة ، ويولد الخوف ، ومثل هذه العواطف إن اجتاحت نفس الإنسان ضعف جانب العناد فيها ، وقوي جانب القبول ، والانصياع ، ثم يبين هوان الدهر الذي لا يدري إلى أين يذهب الأموات ، ولا يدرك ما حل بهم .
 والهدف من الاستفهام ، والتساؤلات في الأبيات السالفة هو وعظ الناس ، وكفكة غلوائهم ، واستهانتهم بالموت الذي طالما يعتقدون أنه بعيد عنهم ، والنفوس تخشع لذكر الردى .

(١) تَسْنَمُوا : علوا . القلال : جمع قلة ، وهو رأس كل شيء ، وأعلاه . بلاقع : خالية مقفرة .

(٢) انتاب بعدهم : حل محلهم . بادوا : هلكوا . استهلت : رفعت صوتها . طلائع : جماعات الناس .

(٣) ترحل : رحل ، وانتقل .

(٤) سماها دهر الأعاجيب لما فيها من المتناقضات ، والأحداث المثيرة ، وغير المتوقعة .

(٥) لم تحر : لم تستطع ، ولم ترد . أنزع : أجاذب ، وأخاصم .

(٦) روعات المنى : الأمناني الرائعة .

ومن أساليبه أيضاً ضرب الأمثلة ، وهو نوع من الأساليب التصويرية التي تقرب المعنى ، وتقرر الفكرة ، فتبلغ كل مبلغ ، وتأخذ بخطام اللباب ، وزمام العقول ، ومن ذلك حكمته التي أطلقها و يقول فيها إن الحليم الذي من شأنه أن يحسن معاملة الآخرين قد يسيئ معاملتهم أحياناً ، فلا يجب الركون إلى حلمه على الدوام ، بل يجب الحذر منه ، وتوقع الشر ، والإساءة أن تصدر عنه ، حيث قال (١) :

وَلَا تَحْسَبَنَّ الْحِلْمَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ وَفُوعَ الْأَذَى فَالْمَاءُ وَالنَّارُ مِنْ صَخَرٍ

البارودي يريد أن يقول إن الحليم قد يكون منه الأذى على الرغم من الاختلاف ، والتضاد بين الحلم ، والأذى ، وضرب لذلك مثلاً قوياً ، وهو الحجر الذي يوري ناراً ، ويشقق منه الماء على الرغم مما بين الماء ، والنار من التضاد ، والاختلاف مع أن المصدر واحد ، وكذلك الحلم ، والأذى قد يكون مصدرها واحداً .

وضرب الأمثلة من الأساليب الشائعة في القرآن الكريم ، وفي أقوال المصطفى . ﷺ . ، ونجدها بكثرة في خطب الوعّاظ ، وأهل البيان ، وضرب الأمثلة تنثير العاطفة ، وتوجّه الفكر ، وتسهم في إيصال المعنى ، ومن ذلك قول (٢) البارودي عندما أراد التعبير عن معنى أن العسر يعقبه اليسر ، والشدة يتبعها الرخاء :

فَقَدْ تَوَرَّقُ الْأَشْجَارُ بَعْدَ ذُبُولِهَا وَيَخْضَرُّ سَاقُ النَّبْتِ وَهُوَ هَشِيمٌ (٣)

فهذه الصورة قوية في التعبير ، والمثل المشتمل عليه قويّ الإيحاء بالفكرة. وضرب الأمثلة ، وما فيها من ناحية تصويرية تمنح الكلام جمالاً ، وروعة إلى جانب القوة ، والمولى عز وجل عندما أراد أن يخبرنا عن هول القيامة

(١) ديوان البارودي ١٥/٢ .

(٢) المرجع السابق ٥٢٠/٣ .

(٣) الهشيم : النبات الجاف القابل للهشم ، والكسر .

عرض لنا صورة تعبر عن ذلك بصدق فقال : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

وكذلك عندما أراد البارودي التعبير عن هول القيامة في سياق إحدى مواعظه اتبع الأسلوب القرآني فاكتفى بعرض الصورة المعبرة فقال (٢) :

فَمَهْلًا بَنِي الدُّنْيَا عَلَيْنَا فَإِنَّا إِلَى غَايَةٍ تَنْفَتُّ فِيهَا الْمَرَائِرُ (٣)
تَطُولُ بِهَا الْأَنْفَاسُ بُهْرًا وَتَلْتَوِي عَلَى فَلَكِهِ السَّاقِينَ فِيهَا الْمَازِرُ (٤)

فها هي المرائر تتمزق في أكبادها ، وتتسارع الأنفاس ، ويلهث الناس من الرعب ، والخوف ، وتلتف الساق بالساق . وهذا المثل المصور يعبر عن الهول ، والفرع .

والبارودي متأثر إلى حد كبير بأمثال القرآن الكريم فقد ضرب الله للناس في القرآن من كل مثل ، وهذه الأمثال هي مواقف قد يمر بها الإنسان ، والبارودي يتمثل هذه الأمثال عندما يمر بموقف مشابه ، ومن ذلك قوله (٥) :

كَأَنَّ أَعَالِي الْمَوْجِ عَنْهُمْ مُشَعَّتٌ وَأَنْحِدَارَ السَّبْحِ شَعْرٌ مُفْلَقٌ (٦)
ذَكَرْنَا بِهِ مَا قَدْ مَضَى مِنْ ذُنُوبِنَا وَفِي النَّاسِ إِنْ لَمْ يَرْحَمْ اللَّهُ غُلٌّ (٧)

(١) سورة الحج ، الآية : ٢ .

(٢) ديوان البارودي ٧٣/٢ .

(٣) المراد بالغاية : يوم القيامة . تنفتت : تنقطع ، وتتمزق . المرائر : جمع مرارة ، وهي كيس لاصق بالكبد يحتوي على سائر مر . وتمزق المرائر كناية عن شدة أهوال ذلك اليوم .

(٤) البهر : تتابع الأنفاس من الاعياء . الفلك : فلك كل شيء مستداره . المآزر : جمع مئزر ، وهو : الإزار .

(٥) ديوان البارودي ١٨٨/٣ .

(٦) عهن : الصوف . مشعث : منفوش . السبح : الماء الجاري .

(٧) غفل : جمع غافل ، وهو : القليل التخطيط ، الكثير الإهمال ، السادر في خطاياها .

فهذا هو البارودي قد ركب بحراً فهاجت الأمواج ، وثارت ، وأيقن الجميع بالهلاك فتذكروا ذنوبهم ، وآثامهم في هذا الوقت العصيب ففرعوا إلى الله يستغفرونه يقول الله عز وجل : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ ... ﴾ (١)

قول البارودي السابق يعبر عن هذا المثل القرآني : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

فالبارودي أراد أن يعبر عن قيمة الالتجاء إلى الله في كل داهمة ، ومُلْمة فاتبع الأسلوب القرآني في هذا الصدد .

وكثير ما كان البارودي يخرج القول مخرج المثل ، وهذا يكثر في الحكمة ، والموعظة مما يجعل للكلام طلاوة ، وروعة ، فترسخ في الأذهان بسهولة ، ويسر ومن ذلك قوله (٣) :

أَلَا إِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ وَإِنْ نَمَتْ فَأَرْبَعَةٌ مِنْهَا تَفُوقُ عَلَى الْكُلِّ (٤)
وَقَارَّ بِلَا كِبَرٍ ، وَصَفَحَ بِلَا أَدَى وَجُودٍ بِلَا مَنْ ، وَ حِلْمٌ بِلَا ذُلٍّ (٥)

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من التشويق القائم على التقديم ، والتأخير ؛ فهو عندما ذكر أن أخلاق الرجال أربعة جعل المُتَلَقِّي يتطلع ، ويتشوق لمعرفة هذه الأربعة ، وربما حدثته نفسه بالتزامها فور معرفتها ، فذكرها في شكل أمثلة موجزة حلوة الإيقاع .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٦٧ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ٢٢ .

(٣) ديوان البارودي ٢١٥/٣ .

(٤) نمت : كثرت . تفوق على الكل : تعلو على غيرها من الفضائل .

(٥) الوقار : الرزانة . الكبير : الغرور . المن : الفخر بالنعمة . الذل : الاستكانة للهوان .

ومن أساليب البارودي أنه يستعين ببعض الأخبار التي وردت في القرآن الكريم يدعم بها معانيه ، ويقوّي بها فكرته ، وهو هنا . مثلاً . يستعين بقصة سيدنا آدم . عليه السلام . عندما باع الجنة بالدنيا ، ليحذر الناس من استبدال الآخرة بالدنيا ، وهذا أبلغ في الموعظة ، والدعوة إلى الزهد في نعيم الدنيا التي لا تساوي شيئاً من نعيم الجنة حيث قال (١) :

فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا سَاعَةٌ سَوْفَ تَنْقُضِي وَذَا الدَّهْرُ فِينَا مُولِعٌ بِرَمَاءِ (٢)
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَرْءَ يَبْقَى مُخَلِّدًا فَمَا النِّقْصُ إِلَّا بَعْدَ كُلِّ نَمَاءٍ (٣)
أَبِي آدَمَ بَاعَ الْجَنَانَ بِحَبَّةٍ وَبِعْتُ أَنَا الدُّنْيَا بِجُرْعَةٍ مَاءٍ (٤)

ومن أساليبه استخدام الأمر ، والنهي في الدعوة إلى القيم الدينية ، فهو يأمر صراحة بهجر الرذائل ، وتمتاز أوامره ، ونواهيه بالقوة ، مثل قوله في الموعظة والإرشاد (٥) :

فَاتْرُكِ الْأَدَى فَالْأَدَى تَرَحُّ (٦)

والأمر بهجر المنكرات يكون قوياً إذا كان مصحوباً بما يبرر النهي ، ويظهر الأضرار الناجمة عن عدم امتثال الأمر ؛ فهو يوضح بأن الأذى يسبب لصاحبه الأتعاب ، و الأوجال .

وكذلك يأمر بالترام الفضائل ، والمكارم مثل قوله (٧) :

وَاسْعَ لِلْعُلَا مَنْ سَعَى نَجَحْ

(١) ديوان البارودي ٢١/١ .

(٢) رماء : أي رمى الأحباء ، والأهل ، والأصدقاء بالموت ، والفرار .

(٣) نماء : اكتمال .

(٤) حبة : هي حبة (الحنطة) فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الشجرة التي أكل منها آدم . عليه السلام . هي : الحنطة . جرعة ماء : اليسير من الماء ، وربما يقصد بها جرعة خمر ، وبهذا المعنى يشير إلى الفساد بمعنى أن الإنسان قد يبيع آخرته بفساده في الدنيا .

(٥) ديوان البارودي ١٠٤/١ .

(٦) الترح : الأتعاب .

(٧) ديوان البارودي ١٠٤/١ .

فهذا الأمر مشفوع بما يشجع على امتثاله ، وهو أن كل من سعى للمعالي ، والخير بلغ ما يطمع إليه .

وفي مجال النهي ينهى البارودي عن كثير من الجرائم ، والمفاسد ، والشرور ، وهو نهى أقرب إلى الرجاء ، فقد كان حريصاً على المؤمنين .
ومن أساليبه في الموعظة ، والحث على المكارم الإنذار ، والتحذير ، وهو أبلى من الأمر ، والنهي في الدعوة إلى الفضائل ، وهجر المعاصي ، والمنكرات ، والتحذير أقوى من الأمر المجرد في الدلالة لما ينطوي عليه التحذير من الإحساس بالخطر ، وهو أشبه في حقيقته بالاجتناب الذي حرم الله به الخمر في قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

ويكون التحذير والإنذار بليغاً إذا تعرض للعاقبة ، والمصير ، ويكون أكثر تأثيراً إذا لم يوضح فيه العاقبة ، قال البارودي (٢) :

يَأْيُهَا الظَّالِمُ فِي مُلْكِهِ أَغْرَكَ الْمُلْكُ الَّذِي يَنْفَدُ ؟ (٣)

اصْنَعْ بِنَا مَا شِئْتَ مِنْ قَسْوَةٍ فَإِنَّهُ عَذْلٌ وَالتَّلَاقِي غَدُ (٤)

وهذا تحذير لأهل الجاه ، والسلطان من أن يضلهم الاستبداد ، والسلطة فيظلمون الناس ، ويستضعفونهم ؛ فالله سوف يقتصّ منهم يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو هنا يحذر من عاقبة الظلم مشيراً إلى عدالة الله تعالى ، وهو هنا لا يعظ بصورة مباشرة ، ولكن يقول للظالم المغتر بسلطانه افعل ما شئت في هذه الدنيا الزائلة ، واستعد للآخرة حيث الجزاء الأوفى ، وهو أسلوب يدخل الرهبة ، والحيرة في نفس من كانت هذه حالته .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٩٠ .

(٢) ديوان البارودي ٢١٦/١ .

(٣) أغرك : أطمعك ، وغررك . ينفد : يزول ، ويمحى .

(٤) التلاقي غد : المراد به التلاقي يوم القيامة .

ومن أساليبه أيضاً التقريع ، وهذا الأسلوب يكثر في تناوله للقيم الإسلامية ، ويهدف من هذا الأسلوب إلى إيقاظ النفوس عن طريق هزها بعنف ؛ لأنها غفلت عن أمر لا يمكن إغفاله ، وهو أسلوب حسن يقوّي معنى الكلام ، ومن ذلك يقول .
مقرّعاً . لمن نسي الموت ، أو تناساه ^(١) :

تَعْسَ امْرُؤٌ نَسِيَ الْمَعَادِ وَمَا دَرَى أَنَّ الْمُنُونَ إِلَيْهِ بِالْمَرْصَادِ ^(٢)

فالتقريع بنسيان الموت ، ووثباته يجعل النفوس تستعظم أمره ، وتحسّ بأن الموت أمر لا يمكن إغفاله ، أو التغاضي عنه ، وهي دعوة صريحة إلى الاستعداد للآخرة ، والعمل لها .

ويستخدم البارودي أسلوب التقريع الجماعي بحيث لا يستثني نفسه من الجميع ؛ فهو يدخل نفسه في عموم الناس ، وهذا الأسلوب يرضي النفوس حين يرون أن الناصح ، أو الواعظ لم يبرئ نفسه ، ولم يتفضّل عليهم ، ولم يخرج نفسه من دائرة التقريع ، والعتاب ، ويأتي هذا الأسلوب في سياق الدعوة إلى القيم الفاضلة ، مثل قوله ^(٣) :

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّا نَرَى الْحَقَّ جَهْرَةً وَنَلْهُو كَأَنَّا لَا نُحَازِرُ مِنْدَمًا

البارودي هنا يجمل نفسه مع جملة الغافلين المنغمسين في اللهو ، واللعب المتناسين حقيقة الموت المحدث بهم .
وقال في موضع آخر ^(٤) :

قَدْ بَلَوْنَا كَيْدَ الزَّمَانِ وَلَكِنْ شَغَلْتَنَا عَنْهُ ضُرُوبُ الْأَمَانِي

(١) ديوان البارودي ١٦٦/١ .

(٢) تعس : هلك ، وهو دعاء بالهلاك . المعاد : المرجع ، والمصير ، وهو الموت . المرصاد : هو الطريق الذي يرصد فيه للعدو ، والمراد به طريق الموت .

(٣) ديوان البارودي ٢٩٧/٣ .

(٤) المرجع السابق ١٠٧/٤ .

فالبارودي في قوله : (بلونا . شغلتنا) أدخل نفسه في جملة الناس فلم يترفع بكونه أكثر الناس استقامة ، وهو هنا يقنع الناس من جهة ، ويرضيه من جهة أخرى بأسلوبه مما تطيب له نفوسهم ، فيكون لديهم القبول ، والاستعداد لسماع المزيد ، ويقوي عندهم العزم للعمل به ، كما يقودهم هذا الأسلوب . وما فيه من التواضع . إلى محبته ، ومتى أحب الناس الواعظ انصاعوا له ، ورجبوا فيه ، وفي قوله . وكذلك اعتمد البارودي على أسلوب تزيين الفضيلة ، والمكرمات حيث يذكر الفضيلة ، ويبين أسرار جمالها ، ومكامن فضلها ، ويجعل منها هدفاً سامياً ، وغاية بعيدة ، تغري بالسعي إليها .

وتزيين المكارم ، وتحبيبها إلى النفوس من أقوى أساليب الدعوة إليها ، وحمل الآخرين على اتباعها ، والسير في ركابها ، وتحت لوائها ، أو حتى محاولة اقتباس قبس من ضيائها ، ويأتي تزيين الفضائل من خلال تزيين قيم البطولة ، والفروسية ، والشجاعة ، والتزام المحامد التي دعا الإسلام إليها . وقد كان البارودي يزين الفضيلة من خلال تصوير الهمم الروحية ، والخلجات النفسية ، والطموحات العالية ، ويأتي هذا عبر الحكم ، والأمثال ، والاستشهاد بالوقائع الحربية ، وتمجيد البطولة . ومن أساليبه تقبيح الرذيلة ، وتعريف الناس بمواطن الفساد ، والأضرار الناجمة عنها ، والعقوبات المترتبة عليها ، وكل ذلك أكبر باعث على هجرها ، والابتعاد عنها ، وقد انتهج البارودي هذا الأسلوب مما أسهم في التربية الدينية ، والتربية البطولية ؛ فقد كان ينقّر من آفات البطولة مثل الجبن ، والتقاعد ، والتواكل ، والرضا من الغنيمة بالإياب .

فالبارودي لم يكن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر في صيغ تقريرية جافة ، بل كان يغوص في أعماق المعروف ، وفي أعماق المنكر ، ويكشف في الأولى أسرار الجمال ، ومكامن الفضيلة ، وفي الثانية يكشف مواطن الشر ، ومهاوي الضلال مما يجعل أسلوبه في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر أكثر تأثيراً .

ومن أساليب البارودي في إبراز البطولة الأسلوب الوصفي ؛ والوصف لا يكون أسلوباً أدبياً إلا إذا كان شافياً معبراً عن الفكرة ، وقد كان وصف البارودي

ناطقاً بالأحداث ، ويعطينا المشاهد حيّة متحركة ، مما تسهم في تقوية المعنى ، وقد اتخذ البارودي في الوصف اتجاهين :

الأول : وصف أرض المعركة ، والأهوال التي يلقاها ، والشدائد التي يقاسيها ؛ ليبرز قدرته على اجتياز الصعاب التي تدل على قوة العزم ، ومضاء الهمة ، ورسوخ الإيمان في القلب .

الثاني : كان يصف الحروب ، وما فيها من شدة ، وبطش ، وكثرة الأعداء ، وما قام به من جلائل الأعمال ، مثل الصبر ، والاستهانة بالموت ، والاستبسال ، وتقديم التضحيات الجسام ، وبذلك يعيد إلى الأذهان النماذج الرائعة ، والخالدة لأبطال العرب الذين زهت بهم الأرض حيناً من الدهر .

ويستخدم البارودي . أحياناً . أسلوب القصر ، وأسلوب القصر يزيد المعنى ، ويقويه ، ويجعله أكثر دقة ، وتحديداً ، مثل قوله (١) :

وَمَا اللَّيْلُ إِلَّا هَبْوةٌ مِنْ كَتَائِبِي وَلَا الشَّهْبُ إِلَّا لَمْعَةٌ مِنْ لَهَازِمِي (٢)

البارودي قصر الليل في كون ظلامه ناشئاً عن غبار جيشه بسبب الكرّ ، و الفرّ ، و قصر الشهب المضيئة في السماء في كونها ناشئة عن عكسها للمعان سيوفه اللامعة في أرض القتال ؛ فهذا القصر يكاد يحيل هذه المبالغة إلى ما يقرب من الحقيقة . والقصر عموماً يمس جنب الحقيقة غالباً .

ومن أساليبه أن يعطي المعنى ، أو الحقيقة مباشرة بلا تمهيدات ، أو مقدمات ، بل يهجم على موضعه ، ويأخذ السامع على حين غرة ، ويكثر ذلك في تناوله للقيم الإسلامية ، ومن ذلك قوله في الموعظة (٣) :

(١) ديوان البارودي ٤٢٢/٣ .

(٢) الهبوة : الظلام الناشئ بسبب الغبار الكثيف . اللهازم : جمع لهزم ، وهو السيف .

(٣) ديوان البارودي ٧٩/١ .

كُلُّ حَيٍّ سَيَمُوتُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا ثُبُوتٌ (١)

حَرَكَاتٌ سَوْفَ تَفْنَى ثُمَّ يَتَلَوُهَا خُفُوتٌ (٢)

وَكَلَامٌ لَيْسَ يَخْلُو بَعْدَهُ إِلَّا السُّكُوتُ

فالشاعر هنا يعلن بغتة ، ومن أول وهلة بأن الموت مصير كل حي ، وليس هناك خلود في الدنيا ، وبإلها من حقيقة معلومة يتناساها الناس ، ثم يردف بأن حركات الإنسان سيتلوها خفوت الموت ، وكلامه سيعقبه سكوت الفناء ، وهذه حقيقة أخرى تدعو إلى التأمل ، والوقفة مع النفس ؛ فهي ليست قاصرة على ما ذكره الشاعر ، بل تمتد لتشمل كل ما يفعله الإنسان مثل النوم الذي يعقبه نوم طويل ، ومثل الضحك الذي سيتلو به بكاء مرير إلى غير ذلك .

ومن أساليب البارودي المؤثرة ، والبليغة أنه كان يتخذ من بعض المواقف ، والأحداث التي مر بها ، والتي لا بد أن يمر بها جميع الناس خلال حياتهم مناسبات لتقديم الدروس ، وأخذ العبر ، وعلى رأسها بثّ القيم الإسلامية ، والتذكير بمقاصد الشريعة ، ومرامي الدين الحنيف ؛ فهو عندما فجعه الموت بأخذ زوجه . وهو منفي بسرنديب . رثاها أعظم رثاء ، وقدم من خلال ذلك جملة مواضع ، وقيم رفيعة مثل التسليم بمشيئة الله ، والرضا بقضائه ، فقال (٣) :

لَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ لَيْسَ بِنَاجٍ فِيهَا سِوَى التَّسْلِيمِ وَالْإِخْلَادِ (٤)

ومن أساليبه ، الدعوة إلى التأمل في آثار الماضيين ، وذلك من خلال عرضه لمشاهد تلك الآثار ، وتبيين مواضع العظة في كل صورة ، ومشهد مما تجعل النفس تتساب مع الحقائق ، والعرض الفني للآثار الدائرة ، والإخبار عما حل بأهلها تكون أكثر تأثيراً في النفوس ، فتخشع ، وتذل وهي تتأمل الآثار الصامته وهي تعبر عن نفسها ، والعرض الصامت للمشاهد ، والآثار له قدرة

(١) الثبوت : من الثبات ، وهو البقاء ، والدوام .

(٢) الخفوت : السكون ، وهو الموت .

(٣) ديوان البارودي ١/ ١٥٩ .

(٤) الإخلاد : مصدر أخلد بمعنى ركن ، وسكن إلى الشيء ، والمراد بالسكون الاستسلام لمشيئة الله تعالى .

على مخاطبة العقل عن طريق التأثير العاطفي . ومن ذلك قول البارودي (١) :

هَلْ بِالْحِمَى عَنْ سَرِيرِ الْمُلْكِ مَنْ يَزْعُ هَيْهَاتَ قَدْ ذَهَبَ الْمَتْبُوعُ وَالتَّبَعُ (٢)
هَذِي الْجَزِيرَةُ فَاَنْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا يَنَآى بِهِ الْخَوْفُ أَوْ يَدْنُو بِهِ الطَّمَعُ (٣)
أَضَحَتْ خَلَاءً وَكَانَتْ قَبْلُ مَنْزِلَةً لِلْمُلْكِ مِنْهَا لَوْفِدِ الْعِزِّ مُرْتَبَعُ (٤) فَلَا مُجِيبَ يَرُدُّ
الْقَوْلَ عَنْ نَبَاٍ وَلَا سَمِيعٍ إِذَا نَادَيْتَ يَسْتَمِعُ (٥)

كَانَتْ مَنَازِلَ أَمْلَاكِ إِذَا صَدَعُوا بِالْأَمْرِ كَادَتْ قُلُوبُ النَّاسِ تَنْصَدَعُ (٦)
عَاثُوا بِهَا حِقْبَةً حَتَّى إِذَا نَهَضَتْ طَيْرُ الْحَوَادِثِ مِنْ أَوْكَارِهَا وَقَعُوا (٧)
لَوْ أَنَّهُمْ عَلِمُوا مِقْدَارَ مَا فَغَرَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ مَا شَادُوا وَمَا رَفَعُوا (٨)
دَارَتْ عَلَيْهِمْ رَحَى الْأَيَّامِ فَاَنْشَعَبُوا أَيْدِي سَبَاٍ وَتَخَلَّتْ عَنْهُمْ الشَّيْعُ (٩)
كَانَتْ لَهُمْ عَصَبٌ يَسْتَدْفِعُونَ بِهَا كَيْدَ الْعَدُوِّ فَمَا ضَرُّوا وَمَا نَفَعُوا (١٠)

(١) ديوان البارودي ٢/ ٢٢١ .

(٢) الحمى : المكان المحمي الذي لا يقرب ، ولا يجترأ عليه ؛ وذلك أن الشريف ، أو السيد من سادات العرب في الجاهلية كان يستأثر ، و يختص ببعض الأمكنة ، والوديان الممرعة ذات العشب ، والكأ ؛ فلا ترعى فيها غير سائمته ، ولا يشاركه فيها غيره ، فيقال لذلك المكان حمى . يزع : يكف . المتبوع : الملك ، أو الحاكم . التبع : التابعون ، أو الرعية .

(٣) الجزيرة : ربما يقصد بها جزيرة العرب حيث شاد العرب ممالكهم ، وحضارتهم القديمة .

(٤) المرتبع : المكان الخصيب بالزرع ، والكأ .

(٥) عن نباٍ : عن خبر يخبرك به .

(٦) صدعوا : أعلنوا وجهروا . تنصدع : تنتشق ، وتنفطر .

(٧) عاثوا : نشروا ، وأذاعوا . طير الحوادث : نوازل الدهر الداهمة . وقعوا : انهزموا ، وهلكوا .

(٨) فغرت : فتحت .

(٩) رحى الأيام : اشتداد الخطوب ، و الكرب . انشعبوا : تفرقوا . أيدي : الطرق ، والسبل . سبأ : القبائل اليمنية القديمة ، و العرب تضرب بهم المثل في التفرق ؛ فهم لما غرقت بلادهم بسيل العرم ، وذهبت جناتهم تبددوا في البلاد ، ومزقهم الله كل ممزق . الشيع : الأشياع ، والأتباع ، والأنصار .

(١٠) عصب : جماعات ، أو أنصار . يستدفعون : يدفعون ، ويصدون

أَيْنَ الْمَعَاقِلُ بَلْ أَيْنَ الْجَحَافِلُ بَلْ أَيْنَ الْمَنَاصِلُ وَالْخَطِيئَةُ الشَّرْعُ (١)
 لَا شَيْءَ يَدْفَعُ كَيْدَ الدَّهْرِ إِنْ عَصَفَتْ أَحْدَاثُهُ أَوْ يَقِي مِنْ شَرِّ مَا يَقَعُ (٢)
 زَالُوا فَمَا بَكَتِ الدُّنْيَا لِفُرْقَتِهِمْ وَلَا تَعَطَّلَتْ الْأَعْيَادُ وَالْجَمْعُ

يستعرض البارودي الصور ، والمشاهد ، ويطرح التساؤلات ، ويكشف الحقائق التي تقود كلها إلى العظة فيقول أين تلك الأراضي الشاسعة التي كان ملوك العرب ، وجباروهم يستأثرون بها في الماضي ، والإجابة : إنهم ذهبوا ، وهلكوا ، وهلك معهم أتباعهم . ثم يوجه النظر إلى التأمل في آثارهم بالفكر ، والعقل فيقول : إن الجزيرة التي كانوا يعيشون فيها خلت منهم ، ومن كل الذين كان يرهب الناس سطوتهم ، ومن كل من كان يرجو الناس عطاءهم ، ثم يخبر بأن أراضيهم التي عمروها صارت خالية من أسباب الحياة ، والعمران ، وقد كانت مستقر الملك ، والمقام لمظاهر العز ، والقوة والسلطان .

ثم يستعرض صور حسية تنتقل عبر المشاعر إلى العقل ، والعين فيتمثلها الحس بكل أبعادها فيقول إن الأراضي التي شهدت تلك الممالك العامرة أصبحت خراباً لا حياة فيها ، إن ناديت فلا يجيبك أحد وإن حدثت فلا يسمعك سامع ، ويصف عظمة أولئك الملوك ، وقوة سلطانهم ، وبأسهم ؛ فهم إذا أرادوا شيئاً فلا يردّهم أحد من الخلق عنه ، فلهم في القلوب رهبة شديدة ، فعاشوا في تلك النواحي أزماناً ، ثم أهلكتهم الأقدار ، وسقطوا كالطير في شراك المنايا، ولو أنهم كانوا يعلمون عاقبة أمرهم ، وما سينتهي إليه مصيرهم لما شادوا القصور ، ولا رفعوا القباب ، والأبنية العالية الضخمة ، وهم مع عظمتهم ، وبأسهم ، وكثرة عددهم ، وعمارتهم اشتدت عليهم الخطوب ، والنوازل ؛ فبددت شملهم ، ولم يغن عنهم أعوانهم ، وأنصارهم ، وجنودهم .

(١) المعاقل : الحصون . الجحافل : الجيوش الكثيرة تتألف من الفرسان ، و المشاة . المناصل : السيوف . الخطية : الرماح المنسوبة إلى (خط) وهو : مرفأ للسفن ببلاد البحرين على خليج فارس ، و كانت الرماح تباع فيه . الشرع : من شرع الرمح إذا استعد لرميه .
 (٢) كيد الدهر : مصائبه ، ودواهمه ، ودواهيته .

ثم يتساءل في حيرة : أين تلك الحصون التي أقاموها ؟ أين جيوشهم الجرارة ؟ وأين سيوفهم البثارة ؟ وأين رماحهم المشرعة الفتاكة ؟ ثم يجيب بأنها لم تدفع عنهم غائلة المنايا فاندثرت كما اندثروا ، و عفى عنها الزمن ، فلا شيء يمنع كيد الدهر متى وقع . ثم يشير إلى أن أولئك الملوك العظام زالوا من الأرض ، فلم تبك الدنيا لفراقهم ، ولم تقف عجلة الحياة ، ولم تتعطل ؛ فالإنسان إذا مات ، وانقطع لا يتأثر الكون وأحداثه به ، فكل يمضي لشأنه .

ففي هذا الأسلوب الداعي إلى النظر ، والتأمل بالعين ، والعقل ، والقلب في آثار من سبق من الأمم ، والملوك ، وما فيه من عرض جيد لتلك الآثار ، وما فيه من تساؤلات حاسمة في مواضعها المناسبة تقود الإنسان دون مقاومة ، أو كبوة إلى التسليم بمعنى الموعظة ، وتأيد فكرته .

هكذا تنوّعت أساليب البارودي في تناوله للمعاني ، وهناك عامل لا يمكن إغفاله وكان له أثر في أسلوب البارودي ، وهو ما كان يتمتع به المصريون من تمام الذوق ^(١) ورهافة الحسّ ، ولطف الإدراك ، والملكات السليمة التي أغنت الأدباء عن التماس علوم البلاغة بفضل سليقتهم المواتية . وبفضل سبقهم كل الشعوب العربية في طريق المدنية ، والحضارة ، والعلم ، والثقافة ، والمجد ؛ فصارت بعيدة الشأن في مضمار الأدب ، والدليل على ذلك حضور الوفود من أقطار العالم العربي لتعقد للشاعر أحمد شوقي ^(٢) لواء إمارة الشعر ^(٣) ، وهذا لا يكون إلا لفضل مصر على أدبائها ، ومكانتها في هذا المجال .

(١) الأدب العربي ، وتاريخه ٤٠٨/٣ .

(٢) هو أحمد شوقي بن علي ، ولد بالقاهرة عام ١٨٦٩م ، ومات أبوه وهو لا يزال صغيراً ، فكفلته جدته اليونانية (تمارز) ، وأظهر نبوغاً ، وتفوقاً على أقرانه ، ودرس الحقوق ، ثم أرسل إلى فرنسا لدراسة الحقوق ، والآداب الفرنسية ، ثم نفي إلى أسبانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم عاد من منفاه ، وقوي اتصاله بالشعب ، وله العديد من الأعمال الأدبية الخالدة توفي سنة ١٩٣٢م .

(٣) وعلى الرغم من أن فضل أحمد شوقي على الأدب لا يجحده أحد ، إلا أنني أعتقد أن الشعر دولة تأبى رعاياها أن يختاروا لها ملك ، أو أمير .

الفصل الثاني : الصور والأخيلة والموسيقى والوزن والمعاني .

١. الصور والأخيلة .

٢. الموسيقى .

٣. الوزن .

٤. المعاني .

١ . الأخيلة والصور الشعرية :

الخيال هو الأساس في العمل الفني ، وهو الرابط بين أواصر القصيدة ، وهو العامل المهم الذي يؤدي إلى تحقيق الوحدة العضوية . والخيال المبدع المخلق غير الجانح هو الذي يرفع من قيمة العمل الأدبي من الناحية الفنية .

وشعر البارودي البطولي ، والإسلامي غني بالتشبيهات ، والاستعارات البديعة المترعة بالحياة ، وكأنما له حاسة تكشف له حجاب الصور المختومة في رحيق الغيب فيفيض ختامها ، ، وظلّت تشبيهات القدماء تجول في خاطره ، وتتفجر المشاهد خلالها تفجيراً ، وبهذا تكثر الصور في شعره كثرة مفرطة بحيث يعد في طليعة شعراء العرب المصورين ، هذا إلى جانب خصوبة خياله ، وفطنته ، وإحساسه العميق بدقة الصور فهو يستنزل من سماء الخيال أطياف تجسد معانيه . والبارودي يستسلم لخياله كما يفعل الأقدمون ، وهذا الاستسلام للخيال كان يسلمه إلى الخروج عن الموضوع الأساسي إلى موضوعات أخرى جانبية بغرض توسيع دائرة المعنى ، وتقرير الأفكار ^(١) .

وأحياناً يجنح الخيال بالبارودي عندما يتناول البطولة ، والقيم الإسلامية ، وذلك أنه عندما يتناول هذين الغرضين تتفجر في نفسه أمنيات دفينية ، ومشاعر مفعمة بالطموح ، وحب الإنسانية ، فكانت تجرفه تلك التيارات بعيداً عن شواطئ الاعتدال .

وتميّز البارودي عموماً بسعة الخيال ، وقد أسهم زحمة الحياة الحديثة ، وتطور الأحداث السياسية على الساحة المصرية في توسيع نطاق الخيال عنده ، وانطلاق الفكر من عقالة ^(٢) ، كما أسهمت ثقافته العربية في ذلك أيضاً ، ووظيفة الصورة الشعرية هي إثارة العاطفة ، ومخاطبة الحس ، والشعر القديم قائم على العاطفة . وهي إحدى المناهل التي ورد حياضها البارودي . والشعر الديني المرتبط بالحكمة ، والزهد ، و الموعظة تحتاج كذلك إلى العاطفة المؤثرة في القلوب ، والشعر

(١) شعراء خالدون ص : ٢٠٣ .

(٢) الأدب العربي وتاريخه ٣/ ٣٩٨ .

السياسي الذي يتجه إلى المقاومة يحتاج أيضاً إلى العاطفة التي تستفز المشاعر ، وتوقد الهمم ، ومن هنا كان حاجة البارودي إلى الخيال المحلق ضرورة حتمية تملئها عليه منهجه الشعري . والموضوعات التي تطرق إليها .

واتحدت عدة عوامل في توجيه خيال البارودي ، و خلق صوره الشعرية وهي

:

١- **الأثر الديني** : خيال البارودي . في هذه الناحية . مقيدة بالعقيدة الإسلامية ، وأسفر عن ذلك العديد من الصور الشعرية التي تلعب دوراً واضحاً في التأثير العاطفي اللازم لتبليغ الخطاب الديني .

٢. **أثر البيئة القديمة** : يتجه خيال البارودي إلى البيئة العربية القديمة . وما أوسع تلك البيئة ، وتنوعها . ونلمح هذا بوضوح في شعره البطولي حيث يستعير الصور القديمة ، ويبعثها بعثاً جديداً . وإن كان بعضها لا يناسب روح العصر . ولكنها تقوي من حركة البعث ، والنهضة الأدبية التي يقودها .

٣. **الحياة الحديثة** : رفف خيال البارودي في محيط حياته العصرية ، والواقعية فلم يتخلف عن السير في ركب التطور ، والحدثة ، وفي هذه الناحية واكب التطورات السياسية ، وعبر عن القيم الحضارية ، والفكرية لأمته ، وشارك في كل القضايا المطروحة على مائدة الحياة العامة ، وعالج بعضها من خلال منظوره الديني .

٤- **الآداب الأخرى** : لا شك أن البارودي قد تأثر بالآداب الأخرى ^(١) غير العربية مثل : التركية ، والفارسية ، والهندية ، والإنجليزية ، سواء بطريقة

مباشرة ، أو غير مباشرة ، ولكن هذا التأثير كان طفيفاً ؛ فقد جاءت بعد أن تكونت شخصيته الأدبية ، واتخذ منه الملامح النهائية بكل أبعادها فلم تتأثر أخيلته ، وصوره

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٥٥ .

الشعرية بتلك الآداب إلا في حدود ضيقة . فقد أعانته عرويته ، وعكوفه على كتب التراث الأدبي على ترسيخ قدمه في آفاق الخيال العربي .

وقد أسهمت المؤثرات السابقة في منح بعض المميزات لأخيلة البارودي ، وصوره الشعرية ، ومن أبرز تلك المميزات .

أ. الطرافة ، والروعة :

يتوقف روعة الخيال على الموهبة أولاً ، ثم على التأثير بقراءة الشعر الجيد ، ثم المقدرة على اختيار الألفاظ المناسبة التي تعبّر عن تلك الصور . وكان للبارودي نصيب وافر من ذلك كله ، أضف إلى ذلك أن الشعراء الفرسان . الذين تأثر البارودي ببعضهم . لا ينقلون الأحداث مجردة كما هي في الواقع فالكلمات قد تعجز عن نقل وقائع الحرب كما هي ، فيأتي روعة التصوير لتسد ذلك الفراغ ، أو لتحرك الجمود في التعبير ، ولذا فإن شعراء البطولة هم أكثر حاجة من غيرهم إلى روعة الخيال ، فاقراً قول (١) البارودي في التعبير عن البطولة ، والفخر ببأس قومه :

مِنَ النَّقْرِ الْعُرِّ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ
إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرَبَ سَيْفِهِ تَفَزَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالتَّتَفَتِ الدَّهْرُ

فروعة الخيال في لمعان هذه السيوف في ظلام المعركة ، وتشبيهها بالفجر ، هي صورة تعبّر عن جدة هذه السيوف ، وحدائتها ، وصقلها ، وهي من ناحية ثانية تعطي انطباعاً عن قوة المعركة ، وشدتها حتى استحالت ظلاماً ، وفي البيت الثاني صورة أكثر روعة ، وطرافة عن تفزع الأفلاك ، والأجرام من شدة الرعب ، والتفات الدهر في فزع ، وقلق واهتمام ، ، وهي صورة تعبّر عن سطوتهم البالغة ، وشدتهم الهائلة .

ولا يخفى ما في هذا الخيال من الروعة ، والجمال ، والإبداع ، واختيار الألفاظ التي تخدم تلك الصور ، والمعاني التي تعبّر عنها .

(١) ديوان البارودي ٣٣/٢ .

وأجمل الصور الشعرية هي التي تعبّر عن المعنى بجلاء ، وتترك في النفس أثراً خلاباً ، وقوة الصورة الشعرية ، وطرافتها ، ومقدرتها على التعبير عن المعنى ، والفكرة هي التي منحت البارودي مكانته في عالم الأدب ، وهي التي تمنح أي شاعر مكانة . ولو محددة . في عوالم الأدب . والبارودي . مثلاً . عندما أراد زجر أحد الضالين في دهاليز العظمة الحمقاء الراكبين صهوات الفخر الكاذب ، الآخذين بخطام المعاصي شبّهه بسفينة في عرض بحر لحي يغشاه موج ، فهي عُرضة للغرق ، والتلف ، وهذه الصورة رائعة صادقة ، معبرة عن فكرة الرجوع عن الإسراف ، والغفلة ، والتزام النهج الوسط في كل الأمور حيث قال (١) :

يَأْيُهَا السَّرَفُ الْمُدْلُ بِنَفْسِهِ كَسَفِينَةٍ فِي لُجٍّ بَحْرٍ مَآخِرِهِ (٢)

وكلما كان التصوير الفني رائعاً كان أثره بالغاً في بلوغ المعاني مرماها ، وإصابة مقاصدها خاصة في مجال الموعظة فتثير العاطفة ، وتحرك المشاعر ؛ فالبارودي عندما أراد أن يصور الفناء أبرزها في صورة معبرة فقال (٣) :

وَمَا هَذِهِ الْأَجْسَامُ إِلَّا هَيَاكِلٌ مُصَوَّرَةٌ فِيهَا النُّفُوسُ وَدَائِعُ

فهذه صورة تعبّر عن حتمية الموت ، والزوال ؛ فالأجسام كالأوعية المصورة ، والنفوس ، والأرواح فيها كالودائع لا يلبث مودعها أن يستردها ، وهذه إشارة إلى فناء الأحياء ، ومفارقة الأرواح للأجساد ، وأن الله سوف يسترد الأرواح التي أودعها في الأجسام .

وروعة التصوير كثير في شعر البارودي مما تعطي معانيه قدراً من الجمال ، والقوة ، والتأثير الوجداني ، مثل قوله في التحذير من الدنيا ، والتنفير من الركون إليها (٤) :

(١) ديوان البارودي ١٠٥/٢ .

(٢) اللجة : وسط البحر ، أو معظم مائه . مآخرة : جارية تشقّ الماء ، وتدفعه بصدرها .

(٣) ديوان البارودي ١٨٢/٢ . (٤) المرجع السابق ١٨٠/٢ .

أَلَا إِنَّمَا هَذِهِ اللَّيَالِي عَقَارِبٌ تَدْبُ ، وَهَذَا الدَّهْرُ ذَنْبٌ مُخَادِعُ

رسم البارودي الليالي التي تمر بالناس في طيها الفجائع ، والمساوئ رسمها في هيئة عقارب كريهة تدب بخبث في طيها الضرر ، ثم أبرز الدهر في صورة ذنب لعين فتاك يخدع فرائسه ، وفرائس الدهر هم بنو الإنسان . وهاتان الصورتان رغم ما فيهما من مسببات الخوف لا يخلوان من طرافة ، وروعة .

ب . المبالغة ، وتجاوز الحد :

وهذا كثير في عموم شعر البارودي ، و رغم ابتعاد الجاهليين عن المبالغات في الشعر إلا أنّ الحياة المادية التي طغت على الحياة في العصر الحديث قد زجت بالبارودي في المبالغات ، كما أن النزعة البطولية كانت تجر الشاعر إلى المغالاة في التصوير ، فكانت نفسه تثور عند ذكر النزال فتتفجر الينابيع ، وتتزاحم الصور فيبتدع ما يشاء . وقد تأثر البارودي . إلى حد ما . بالآداب الفارسية الممعة في المبالغات ^(١) ، والتزلف ، فجاءت بعض صوره الشعرية موغلة في الغلو ، يعينه خياله الجامح على ابتداع تلك الصور ، وخلق الأطر الضخمة لمعانيه .

وفي المنفى بعيداً عن الأهل ، والأوطان ، وتحت نير الضغوط النفسية أغرق البارودي في الخيال ، وكانت تأتيه نوبات مفاجئة ، ووثبات من الإلهام فكان يستجيب لها فاكتست بعض معانيه بالحلة الدينية البهية ، ولبست بعضها الحديد المسرد من حلل البطولة ، ومن ثم كان للمنفى دور كبير في تنشيط خيال الشاعر ، وإذكاء روح التصوير ، فأحياناً تتفجر براكين الحماسة في نفسه ، ويطوح به الخيال ، فيصور بطولته تصويراً لا يخلو من المبالغة ، والمغالاة مثل قوله ^(٢) :

فَلَوْ بَرَزَ الْحِمَامُ إِلَيَّ شَخْصًا دَلَفْتُ إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ الْيَمَانِي ^(٣)

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٥٩ .

(٢) ديوان البارودي ٩٨/٤ .

(٣) الحمام : الموت . دلفت : اتجهت ، وسرت . اليماني : السيف المنسوب في صنعه إلى اليمن .

فإذا ظهر له الموت في هيئة إنسان لاخترطه بالسيف دون خوف ، أو تردد . !!

ومبالغات البارودي ليست قاصرة على شعره البطولي ، وعلى بعض شعره الإسلامي فحسب ، بل نجده في كثير من المعاني الأخرى ؛ فخياله في الأصل جانح بعيد الشوط ، يهيم في واد عبقر المعاني ، فيأتي بالغريب الحاذق ، فهو مثلاً عندما يصف الجواد الذي شبه به شعره يأتي بالصورة المبالغة فيقول ^(١) :

تَجْرِي مَعَ الشَّمْسِ فِي تَيَّارِ كَهْرَبَةٍ عَلَى إِطَارٍ مِنَ الْأَضْوَاءِ مَسْعُورٍ ^(٢)

تُطَارِدُ الْبَرْقَ إِنْ مَرَّتْ ، وَتَتْرُكُهُ فِي جَوْشَنِ مِنْ حَبِيكَ الْمُزْنِ مَزْرُورٍ ^(٣)

فهذا الجواد يسابق ضوء الشمس ، ويسبقها ؛ لأن سرعته مثل سرعة الكهرباء في الانتشار ، بل إن هذا الجواد عندما يطارد البرق الخاطف يسبقه أيضاً ، ويتركه محبوساً في ما يشبه الدرع المحبوك من المزن .

ولا شك أن بعض المبالغات تزيد المعنى قوة ، وروعة ، وجمالاً ؛ فهو لا يهدف من مبالغته سوى إلى زيادة المعنى لأجل التجمل ، وليس لأجل الاحتيال . ورغم أن البارودي جنح في شعره إلى بعض المبالغات المستحسنة إلا أنه تحكّم في ملكته الخيالية ، فلم تجرفه سيول العاطفة المفرطة ، ولم تمتد أصابع خياله إلى الأساطير التي تمتلئ بها تراثنا الأدبي ، ولم يهتم بالصور التي تفوق التخيل ، و عليه فقد كان أكثر تماسكاً ، واتزاناً في مبالغاته الخيالية .

ج . التقليدية :

لم يسبح البارودي بخياله بعيداً عن متحف الخيال العربي القديم ، فبعد عن نفخ عنها غبار السنين ، ونقّب فيها عثر على كنوز من التصاوير الماثلة فاقتبس منها ما غذي بها خياله ، وصوره الفنية .

(١) ديوان البارودي ١١٨/٢ .

(٢) كهربية : التيار الكهربائي . مسعور : متوقد ، مشتعل .

(٣) الجوشن : الدرع . حبيك : من الحبك ، وهو شدة الإحكام ، وإجادة النسيج ، وإتقان الصنعة . المزن : السحابة الماطرة . مزور : شدّ الإزار ، أو حسر الشيء ، أو بمعنى : محسور ، ومحبوس .

ومن العوامل التي دفعت البارودي إلى الإقامة في واد الخيال العربي القديم ميوله البطولية ، و تصوير المعارك الحربية ، والنزعات الفروسية ، والحماسية ، وللعرب على صفحات التاريخ مجد ناصع في ميادين القتال ، وتصوير الحروب ، والتعبير عن البطولة ، وقد تفننوا في ذلك ، وانتهج البارودي أذيال سننهم ، وجرى في مضمارهم فلم يقصر عنهم ، ومن هنا جاءت التقليدية في أخيلته على إثر هذه النزعة التي ملكت عليه فؤاده ، وعقله فانعكس على معانيه ، وصوره الشعرية ، فجاء خياله هجيناً بين القديم ، والحديث .

وإذا نظرنا إلى الشعر البطولي عند البارودي ؛ لأدركنا أن خياله في هذا المجال قد نشأ ، وترى في بيئة الشعر العربي القديم ، وتلك البيئة متنوعة بجماليها ، وأوديتها ، وصحرائها ، وفرسانها الذين يمتطون الخيول الأصيلة ، و يتوشحون السيوف القاطعة ، ويتكّبون الرماح اللدنة تلك البيئة المليئة بالكرم ، والقيم النبيلة ، فكان خياله يرفرف في تلك الأنحاء فجاءت صورته الشعرية قبساً منها من حيث الخواطر ، والتشبيهات ، فقد بعث كل الصور القديمة من جديد ، وكأنه قد بعث الشعراء القدامى بطبيعة حياتهم القديمة ^(١) .

واختلطت روحه الحضريّة بتلك الروح البدوية القديمة فازدهر الشعر عنده ازدهاراً أحاطت الصور الشعرية بإطار زاه ، ربط من خلاله الشعر الحديث بأصوله القديمة ، ومدّ بينهما جسور المودة التي هدمها البعض في عصور الإسفاف ، والركاكة ^(٢) ، ونجد في شعر البارودي العديد من الصور القديمة الشائعة في أخيلة القدماء ، وعليه فقد ظلّت العناصر القديمة مشتتة بكل جزئياتها الصحراوية في نفس البارودي يستمد من ومضاتها ، وجلالها ، وجمالها الفطري

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ١٤١ .

(٢) وهي الفترة التي أعقبت سقوط بغداد في أيدي التتار ، وسقوط الأندلس في أيدي الإفرنج حيث هاجر العلماء ، والأدباء من بغداد ، والأندلس إلى مصر فتجمع الأدب العربي كله هناك ، ثم سقطت مصر تحت الحكم التركي الغاشم الذي قضى على الأدب قضاء مبرماً ، وظلّ الأدب العربي يتردّى في مهاوي الضعف ، والإسفاف ، والركاكة حتى بعثه البارودي من جديد ، وردّ إليه الأصالة .

أخيلته التي أخذت من الحداثة شيئاً ، وغاصت في أعماق القديم الزاخر مع الاحتفاظ بشخصيته ، وعصره ، وآماله ، وأمانيه .

وقد اعتمد البارودي في نهضة الأدبية الحديثة على إحياء التراث العربي القديم ، إلا أنه لم يهدف من ذلك إلى عودة الرصانة ، و الجزالة فحسب ، بل كان يهدف إلى تصوير نفسه تصويراً صادقاً فاتخذ من أخيلة الشعر القديم وسيلة يهدف لتحقيق تلك الغاية فنراه أحياناً فارساً فُحاً^(٢) .

والأخيلة التي يوردها شعراء الحماسة ، والبطولة تنمو ، وتترعرع في البيئات التي تحتضنها ، والبواعث التي تدفع إليها ، والثقافات التي تتلون بها ، والطبع الذي يساعد عليه ، وكل هذه العوامل أثرت في أخيلة البارودي فيما يتعلق بشعره البطولي خاصة ؛ وذلك لأن مشاعره فيها كانت تتدفق بقوة متسارعة ، وتتبعث فيها أحاسيس فياضة ، والبارودي ظلّ رهين الصورة القديمة^(٢) يطوعها لمعانيه المعاصرة .

ونجد في شعره البطولي عامة ، وبعض شعره الإسلامي حشداً من الخيال يعانق بعضه بعضاً ، ونجد فيه فيضاً من التأمّلات التي تأتي متتابعة متلاحقة ، وهذا يعود إلى تنوع ثقافته الضاربة بجذورها في أعماق التراث الأدبي الممتد بفروعه في العصر الحاضر ، يؤتي أكله متشابهاً ، ويختلف طعمه ، ويتجدد .

فكثير من قصائده التي يصف فيها الحرب ، ومشاهده تأتي وكأنها من الصحراء العربية حيث يعيش الجاهليون في غابر عهودهم مثلاً قوله^(٣) :

وَمُعْتَرِكٍ لِلْخَيْلِ فِي جَنْبَاتِهِ صَهِيلٌ يَهْدُ الرَّاسِيَّاتِ وَلِيدُهُ^(٤)
بَعِيدٍ سَمَاءِ النَّقْعِ يَنْقُضُ نَسْرَهُ عَلَى جُبْثِ الْقَتْلَى وَيَنْغَلُ سَيِّدُهُ^(٥)

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٩١ .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ص : ١٩٨ ، وص : ٢٠٨ .

(٣) ديوان البارودي ١/١٤٩ .

(٤) الراسيات : الجبال . الوليد : الصوت العالي الشديد ، أو الصخب .

(٥) ينغل : يدخل . السيد : الذئب ، أو الأسد .

- تَرَفٌ عَلَى هَامِ الْكُمَاةِ سَيُوفُهُ (١) وَتَخَفُ قُ بَيْنَ الْجَحْفَلَيْنِ بُنُودُهُ
 إِذَا اشْتَجَرَتْ فِيهِ الرِّمَاحُ تَرَاجَعَتْ سَوَافِرٌ عَنْ نَصْرِ يَضِيْ عَمُودُهُ (٢)
 تَقَحَّمَتُهُ وَالرُّمُحُ صَدَيَانُ يَنْتَحِي نِطَافَ الْكُلَى وَالْمَوْتُ يَمْضِي وَعِيدُهُ (٣)
 فَمَا كُنْتُ إِلَّا الْغَيْثَ طَارَتْ بُرُوقُهُ وَمَا كُنْتُ إِلَّا الرَّعْدَ دَوَّى هَدِيدُهُ (٤)

فمشاهد الحرب ، وما فيها من غبار يعلو إلى عنان السماء ، وصهيل الخيل التي تهتدُ الجبال ، والنسور التي تحوم حول أرض القتال لتأكل الجثث ، والذئاب التي تمرح مع الأسود لتأكل لحوم القتلى ، والسيوف اللامعة التي تحصد الرؤوس ، وتقطع الأعناق ، والرماح التي تخترق الأجساد ، فكل المشاهد السابقة كثيرة متكررة في الشعر الجاهلي ، والشعر العربي القديم عموماً .

د . الاقتباس من القرآن :

كان خيال البارودي يحوم حول رياض القرآن الكريم فيقتطف من أزهارها ، ويدور في قطب فلك جمالها ، فجاءت بعض صوره قبساً من فيض نور التصوير القرآني الرفيع ، فقد قرأ القرآن ، ودرس علومه منذ صباه ، فتأثر به ، فأورد بعض الصور التي وردت في كتاب الله عز وجل فاكسب ذلك خياله خصوبة ، وجمالاً .
 فقد بين الله تعالى عطف الابن الواجب على والديه ، فأبرز ذلك المعنى في صورة الطائر الذي يتجسد فيه ذلك فقال : ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ...﴾ (٥)

فاقتبس البارودي هذه الصورة ، وأوردها في قوله (٦) :

(١) ترف : تبرق ، وتتلأأ . تخفق : تتحرك بفعل الريح . البنود : الأعلام ، أو الرايات .

(٢) اشتجرت : اشتبكت . نصر يضي العمود : هو النصر الواضح المبين .

(٣) صديان : عطشان . ينتحي : يقصد . لطاف : دماء .

(٤) الهديد : الصوت العالي الصاخب .

(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٢٤ .

(٦) ديوان البارودي ٤٨/٢ .

خَفَضْتُ لَهَا مِنْ جَنَاحِي مَوَدَّةً وَدِنْتُ لِعَيْنَيْهَا كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ ^(١)

وعندما أراد أن يصف لنا شدة الهول الذي أصاب المقاتلين في الحرب من شدة وطيس المعركة صوّرهم في هيئة الذين لعب السكر بعقولهم ، وهي الصورة ذاتها التي عبر بها القرآن عن شدة الهول الذي يصيب الناس من عظمة يوم القيامة حيث يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ^(٢) . فقال البارودي ^(٣) :

وَلَمَّا تَدَاعَى الْقَوْمُ وَاشْتَبَكَ الْقَنَا وَدَارَتْ كَمَا تَهْوَى عَلَى قُطْبِهَا الْحَرْبُ ^(٤)
وَزَيْنَ لِلنَّاسِ الْفِرَارِ مِنَ الرَّدَى وَمَاجَتْ صُدُورُ الْخَيْلِ وَالتَّهَبَ الضَّرْبُ
وَدَارَتْ بِنَا الْأَرْضِ الْفَضَاءُ كَأَنَّا سُقِينَا بِكَأْسٍ لَا يُفِيقُ لَهَا شَرِبُ
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ سَمَاوُهَا وَإِنِّي صَبُورٌ إِنْ أَلَمَ بِي الْخَطْبُ

فصورة الفرسان وهم سكارى في مستنقع الموت من قوة المعركة واضحة . وفي بعض المواضع الدينية يرسم البارودي بعض الصور المؤثرة التي تبلغ بالمعاني قرار القلوب وتتفد عبر النفوس لتستقر مقرها ؛ فهو مثلاً عندما يتحدث عن الموت يأتي بالصورة التي تتاسب المعنى لتكون أقوى في الحمل على الهداية ، ويلتمس في ذلك أسلوب القرآن العظيم ؛ فهو عندما تناول حتمية الموت صوّره في صورة مرعبة فجعل الموت كائناً قاهراً لا يمكن النجاة من براثنه ، فهو يطارد الخلق ، ويصل إليهم في أي مكان ، ولو اتخذوا أنفاقاً في الأرض ، أو ارتفعوا

(١) خفض الجناح : كناية عن الرحمة ، والرأفة ، واللين .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٢ .

(٣) ديوان البارودي ٥٢/١ .

(٤) قطبها : القطب : حديد تدور عليها الرحى ، فقد شبه الحرب بالرحى إذ أنها تطحن المقاتلين ، مثل الذرة .

شاهقاً في السماء فهو مسلّط على الخلق كلهم لا فرق بين أسود و أبيض ، أو بين صبي ورجل ، أو بين مسلم وكافر ، حتى الحيوانات لا تتجو من سطوته فيقول (١) :

فَأَرِيّاً يَفَاعَا أَوَاتَّخِذُ سَرَبًا إِنْ كَانَ يُغْنِي الْيَفَاعُ وَالسَّرَبُ (٢)
 لَا الْبَارُ يَنْجُو مِنَ الْحِمَامِ وَلَا يَخْلُصُ الْحَمَامُ وَالْخَرْبُ (٣)
 مُسَلِّطٌ فِي الْوَرَى فَلَا عَجَمَ يَبْقَى عَلَى فَتْكِهِ وَلَا عَرَبُ (٤)

والصورة الفنية السابقة التي اعتمد عليها البارودي في إبراز المعنى مقتبسة ، ومتأثرة بالقرآن الكريم فهي توافق الصورة الفنية في قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ... ﴾ (٥) .

فصورة الموت في الآية السابقة يبدو ككائن مفترس عنيد لا يُقهر ، ولا يمكن الإفلات من مخالبه ، وهي الصورة التي نجدها في أبيات البارودي الآتية .
 وليست كل أخيلة البارودي ، و الصور الفنية المرتبطة بها مقتبسة من التصوير القرآني ، فأحياناً يأتي بالصورة خارج دائرة التصوير القرآني ، فهو عندما أراد أن يزهّد الناس في الدنيا ، ويحذّرهم منها صوّر الليل ، والنهار في هيئة فارسين يكرّان على الناس بالحتف الجارف ، والموت الزؤام ، فكلما أصبح الصباح هناك موتى ، وكلما جنّ الليل هناك موتى فقال (٦) :

وَلَسْتُ أَرَى سِوَى صُبْحٍ وَجُنْحٍ إِلَيْنَا بِالرَّدَى يَتَسَابِقَانِ (٧)

(١) ديوان البارودي ٦٩/١ .

(٢) اليفاع : المرتفع من الأرض . السرب : النفق تحت الأرض .

(٣) البار : ضرب من الصقور تصاد بها . الحمام : الموت . الحمام : طائر أليف معروف . الخرب : ذكر الحبارة ، وهو طائر على شكل الأوزة تأكل الجراد ، والحشرات في المزارع ، والحقول .

(٤) الورى : الخلق . الفتكة : البطش .

(٥) سورة النساء ، الآية : ٧٨ .

(٦) ديوان البارودي ٦٢/٤ .

(٧) الجنح : الليل .

هـ . قوة الصورة الشعرية :

وهي الصورة التي تأتي لتأييد المعاني ، وترسيخها في النفوس ، ولتمنحها قدراً من القوة المؤثرة ، وقد أفلح البارودي في هذه الناحية وذلك لخصوبة خياله ، و مقدراته على إبتداع الصور . فاستطاع تأييد دعوته إلى القيم الإسلامية ، فصارت أفكاره الدينية أكثر تأثيراً ؛ فالدعوة إلى الدين عموماً يحتاج إلى التأثير العاطفي بقدر احتياجها إلى الناحية العقلية ؛ لأجل الإقناع فاجتمع في أخيلة البارودي ، و صورهِ الشعرية هاتان الناحيتان فأقرأ قوله (١) :

إِذَا سَتَرَ الْفَقْرُ أَمْرًا ذَا نَبَاهَةٍ فَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُشِيدَ بِهِ الْفَضْلُ (٢)

فَإِنَّ لَهَيْبَ النَّارِ مَهْمًا كَفَأَتْهُ إِلَى أَسْفَلٍ قَسْرًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَغْلُو (٣)

يريد البارودي أن يقرر فكرة معينة تصب في محيط القيم الإسلامية ، وهي فكرة انتصار القيم الرفيعة ، والخصال الشريفة على مصيبة الفقر ؛ فالفقر قد يقيد فقيراً سمحاً ، ولكن فضله ، وسماحته و محاسنه لا تلبث أن تظهر ، وتفوح ، وتدل على عظمته ، فأتي بصورة فنية تؤكد تلك الفكرة ، وتقويها ، فإذا شخص ما حاول ان ينكس شعلة من النار ليطفئها لغلبيه ذلك ! فالشعلة ستزداد اشتعالاً ، وتوقداً ، ويعلو لهيبها ، ويرتفع ، وكذلك الشريف الكريم كلما حاول الفقر أن ينكسه ، ويذله ارتفع بحلو شمائله ، وروائع طبعه .

وهذه الصورة قوية الإيحاء ، والتأثير تبرز انتصار القيم الفاضلة على المصائب ، والشدائد التي قد تحقق بها ، وهي دعوة ضمنية إلى التحلي ، والتمسك بخصال السماحة .

تؤدي الصورة الشعرية . إذا كانت قوية . دوراً رائداً في تقريب المعنى ، وتقويته ، فيمنح الكلام جمالاً ، وقبولاً ؛ فالبارودي عندما أراد أن يعبر عن

(١) ديوان البارودي ٢١٧/٣ .

(٢) النباهة : الفطنة ، والشرف . الفضل : الإحسان ، والخير ، والمروءة ، والبر .

(٣) كفأته : أملته ، ونكسته . قسراً : قهراً .

الغفلة ، وما يعقبها من حرمان قال (١) :

تَزَوَّدَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهِ بُلْغَةٌ فَسَوَّفَ تُعَانِي الْجَدْبَ يَا رَاعِي الْوَسْمِي (٢)

الراعي يرعى حيواناته النبات ، ويفرح بها ، ويغفل عن غده فإذا انقطع المطر وبيست الأرض سُقط في يده ، وعانى مرارة الحرمان ، فيكابد مع ماشيته مشقات الجذب ، ومتاعب القحط ، وكذا الإنسان الغافل فهو في الدنيا يفرح بحياته ، فيرتع فيها بصحته ، وماله ، وعباله ، ويغفل عن غده ، و آخرته حيث يعاني فيها جذب العمل ، وقحط سوء ما قدم . وهذه الصورة حيّة يحسّها الإنسان ، ويتمثلها في نفسه .

وعندما أراد أن يزهد الناس في الدنيا ، ويحذرهم فتنتها ، ويذكرهم بالموت صوّر لهم الدهر في هيئة محارب غدار مخاتل ، شديد البأس ، قوي المراس ، متمرس باستخدام السلاح إذا رمى أصاب فلا مفر من فتكه إذ يقول (٣) :

فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا نَابِلٌ ذُو مَكِيدَةٍ إِذَا نَزَعَتْ كَفَّاهُ فِي الْقَوْسِ لَمْ يُشْنُو (٤)

وهذه صورة قوية معبرة ، تعيد إلى الأذهان مصائر السابقين الذين أصابهم الدهر بسهام المنايا فأرداهم ، فلم يغادر منهم أحداً .

وفي موضع آخر يشبّه الأيام التي نعيشها بساقية خادعة ، كاذبة تدور ، ولكنها لا تجلب ماءً ، ولا تطفئ الظمأ ، ولا تزيل العطش فيقول (٥) :

أَلَا إِنَّمَا الْإِيَّامُ دُولَابٌ خُدْعَةٌ تَدْوَعَلَى أَنْ لَيْسَ مِنْ ظَمًا تُرْوِي (٦)

فهذه الصورة قوية الإيحاء بهوان أمر الدنيا ، وما فيها من بريق الأمانى الكاذبة التي لا تروي طالبها بتحقيقها .

(١) ديوان البارودي ٤٥٢/٣ .

(٢) البلغة : ما يكفي الحاجة . الجذب : القحط ، والمحل . الوسمي : الأرض المخضرة بالعشب ، والكلأ .

(٣) ديوان البارودي ٢٠٧/٤ .

(٤) النابل : الرامي بالسهم . نزعت : رمت بالسهم . لم يشو : لم يخطئ .

(٥) ديوان البارودي ٢٠٨/٤ .

(٦) الدولاب : الساقية .

و . تعدد الصور الشعرية :

وذلك في المعنى الواحد ، فكان البارودي يأتي بعدة صور متنوعة يعبر عن معنى واحد ، وليقرر بها فكرة محددة ، وهذا يعود لخصوبة خياله ، ومقدرته الكبيرة على التصرف ، والتفنن في إيراد الصور ، وتوليدها ، وتفصيلها بأشكال مختلفة على قدر المعنى الواحد .

ففي هذه الأبيات الآتية يأتي البارودي بعدد من الصور المتنوعة ليقرر معنى زوال الدنيا فيقول (١) :

هِيَ الدَّارُ مَا الْأَنْفَاسُ إِلَّا نَهَائِبٌ لَدَيْهَا وَمَا الْأَجْسَامُ إِلَّا عَقَائِرُ (٢)
 إِذَا أَحْسَنْتَ يَوْمًا أَسَاءَتْ ضَحَى غَدٍ فَأَحْسَانُهُ سَيَفُ عَلَى النَّاسِ جَائِرُ
 تَرَبُّ الْفَتَى حَتَّى إِذَا تَمَّ أَمْرُهُ دَهْتُهُ كَمَا رَبَّ الْبَهِيمَةَ جَازِرُ (٣)
 لَهَا تِرَةٌ فِي كُلِّ حَيٍّ وَمَالُهَا عَلَى طُولِ مَا تَجْنِي عَلَى الْخَلْقِ وَاتِرُ (٤)
 كَثِيرَةُ أَلْوَانِ الْوَدَادِ مَلِيَّةٌ بِأَنْ يَتَوَقَّاهَا الْقَرِينُ الْمُعَاشِرُ (٥)
 فَمَنْ نَظَرَ الدُّنْيَا بِحِكْمَةٍ نَاقِدٍ دَرَى أَنَّهَا بَيْنَ الْأَنَامِ تُقَامِرُ (٦)

البارودي يصوّر الدنيا في عدة صور مختلفة بهدف التفتير منها ، فهي مرة في صورة دار ، أو مكان يُعقر فيها الناس ، وينحرون كالإبل جماعات ، ووجدانا ، وتارة أخرى في هيئة امرأة غادرة سريعة القلب ، لا تحسن ، ولا تتزين إلا لغرض خبيث . ومرة أخرى في صورة جزّار قاس يفتك بالإنسان دون رحمة ، مثله مثل أي جزار يربي البهائم ، ويتعهدا بالرعاية ، والطعام ، والشراب ، و

(١) ديوان البارودي ٦٥/٢

(٢) الدار : المراد بها الدنيا . عقائر : من عقر البعير إذا ذبحه .

(٣) تربي : من التربية ، والإعداد . دهته : من الداهية ، وهو الأمر العظيم ، والمراد به الموت ، والهلاك .

(٤) الترة : الثأر . الواتر : الذي تمكن من أخذ الثأر ، أو الساعي لأخذه .

(٥) مليّة : جديرة . يتوقّاها : يحذرهما ، ويجتنبها . القرين : صاحب الملازم .

(٦) تقامر : تخدع ، وتكذب .

يغريها بذلك ، ثم يذبحها آخر الأمر . وتارة يبرز الدنيا في صورة شخص حاقد مكر ينتقم من جميع الناس ، ويتجنى على كل حي كأنما له ثأر عندهم ، وهو من القوة ، والبطش بحيث لا يتمكن أحد من مسّه ، أو النيل منه . وأخيراً يصورها في صورة امرأة جذابة بجمالها ، وزخرفها ، وفي أحضانها الشر ، و المعاطب .

وكل الصور السابقة المتعددة التي رسمها البارودي للدنيا هي صور معبرة ، وموحية بمعنى الفناء ، وقلة الراحة فيها ، ووجوب الحذر منها .

ولا يفوتني في هذا المجال أن أذكر أمراً مهماً ، وهو أن الصورة الشعرية التي يوردها البارودي في بعض أشعاره تمثل ملمحاً من ملامح البطولة في شعره فهو كثير ما يأتي بالصورة التي تعبّر عن القوة ، والصلابة فيذكر أدوات الحرب ، والنزال مما يدل على أن في نفس البارودي حرباً لا تهدأ ، وأن مراحل بطولته تغلي على الدوام فيستمد منها الصور ، ويغذي بها شعره ؛ مثلاً عندما يتحدث عن فصاحته يشبه لسانه بالسيف ، ومرة بالرمح ، وحيناً بالسهم ، وعلى الرغم من أن العرب درجت على مثل هذه التشبيهات فهم أبناء الحرب ، قامت حياتهم على الفروسية ، والبطولة ، وهذه الآلات عندهم أمضى أسلحة الحروب ، فاستخدام البارودي لهذه الصور تدل على أن البطولة قد سكنت نفسه ، وملكت عليه خياله وهو القائل (١) :

وَ أَصْدَعُ الْخَصْمَ وَمَا خِلْتُنِي أَصْدَعُ إِلَّا الْبَطْلَ الْأَصِيدَا (٢)

بِلَهْزِمٍ لَيْسَتْ لَهُ صُعْدَةٌ لَكِنَّهُ يَمْضِي إِذَا سُدَّ دَا (٣)

أَوْ صَارِمٍ يَفْرِي نِيَاظَ الْكُلَى وَلَمْ يَزَلْ فِي جَفْنِهِ مُغْمَدَا (٤)

(١) ديوان البارودي ١/١٩٤ .

(٢) أصدع الخصم : أفحمه ، وأقهره ، وأتغلب عليه . الأصيد : الرافع رأسه كبيراً ، ومثله صعر خده .

(٣) اللهزم : رأس الرمح الحاد . الصُعْدَة : الرمح المستوي المعتدل .

(٤) الصارم : السيف القاطع . يفري : يقطع . نياظ الكلّى : الأحشاء حول الكلّى . الكلّى : جمع كلبية ، وهي مكونات الجهاز البولي في الجسم . الجفن : غمد السيف .

أَوْ مَشَقَّصٍ إِنْ فَوَّقَتْ نَصْلَهُ إِلَى أَمْرٍ غَيْرِ يَدٍ أَقْصَدًا (١)

فالبارودي يهزم الذين يجادلهم بلسان كالرمح الصلب ، أو كالسيف المرفف الذي يمزق أحشاء الأعداء ، وهو لا يزال في غمده لم يجرد ، أو كالسهم الذي يصيب الهدف دون أن يوجه إليه .

فهذه الصورة أوردتها لفصاحة لسانه ، ومضاء حججه ، تجعل من يقرأها يحسّ كأنه في معركة دامية تفتك فيها الرماح المسنونة بالأبطال ، والسيوف الماضية تقطع أحشاء الكماة ، والسهام الرهيبة تخترق الأجساد ، وتقتل في الحال . وهذا يرمز إلى بطولته التي ملكت عليه حواسه فلم يبتعد بخياله عنها .

وعليه فقد ظفر خيال البارودي بعدد من الصور الشعرية المعبرة ، والقوية أسهمت بفعالية في الارتقاء بشعره ، ووضعته في طليعة شعراء النهضة العربية الحديثة ، فالخيال قوة هائلة له المقدرة على الارتياح ، والكشف يأتي من سبأ الصور بنبأ يقين ، بل إن الفن مهما شمع ، أو انحط فما هو إلا أثر لخيال صاحبه .

وكل الأخيلة ، والصور الشعرية التي جاءت في شعر البارودي والتي ارتبطت بالبطولة ، والقيم الإسلامية ما هي في الحقيقة إلا انفجار عاطفي كبير . خاصة في المنفى . أحدث انقلاباً فكرياً ، وامتداداً خيالياً أسهم بقدر ما في توليد الصور ، وابتداع المعاني ، ونشر أجواء غير مستقرة من الحزن ، واليأس ، والتسليم ، والثورة ، والتمرد ، والتفاؤل .

(١) المشقص : السهم . التفويق : وضع السهم على وتر القوس . أقصد : أصاب وقتل في الحال .

٥ . الموسيقى ، والوزن :

أ . الموسيقى :

جاءت موسيقى البارودي على نغمات شعره ، ونبراته ، فقد نبذ كل الأشعار الغثة وراء ظهره ، واجتاز القرون من خلال الدواوين الشعرية إلى عصور قوة الأدب ، فنفذ إلى الينابيع الأصلية للشعر العربي ، وسرعان ما تروّت شاعريته فملك فيثارتها ، و استخرج منها أعذب الألحان ، فأعاد في شعره الموسيقي القديمة للشعر العربي بمقوماتها الصوتية ، واللغوية بحيث يجد القارئ فيه الرحيق العذب المصفى الذي يبعث القوة ، والنشوة ، فقد مثل في شعره الفتوة العربية ، وكل الشيم الفاضلة ، والطموح ، والثقة بالنفس ، والاعتداء بالقومية ، كما قام بمعارضة بعض الشعراء الفحول (١) .

واحتذاء البارودي لموسيقى الأقدمين لا تعني المحاكاة ، والجمود ، بل إن انسكاب موسيقى الأقدمين في شعره يقوم على التمثيل الواعي الذي لا يلغي أصالته ، وملامح شخصيته الأدبية ، وكان اطلاعه الواسع على الأدب يتيح له الاحاطة بأسرار الشعر الموسيقية فيزداد حسه رهافة ، واستعداداً . و من ثم فإن موسيقى البارودي هو موسيقى الأقدمين ، نحسها في شعره فنجد فيها نفس أجراس موسيقى الأقدمين ، ورنينها ، فقد اقتفى آثارهم في الصياغة ، واحتذى قولهم في النظم ، وتمثلهم في مخيلته ، فامتزج روحه بأرواحهم ، وموسيقاه بموسيقاهم . وكل المعاني التي عبّر عنها البارودي ، و صاغها شعراً كانت تتدفق من نفسه . ولذا كان الموسيقى يتدفق في سلاسة ، وقوة ، يسنده حسه القوي ، و عاطفته الجياشة ، وخواطره المتنوعة التي تأخذ بعضها بأيدي بعض فتتولد المعاني ، وتتساب الموسيقى ، وتتجدد الأوزان ، فهو في معانيه . عامة . لا ينسى الاهتمام بالموسيقى الضخمة ، وما ينتج عنه من رنين محكم ، مزاجاً له عناصر الشعر القديم ذات الصياغة الجزلة الرصينة ، ومن آثار الاهتمام بالموسيقى نجد بعض التصريح في بعض قصائده ، ولكن عموماً الموسيقى عنده مطّردة ، ولا نكاد نحس -

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٢٠٦ .

بنشاز ، أو إعراض .

وتتنوع موسيقي البارودي ، فهي تتراوح بين القوة ، والرنين الضخم ، واللحن الداوي كالرعد القاصف ، وبين الهدوء ، والركود أحياناً . ويرجع ذلك إلى الأجواء النفسية للشاعر ، وإلى الأغراض التي تطرّق إليها ، فهو عندما يفخر ببطولته ، ويصف الحرب ، والنزال يقوى جرسه الموسيقي ، حتى لكأننا نحس بصليل السيوف ، ووقع الرماح على الدروع مختلطة بوقع سنايك الخيل ممتزجة بموسيقاه ، وعليه فإن الموسيقى تمثلها حماسياته ، و تصويره لميادين القتال حيث الألفاظ تقرر الآذان ، وتدوي دويّاً متواصلاً لا ينقطع .

فاستمع إليه يقول في الفخر (١) :

أَبِي الضَّيْمِ فَاسْتَلَّ الْحُسَامَ وَأَصْحَرَ وَذُو الْحِلْمِ إِنَّ سِيمَ الْهَوَانِ تَنَمَّرًا (٢)
وَطَارَتْ بِهِ فِي مُلْتَقَى الْخَيْلِ عَزْمَةً أَعَادَتْ جَبِينَ الصُّبْحِ بِالنَّقْعِ أَكْدَرًا (٣)
فَرَدَّ ذُبَابَ الْمَشْرِفِي مُثَلَّمًا وَغَادَرَ صَدْرَ السَّمْهَرِيِّ مَكْسَرًا (٤)
جَلَادُ امْرِئٍ آلَى بِقَائِمِ سَيْفِهِ عَلَى الْمَجْدِ أَنْ يُؤْلِيهِ نَصْرًا مُؤَزَّرًا (٥)
جَدِيرٌ . إِذَا مَا هَمَّ . أَنْ يَكْسُو الْقَنَا وَيَبِيضَ الظُّبَا ثَوْبًا مِنْ الدَّمِ أَحْمَرًا (٦)
وَمَا كُلُّ مَنْ سَاسَ الْأَعْنَةَ فَارِسًا وَلَا كُلُّ مَنْ نَاشَ الْأَسِنَّةَ قَسُورًا (٧)

(١) ديوان البارودي ١٢٢/٢ .

(٢) أصحر : برز لعدوه في شجاعة ، وبسالة . سيم : أذيق وحُمل على الشيء . تنمرا : تنكر ، وتغير ، وأظهر الغضب ؛ لأن النمر لا يرى إلا متنكراً ، غاضباً ؛ لخبثه ، وفنكه .

(٣) ملتقى الخيل : ساحة الحرب ، حيث يلتقي الفرسان المحتربون . العزمة : الإرادة القوية القاطعة .

(٤) ذباب السيف : حده القاطع . المشرفي : السيف المنسوب إلى المشارف ، وهي قرى من أرض اليمن اشتهرت بصناعة السيوف . مثلماً : مفلولاً مكسراً . السمهري : الرمح المنسوب إلى رجل يدعى (سمهر) اشتهر بتنقيف الرماح ، وتقويمها ، وبيعها .

(٥) آلى : أقسم ، وحلف .

(٦) البيض : السيوف . الظبى : حد السيف .

(٧) ساس : دبّر . الأعنة : سيور اللجام . ناش : أخذ ، وتناول . قسور : الشجاع ، أو القوي الباسل .

نحس ونحن نقرأ هذه الأبيات بقوة الجرس ، وعنف الموسيقى المختلط بصليل السيوف ، وحركة الخيول ، وصيحات الفرسان ، وقافية الرءاء المتحركة بالفتحة ، وألف الاطلاق التي بعدها تمنح اللحن قوة إضافية ، وتكسب الموسيقى تمازجاً ، وتناغماً ، هذا مع إحساسنا بدوي السينات مع الصاد ، والضاد في البيت الأول ، وصدى القاف في البيت الثاني ، وجرس الصاد ، والسينات في عجز البيت الثالث ، وفي البيت الأخير .

والشيء نفسه في هذا النص البطولي (١) :

عَفَاءٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعِشْ بِهَا بَطْلًا يَحْمِي الْحَقِيقَةَ شَدُّهُ (٢)
 مِنَ الْعَارِ أَنْ يَرْضَى الْفَتَى بِمَذَلَّةٍ وَفِي السَّيْفِ مَا يَكْفِي لِأَمْرِ يُعَدُّهُ
 وَإِنِّي أَمْرٌ لَا أَسْتَكِينُ لِصَوْلَةٍ وَإِنْ شَدَّ سَاقِي دُونَ مَسْعَايَ قَدُّهُ (٣)
 أَبْتُ لِي حَمْلَ الضَّيْمِ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ وَقَلْبٌ إِذَا سِيمَ الْأَدَى شَبَّ وَقَدُّهُ (٤)

الأبيات السابقة فيها رنين موسيقي عنيف ؛ فالقافية المختومة بالدال المشددة المضمومة ، والهاء المضموم يحدث دويّاً أشبه بالانفجار المكتوم ، وإذا أخذنا في الاعتبار التاء المربوطة المكسورة المختومة بها الشطر الأول ؛ لأدركنا مقدار التداخل الموسيقي ، وما يصاحبه من انخفاض ، وارتفاع تخلق أجواءً من الضجيج ، والصخب أشبه بالإيقاع .

وقوة الموسيقى في شعر البارودي ليست قاصرة على شعره البطولي ، و الذي يصف فيه ميادين القتال ، ومشاهد الحروب ، فنجدها في بعض شعره الديني ، وفي المواعظ خاصة عندما يغضب للحق ، ويتمرد على الرذائل ، و

(١) ديوان البارودي ١١٧/١ .

(٢) الشدة : قوة الحملة في الحرب ، ونكاية الأعداء .

(٣) القد : حبل من الجلد غير المدبوغ يقيد به الأسرى ، ونحوهم .

(٤) الوقد : النار .

المساوي فيرتفع الموسيقى إلى مستوى الثورة النفسية ، وتشدد موسيقاه أيضاً أحياناً عندما يصور مأساته ، ويشكو جور الأيام ، وظلم الناس ، وما آل إليه أمره من شر .

وفي الأبيات الآتية نحس بموسيقى قوية مثل الطرقات الحادة بينما الشاعر يقدم النصيح ، والإرشاد ، ويثور ثورة عنيفة على كل ما هو ضد الشرف ، والمكارم حيث يقول (١) :

وَإِذَا عَزَمْتَ فَكُنْ بِنَفْسِكَ وَاثِقًا فَالْمُسْتَعَزُّ بِغَيْرِهِ لَا يَظْفَرُ (٢)
 إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ مِنْ بَدَاهَاتِهِ فِي الْخُطْبِ هَادٍ خَانَهُ مَنْ يَنْصُرُ (٣)
 وَآخِذٌ مُقَارَنَةً اللَّئِيمِ وَإِنْ عَلَا فَالْمَرْءُ يُفْسِدُهُ الْقَرِينُ الْأَحْقَرُ (٤)
 وَمِنْ الرِّجَالِ مَنَاسِبٌ مَعْرُوفَةٌ تَزْكُو مَوَدَّتَهَا ، وَمِنْهُمْ مُنْكَرٌ (٥)
 فَانْظُرْ إِلَى عَقْلِ الْفَتَى لَا جِسْمِهِ فَالْمَرْءُ يَكْبُرُ بِالْفِعَالِ وَيَصْغُرُ
 فَلَرَبِّمَا هَزَمَ الْكَتِيبَةَ وَاحِدٌ وَلَرَبِّمَا جَلَبَ الدَّيْنَةَ مَعْشَرٌ (٦)
 إِنَّ الْجَمَالَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا خَفِيَ الصَّوَابُ لِأَنَّهُ لَا يَظْهَرُ
 فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا تَعِيشُ بِذِكْرِهِ فَالْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا حَدِيثٌ يُذْكَرُ

فقوة الموسيقى ناشئة من قوة القافية ، وجرس الألفاظ ، والوزن العروضي ، والصياغة المحكمة ، والألفاظ تؤدي هنا دوراً رائداً في شدة الموسيقى ، وكأنما اختارها بعناية فائقة ، وغسلها في ماء الذهب ، ونظمها فصارت لها رنين كالمصوغات الذهبية في أيدي الغواني .

(١) ديوان البارودي ٥٧/٢ .

(٢) المستعز : المعتمد .

(٣) البدهات : إصاغة الرأي السديد في الأمور المفاجئة .

(٤) مقارنة : مصاحبة ، ومصادقة .

(٥) مناسب : الأنسان الواضحة المشهورة . تزكو : تنمو . منكر : مجهول الأنساب غير معروف .

(٦) معشر : الجماعة من الناس .

وعندما يورد بعض القيم الإسلامية ، وعندما يتغزل نجد موسيقاه تشيع فيه الحيوية ، والنشاط ، ويهدأ فيه الجرس الموسيقي حتى يصل أحياناً إلى درجة الركود ، والضعف ، وكل ذلك حسب الانفعالات النفسية للشاعر ، ولكن قيم الدين عموماً تضي على النفس هدوءاً ، وسكينة ووقاراً .

فتأمل هذه الموسيقى الهادئة وهو يقدم الموعظة ^(١) من خلال هذا الرثاء ^(٢) :

نَمِيلُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى ظِلِّ مُزْنَةٍ لَهَا بَارِقٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ ^(٣)
وَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ وَالْمَرْءُ قَائِمٌ عَلَى حَذَرٍ مِنْ هَوْلٍ مَا يَتَوَقَّعُ؟ ^(٤)
بِنَا كُلَّ يَوْمٍ لِلْحَوَادِثِ وَقَعَةٌ تَسِيلُ لَهَا مِنْ نُفُوسٍ وَأَدْمَعُ ^(٥)
فَأَجْسَادُنَا فِي مَطَرِحِ الْأَرْضِ هُمْدٌ وَأَرْوَاحُنَا فِي مَسَرَحِ الْجَوِّ رُتَعُ ^(٦)
وَمَنْ عَجَبٍ أَنَا نُسَاءٌ وَتَرْتَضِي وَتُذَرِكُ أَسْبَابَ الْفَنَاءِ وَتَطْمَعُ ^(٧)
وَلَوْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ عُقْبَانَ أَمْرِهِ لَهَانَ عَلَيْهِ مَا يَسُرُّ وَيَفْجَعُ ^(٨)
تَسِيرُ بِنَا الْأَيَّامُ وَالْمَوْتُ مَوْعِدٌ وَتَدْفَعُنَا الْأَرْحَامُ وَالْأَرْضُ تَبْلَعُ ^(٩)
عَفَاءٌ عَلَى الدُّنْيَا فَمَا لِعِدَاتِهَا وَفَاءٌ وَلَا فِي عَيْشِهَا مُتَمَتِّعُ ^(١٠)

(١) قدمها في رثاء أحمد فارس بن يوسف بن منصور المشهور بالشدياق (١٨٠٤م . ١٨٨٧م) . عالم لغوي ، وأديب كاتب ، وشاعر ، ولد في إحدى القرى اللبنانية ، وتأدب في مصر ، وتنقل بين مالطة ، وأوربا ، ثم سافر إلى تونس ، واعتنق فيها الدين الإسلامي ، ثم دعي إلى القسطنطينية ، فأقام بها إلى أن مات ، وأصدر بها جريدة (الجوائب) المشهورة ، وله مؤلفات كثيرة منها : (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب) ، و (الجاسوس على القاموس) و (الساق على الساق فيما هو الفاريانق) ، و (الواسطة في أحوال مالطة) .
(٢) ديوان البارودي ٢/ ٢٠٤ .

(٣) نميل : نتوجه إليه . مزنة : سحابة بيضاء ماطرة . بارق : البرق .

(٤) الهول : الأمر الشديد الداهم . المتوقع : كل ما يترقبه الإنسان ، وينتظر وقوعه كالمرض ، والموت .

(٥) وقعة : صدمة الحرب . تسيل : تزهق .

(٦) مطرح الأرض : القبور التي تطرح فيها الأجساد بعد موتها . همد : جمع هامة ، وهو سكون الموت . رتع : المراد بها انطلاق الأرواح من الأجساد .

(٧) نطمع : هو الطمع في العمر ، والتأمل في زيادة العيش .

(٨) العقبان : هي العاقبة ، والمصير ، والمآل ، والمنقلب ، والنهاية .

(٩) تدفعنا الأرحام : كناية عن الولادة ، والخروج من رحم الأم . الأرض تبلع : كناية عن الموت ، والدفن في القبور ، والاستقرار في باطن الأرض .

(١٠) عفاء : الدروس ، والامحاء ، والهلاك ، والفناء . عداتها : من الوعد .

رنة الحزن ، ووقفات التأمل ، والثورة الصامتة انعكست على صفاء الموسيقى ، وانسيابها دون خلل ، أو اضطراب ، وكأنه يرتل بعض الترانيم في إحدى الكنائس ، وحتى قافية العين المضمومة توحى بالفجعية ، وحتى الألفاظ الموحية مثل : (المنية ، المرء ، أدمع ، همّد ، الأرواح ، الفناء ، يفجع ، الموت ، الأرحام ، تبلع ...) تلقى ظللاً من الهدوء ، والسكون على الموسيقى ، وتجعل الأوزان و تفعيلاتها تدور في بطئ مثلاً تدور الساقية ، وربما إذا صمت المنشد يحس السامعون بقايا الصدى في آذانهم ، وهم واجمون .

وأحياناً في بعض المعاني الدينية تهدأ موسيقى البارودي لدرجة السكون ، والرتابة ولكنها تتخللها بعض القوة ، ومن ذلك قوله في الإرشاد ، والنصح (١) :

- فُخْذاً مِنَ الْأَيَّامِ مَا سَمَحَتْ بِهِ لِلنَّفْسِ قَبْلَ تَعَذُّرِ وَشِمَاسٍ (٢)
وَإِذَا أَرَبَكُمَا الزَّمَانُ بِوَحْشَةٍ فَاسْتَمَخْضَاهُ الْيُسْرَ بِالْإِينَاسِ (٣)
إِنَّ الرِّوَاءِمَ لَا تَدُرُّ لُبُونَهَا إِلَّا بِلِينِ الْمَسْحِ وَالْإِبْسَاسِ (٤)
فَلَرُبَّ صَغْبٍ عَادَ سَهْلاً بَعْدَ مَا قُطِعَتْ عَلَيْهِ مَرَائِرُ الْأَنْفَاسِ (٥)
مَا كُلُّ مَا طَلَبَ الْفَتَى هُوَ مُدْرِكٌ إِنَّ الْأُمُورَ بِحِكْمَةٍ وَقِيَاسٍ (٦)

فهذه الموسيقى شديدة في الأبيات تتخللها بعض القوة الخائرة في البيت الأول في تناغم السينات ، ودوي الكافات في البيت الأخير ، فالألفاظ في عمومها تساعد على الهدوء، والصمت مثل : (اليسر ، الإيناس ، المسح ، الإبسّاس ، سهل ، الأنفاس) وموسيقى البارودي ليست قاصرة على القوة الهادرة ، والهدوء والركة ، والهدوء الرتيب ؛ فنجد فيه أيضاً الحيوية ، والنشاط ، والخفة ، وسرعة الإيقاع عندما تتفرج

(١) ديوان البارودي ١٣٥/٢ .

(٢) شِمَاس : الصعوبة والاستحالة .

(٣) أَرَبَكُمَا : الإربابة هي الإزعاج ، والتكرير . الاستمخاض : الاستخراج . الإيناس : الموانسة ، والملاطفة .

(٤) الروائم : جمع رائمة ، وهي الدابة ذات الولد . اللبون : ذات اللبن من الشاة والإبل . الإبسّاس : التلطف .

(٥) المرائر : جمع مرارة ، وهي كيس لاصق بالكبد يتأثر بالتعب ، والاجهاد .

(٦) القياس : قياس الأمور بنظائرها .

أساريه ، وعندما يتناول بعض الأمور الحيوية مثل الدعوة إلى التأمل في قدرة الله ، وبديع صنعه فيقول ^(١) :

أَمَا تَرَى كَيْفَ اسْتَحَارَ الدُّجَى وَكَيْفَ ضَلَّ النَّجْمُ حَتَّى اهْتَدَى؟ ^(٢)

وَلَا حَ خَيْطُ الْفَجْرِ فِي سُحْرَةٍ كَصَارِمٍ فِي قَسْطٍ جُرْدَا ^(٣)

فَالْجَوُّ قَدْ بَاَحَ بِمَكْنُونِهِ وَالْأَرْضُ قَدْ أَنْجَزَتْ الْمَوْعِدَا ^(٤)

غَمَامَةٌ أَلْقَتْ بِأَفْلَازِهَا وَجَدُولٌ مَدَّ إِلَيْنَا يَدَا ^(٥)

فَآنْهَضُ ، وَسِرٌّ وَانْظُرْ وَمِلٌّ وَابْتَهَجْ وَامْرَحٌ وَطَبٌّ وَاشْرَبْ لِثُرْوِي الصَّدَى ^(٦)

فالحياة متدفقة ، والإيقاع متجدد مع كل مظهر من مظاهر قدرة الله ، ونفس الشاعر منسرح ، واليقين في قلبه تمنح الموسيقى نشاطاً وجمالاً ، حتى لنكاد ندوب في روعتها .

اهتم البارودي بالصناعة الشعرية عموماً ؛ فقد كان يتتبع نغمات شعره ، ويعيدها ، ويكررها ، ويخلصها من الألفاظ التي تؤدي إلى خلل ، أو اضطراب ، ويظلّ يردد أبيات قصيدته حتى تصفو الموسيقى ^(٧) وتخلو من الكدر ، وهو القائل ^(٨) :

أَخَفُّ عَلَى الْأَسْمَاعِ مِنْ نَعَمِ الْحَدَا وَالْأَطْفُ عِنْدَ النَّفْسِ مِنْ زَمَنِ الْوَرْدِ

وقد عني بتصفية الموسيقى في قصائده حتى لنكاد تغدو بعضها أنغاما خالصة فلا يكون فيها لفظ مستكره ، أو خلل بائن ، ومما أعان البارودي على صفاء

(١) ديوان البارودي ١٩٢/١ .

(٢) استحار : من الحيرة ، والتردد .

(٣) السُّحْرَة : وقت قبيل الفجر . القسطل . الغبار : الكثيف المظلم .

(٤) باح الجو بمكنونه : يعني انقشاع ظلامها . انجرت الأرض الموعد : يقصد ظهور زينة الأرض بزوال الليل .

(٥) الأفلاذ : المراد بها هنا المطر العميم .

(٦) المرح : الاختيال ، والنشاط ، وشدة الفرح .

(٧) في الأدب الحديث ١٨٩/٣ .

(٨) ديوان البارودي ١٧٨/١ .

الموسيقى تأثره بالشعر القديم عموماً ، وبالعباسي خصوصاً ؛ فتلك الأشعار قد بلغت من القوة ، والتماسك كل أوج ، وصفت فيها اللغة ، وبلغت كل ما يمكن لها من رشاقة ، وعذوبة ، ونعومة ، واتسعت الملاءمات العروضية مع الأجراس الموسيقية .

وقوة موسيقى شعر البارودي لا تتبع من الأوزان العروضية وحدها ، بل تتبع كذلك من ذوقه المرفه ، وإحساسه الدقيق بالجمال ، وتأثره بموسيقى الشعر العربي ، وبموسيقى القصائد المؤثرة في الموسيقى الشعرية وذلك من المواهب الفنية التي تسهم في تربية الأذواق ^(١) وتتحكم في اختيار الألفاظ ذات الجرس الموسيقي .

ب . الوزن :

البارودي شاعر جزل ، حافظ على نهج الأقدمين في بناء قصيدته ، واعتمد في كثير من أشعاره على العبارات الفخيمة ، والجهيرة التي كان يعبر بها عن نفسه ، ويصف بها الحروب ، والمغامرات ، وهذا كان يحمله لأن ينظم في البحور الشعرية المكتملة التفعيلات التي تتيح له المجال لصياغة عباراته الرحبة ذات الألفاظ الجزلة القوية ، ومن هنا كان الكثير من شعره يجري على أوزان البحور الطوال ؛ فالأوزان والبحور الشعرية تؤدي دوراً في تحديد النغمات الموسيقية ، وأشعار الجزالة ، والفخامة ، ذات المعاني الرحبة تجد متسعاً في البحور الطوال ، والبارودي . كما ذكرنا . شاعر جزل أحاط بمعظم الأساليب الشعرية القديمة ^(٢) ، وأوزانها ، وقوافيها ؛ فأثر على شعره ، واختياره للبحور .

ومع ذلك كان ينظم أيضاً في البحور القصيرة ، والمجزوءة ذات الأوزان الخفيفة التي تناسب بعض الأغراض ، ومن هنا نجد أن أوزان الشعر عنده تتنوع بين البحور الطوال ، والقصار ، والمجزوءة أحياناً ، ولكن أغلب ما نظمها كان في البحور الطوال .

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ص : ٢٠٠ .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص : ٢١٠ .

والظروف عاشها الشاعر ، أثّرت في تنوع موسيقاه ، وأوزانه ؛ فهو لم يكن شاعر غزل فقط ، ولم يكن شاعر فخر فقط ، ولم يكن شاعر زهد فقط ، بل كان مزيجاً من كل هذا ، فافتخر ، وزهد ، وتغزل ، وشكا ، وتبرّم ، ودعا للفضيلة مما أثر على أوزانه .

وقد حاول البارودي التجديد في الأوزان الشعرية فنظم قصيدة له على وزن جديد لم يسبقه إليه أي شاعر عربي . حسبما أعتقد . وهو وزن مجزوء المتدارك ، فهذا الوزن . المتدارك . ورد في الشعر العربي كاملاً ومشطوراً ، ولكنه لم يرد مجزوءاً إلا على لسان البارودي ، قال في الموعظة ، والإرشاد (١) :

وَاحْذَرِ الَّذِي إِنْ وَعَى سَبَحَ (٢)

لَيْسَ مَنْ أَسَا مِثْلَ مَنْ جَرَحَ (٣)
كُلَّمَا رَأَى فُرْصَةً قَدَحَ

أَيْنَ مَنْ رَأَى فَاسِداً صَلَحَ ؟

كُلُّ مَنْ وَشَى سَوَفَ يَفْتَضِحَ

فَاتْرُكِ الْأَدَى فَالْأَدَى تَرَحَّ (٤)

وَاسْعَ لِلْغُلَا مَنْ سَعَى نَجَحَ

وَأَزَعِ مَا حَوَتْ هَذِهِ الْمُلُحُ (٥)

(١) ديوان البارودي ١٠٣/١ .

(٢) سبّح : اغتاب ، والمعنى : احذر الشخص الذي اطلع على أمورك ، ووعاها أن يغتابك .

(٣) أسا : داوى ، وعالج .

(٤) ترّح : ضد الفرّح .

(٥) الملح : الحديث الحسن الممتع .

وتجديد البارودي في الأبيات يشبه إلى حد كبير تجديد أبي العتاهية ^(١) في الأوزان العروضية ، ولكن لا شك أن النص السابق يشبه الأراجيز ، ومن هنا كان البارودي يميل إلى الأوزان الخفيفة ، والمجزوءة طلباً للسهولة ، ووضوح المعنى التي تجعل للمواعظ ، والحكم ، والحماسة قيمة كبيرة ، لسهولة حفظها ، ووضوح معانيها .

(١) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد ، ولد سنة ١٣٠ هـ ، قرب الأنبار ، و هاجر مع أسرته إلى الكوفة ، ودخل في سلك المختلئين المتشبهين بالنساء ، وتردّى في هوة الفجور ، وتمرّع في حمأة الرذائل ، وكان دميم شقيقه الوجه ، فظيعاً قبيح المنظر ، وما كان إلا شاعراً نابغاً ، وقد عمل خزافاً في معامل الخزف ، والجرار مع ، ومع ذلك عرف بشعر الزهد .

٣ . المعاني :

تناول البارودي العديد من المعاني في شعره ؛ فقد كان مُلهماً ، أو كان عبقرياً حاذقاً ، برع في التعبير عن معانيه التي ألبسها ثوباً وشياً من الصياغة ، والمعنى هو الأساس ، والغاية في العمل الأدبي ، والمعنى القوي يدل على قوة الفكر ، وخصوبة الخيال ، وسلامة الذوق ، والبارودي باعث نهضة أدبية لأمة بأسرها كان يدرك كل هذا ، ويتمتع بكل هذه الخصائص ، فكانت معانيه في عمومها قويّة مترعة بالحسن ، والجمال .

جاءت المعاني الدينية للبارودي ذاتية متميزة ؛ إذ إنها تعبر عن ثقافة عقائدية ممتزجة بمواقف إنسانية ذات دلالات خاصة ؛ فهو يستخلص من تجاربه العبر ، ويستخلص من تجارب الآخرين كل ما يدعم معانيه ، ويقتبس من القرآن أنواره ، وجواهر مقاصده ، ويربط بين مساوئ المجتمع ، وأسباب التردّي ، ويربط بين محاسن الأخلاق ، وسبل التطور ، والخلاص ، وكل هذا من خلال مواقف مأثورة يصورها شعراً ؛ فيرسم للآخرين النهج القويم ، ويدعو عبرها إلى الحياة الكريمة القائمة على المزاجية بين قيم الدين ، والمفاهيم العامة التي تتجدد على مر الأزمنة . ظل البارودي يردّد كثيراً من المعاني التي وردت في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وتكررت على السنة الزهاد ، والوعاظ ^(١) ، ولكن معظم المعاني التي تطرق إليها ليست جديدة غير أن شخصيته فيها تبدو واضحة ؛ فهو يعبر فيها عن نفسه ، وعصره ، وبيئته ، وما ساد في مجتمعه من خير وشر ؛

فالبارودي ذاق حلو الزمان ، ومُرّه ، وارتفع في مناصب الدولة ، وخالط أهل الجاه ،
والسلطان ، واتصل بطبقات الشعب ، وشارك في الحركة الوطنية ، وأسهم في الثورة
الشعبية ، ثم تعرّض للنكبات ، وقضى حيناً من الدهر في بلاد المنفى ؛

فعبّر عن المعاني المتصلة بحياته المتنوعة ، المليئة بالمتناقضات ، وقد كان سامي الشعور ، صادق التعبير ، يصدر الشعر منه عن نفس تملؤها حبُّ الخير مثلاً تملؤها الهمم البعيدة ، والآمال الجسام .

والمعاني البطولية التي أفرد لها البارودي العديد من القصائد استمدّها من مواطنها القديمة ، ومن أحضان بيئتها الغابرة بين تلال الرمال ؛ فهو ينتمي إليها بالنشأة والمقام ؛ فقد عاش في تلك العصور النائية بين أبيات الشعر ، وتجوّل بفرسه بين تلال المعاني ، وقارع فرسان القبائل المغيرة بين شعاب الأحرف ، والكلمات ؛ فجاءت معانيه في البطولة حيّة تمثل المعاني القديمة للشعر العربي ، ومضامينه .

وصلة البارودي بالماضي قويّة ضاربة بجذورها في الأعماق ؛ فهو يرى أن عناصر الشعر القديم الموروث لا تعيق المعاني المعاصرة بل تغذيها ، وتنميها ، وتسبغ عليها نعمةً ظاهرة من الطابع العربي الأصيل . وما على الشاعر إلا أن يسكب ذلك في قوالبه الفنيّة التي يريدها فتخرج بيضاء من غير سوء تارة أخرى .

ويسطو البارودي أحياناً على معاني الشعراء القدامى ، وعندما يجاريهم يختلط شعره بأشعارهم ، وتمتزج معانيه بمعانيهم ، وهذا لا يقلل من مكانته ؛ فهو لم يكن عاجزاً عن الابتكار ، ولكنه كان جيّد المحاكاة ، سليم الذوق والطبع ؛ فمعاني القدماء تقرّ من مخيلته لتهبط على شعره دون أن يحس بها ؛ فهي محفورة في ذاكرته ؛ فالبارودي أسمى مكانة ، وأعلى كعباً من أن يتدلّى إلى فتات موائد غيره ؛ فهو قادر على توليد المعاني ، وابتكارها (١) .

والمعاني البطولية عند البارودي تمثل موقفاً حضارياً ، وسياسياً ؛ فهو ينادي بالحرية ، والعدل ، والمساواة ، ويرسم لقومه النهج القويم يذكّرهم بأمجادهم ، وماضيهم التليد ، رافضاً كل أشكال الحيل التي ينتهجها المستعمر ،

(١) في الأدب الحديث ٣/ ٣٢٦ .

فجعل من نفسه بطلاً يقارع الأعداء في كافة الميادين .

وقد اهتم البارودي بأناقة الألفاظ ^(١) وطنين الكلمات ، وهندسة التراكيب ، ولم يكن ذلك على حساب المعنى ؛ فقد كان كثير العناية بالمضمون ، والالتفات إلى الغرض الذي من أجله كانت الصياغة ، فكثير من شعره يزدحم بالمعاني القوية التي تلائم الأغراض ، وكأنما كان يستمد تلك المعاني من صلابة روحه ، ومضاء عزيمته .

ولعل مما يميز معاني البارودي احتكامه إلى ذوقه الخاص في طرح الحلول للقضايا التي يعالجها وهذا الذوق . كما نعلم . ذو مرجع ديني بفطرته ، سيطرت عليه اللمسات الروحية ، والخلفية ، فاصطبغت بها الكثير من معانيه مما استحالتها إلى رؤية دينية ظهرت بجلاء في العديد من قصائده .

وقد غُذيت شاعرية البارودي بعاملين أسهما بالنصيب الأوفر في توليد معانيه

هما :

١. التيار الديني المتمثل في القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وكان تأثير هذا التيار عميقاً ، وظاهراً ؛ فالقرآن ، والحديث هما المصدران الجامعان لكل فضيلة ، ومنقبة ، ولم يقف تأثيرهما على تناوله للقيم الإسلامية فحسب بل أثر كذلك في شعره البطولي ؛ والبطولة بمعنى الشجاعة ، والإقدام في نصره الحق ، والدين جزء لا يتجزأ من القيم الإسلامية .

وللبارودي اتجاهان في تأثره بالتيار الديني في شعره :

الإتجاه الأول : أخذ المعنى وتكريره في شعره ، ومن ذلك قوله في تحذير الناس من عذاب الله يوم القيامة ، وحثهم على تقوى الله ، والاستعداد للقاءه ^(٢) :

(١) تاريخ الأدب العربي في العصور الحاضر ص : ١٩٨ .

(٢) ديوان البارودي ١٠٧/٢ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا عَذَابَ اللَّهِ وَالْآخِرَةَ

ونجد المعنى مأخوذاً في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا... ﴾ (١) .
وقال في النص ، والإرشاد إلى التزام النهج الإسلامي الواضح ، وعدم التأثير بضلال المضلين (٢) .

فَدَعُ بَنِي الدُّنْيَا لَأَهْوَائِهِمْ وَلَا تَطْعُ مَنْ لَامَ أَوْ فَنَدَا

ونجد المعنى ذاته في قول المولى عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ... ﴾ (٣) .
ويقول البارودي في سياق بعض حكمه المرتبطة بالدين (٤) ، وبالتربية الروحية :

كُنْ كَمَا شِئْتَ مِنْ رِشَادٍ وَغَيٍّ كُلُّ حَيٍّ بِمَا جَنَاهُ رَهِينٌ (٥)

يشير البارودي إلى أن كل امرئ مجازى بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وفي هذا المعنى كان قول المولى الكريم : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٦) .

وفي موضع آخر يقول (٧) :

فَلَا تَبْتَسِسْ إِنْ فَاتَ حَظٌّ قَرِيبًا أَضَاعَتْ مَصَابِيحُ الدُّجَى وَهِيَ أَقْلُ (٨)
فَقَدْ يَبْرَأُ الدَّاءُ الْغُضَالُ وَيَنْجَلِي ضَبَابُ الرِّزَايَا وَالْمُسَافِرُ يَقْفُلُ (٩)
وَكَيْفَ يَخَافُ الْمَرْءُ حَيْفًا وَرَبَّهُ بِأَحْسَنِ مَا يَرْجُو مِنَ الرِّزْقِ يَكْفُلُ (١٠)

(٢) ديوان البارودي ١٩٣/١ .

(١) سورة لقمان ، الآية : ٣٣ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ١٠٥ .

(٤) ديوان البارودي ١٥٤/٤ .

(٥) رهين : محبوس موقوف .

(٦) سورة الطور ، الآية : ٢١ .

(٧) ديوان البارودي ١٩٠/٣ .

(٨) أقْل : جمع أقْل من أقْل النجم إذا غاب وذهب ضوءه .

(٩) الداء العضال : الذي لا علاج له . ينجلي : يزول ، وينكشف . ضباب الرزايا : شدة المصائب ، و البلاء . يقفل : يعود .
(١٠) الحيف : الظلم ، و الجور . يكفل : يتعهد .

حصر البارودي الناس جميعاً في نطاق قدرة الله تعالى ، وأغلق عليهم كل باب ، فلا مفر من قضائه ، وقدره ، ولا حيلة في دفع مراده ، ومشيبته ، وفي الوقت نفسه يمسح عن الناس الهموم ، والقنوط الذي قد تسببه آلام الحياة ، وضرب أمثلة لمعنى الفرج بعد الضيق ، والرجاء بعد الشدة فقال ربما تضيء مصابيح الدجى وهي آفلة ، وقد يشفي المريض الذي لا يُرجى شفاؤه ، وقد يعود المسافر الميؤوس من رجوعه ، وكل الأمثلة السابقة تحمل معنى التبشير باليسر بعد العسر ، وتحمل معاني عدم الاستسلام لأشباح القنوط ، وشياطين اليأس .

ونجد المعاني السابقة بعينها في القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ^(١) وكل ذلك مرتبط بالعمل الصالح ، والتوكل على الله ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ^(٢) ، ويقول تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ^(٣) ويقول البارودي في الظن ^(٤) :

ظَنَنْتُ خَيْرًا وَلَمْ أُدْرِكْ عَوَاقِبُهُ فَكَانَ شَرًّا وَبَعْضَ الظَّنِّ آثَامُ

يخبر البارودي بأن بعض الظن إثم ، وهذا المعنى نجده في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴾ ^(٥) .
ويقول البارودي إن الإنسان يرجع إلى ربه يوم القيامة فيحكم في أمره بما قدمت يداه في الدنيا ^(٦) :

سَوْفَ يُلْقَى كُلُّ امْرِئٍ مَّا جَنَاهُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأَحْكَامُ

(١) سورة الشرح ، الآية : ٦ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١٢ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٥٠ .

(٤) ديوان البارودي ٤٧٢/٣ .

(٥) سورة الحجرات ، الآية : ١٢ .

(٦) ديوان البارودي ٥٩١/٣ .

ومعنى البيت السابق نجده في عدد من الآيات ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ... ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ ... وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٢) .

ويقول البارودي في معنى زوال الدنيا ، وسرعة انقضائها ^(٣) :

تَأْتِي الشُّهُورُ وَتَنْتَهِي أَيَّامُهَا لَمَعَ السَّرَابِ وَتَنْقُضِي الْأَعْوَامُ
وَالنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ أَوْ صَادِرٌ تَجْرِي بِهِ الْأَيَّامُ

الأيام تمر بسرعة خاطفة تخدع الناس بزخرفها كالسراب ، والناس أثناء ذلك إما مولود يستقبل الحياة ، أو ميت يفارقها ، والإنسان بعد ذلك ضعيف لا يملك حيال هاتين الحالتين فتيلاً ، وهذا المعنى نجده في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ... ﴾ ^(٤) .

ويقول البارودي في بيان الغاية من خلق الإنسان ^(٥) :

مَا خَلَقَ اللَّهُ الْوَرَى بَاطِلًا لِيَرْتَعُوا بَيْنَ الْوَرَى سُدَى

فالمعنى السابق نجده في قوله الله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى ﴾ ^(٦) ويقول المولى عز وجل : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٧) .

ويقول البارودي عن حتمية الموت للخلائق ^(٨) :

هَلْ هِيَ إِلَّا مُدَّةٌ تَنْقُضِي ؟ وَكُلُّ نَفْسٍ خُلِقَتْ لِلرَّدى

(١) سورة غافر الآية : ٢٠ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٧٠ .

(٣) ديوان البارودي ٣/ ٣٢١ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ٤٥ .

(٥) ديوان البارودي ١/ ١٩٤ .

(٦) سورة القيامة ، الآية : ٣٦ .

(٧) سورة المؤمنون ، الآية : ١١٥ .

(٨) ديوان البارودي ١/ ١٩٣ .

ويقول (١) :

وَكُلُّ امْرِئٍ فِي النَّاسِ لَاقٍ حِمَامَهُ فَسَيَّانَ رَبُّ الْعَيْرِ وَالْفَرَسِ النَّهْدِ (٢)

ويقول (٣) :

فَلْيَنْظُرِ الْمَرْءُ فِيمَا قَدَّمَتْ يَدُهُ قَبْلَ الْمَعَادِ فَإِنَّ الْعُمَرَ لَمْ يَدُمْ

ويقول (٤) :

لَا طَائِرٌ يَنْجُو وَلَا ذُو مَخْلَبٍ يَبْقَى وَعَاقِبَةُ الْحَيَاةِ حِمَامٌ (٥)

ويقول (٦) :

فَاطْمَحْ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ ؟ وَهَلْ لَابِنِ السَّبِيلِ مَقَامٌ ؟ (٧)

عبر البارودي في الأبيات السابقة عن حتمية الموت ، وزوال الخلق جميعاً ،

والبقاء لله سبحانه وتعالى ، ونجد هذه المعاني بعينها في العديد من آيات القرآن

الكريم منها : ﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (٨) وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

الْمَوْتِ ... ﴾ (٩) وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٠)

وقوله : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا

﴾ (١١) وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ

... ﴾ (١٢) وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١٣) وقوله : ﴿

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (١٤) .

(١) ديوان البارودي ٢٠٢/١ .

(٢) العير : الحمار . الفرس النهدي : الأصيل الحسن المرتفع .

(٣) ديوان البارودي ٢٧٩/٣ .

(٤) المرجع السابق ٣٣٧/٣ .

(٥) الحمام : الموت .

(٦) ديوان البارودي ٣٢٧/٣ .

(٧) ابن السبيل : المقصود به الإنسان لسرعة انتقاله من الدنيا .

(٨) سورة فاطر ، الآية : ١٣ .

(٩) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ . (١٠) سورة القصص ، الآية : ٨٨ . (١١) سورة الإسراء ،

الآية : ١٣ .

(١٢) سورة الحشر ، الآية : ١٨ . (١٣) سورة العنكبوت الآية : ٥٧ .

(١٤) سورة الرحمن ، الآية : ٢٦ ، ٢٧ .

ولم يكن اقتباس البارودي قاصراً على القرآن وحده بل أخذ من معاني سيد المرسلين الذي أعطي جوامع الكلم ، ومن ذلك قوله في الحث على الرفق ، والتؤدة ، وعدم التعجل ، والتسرع (١) :

تَرْفُقْ فَإِنَّ الرَّفْقَ زِينٌ وَقَلَمًا يَنَالُ الْفَتَى بِالْغَنَفِ مَا كَانَ طَالِبًا

ويقول (٢) :

فَاسْتَعْمِلِ الرَّفْقَ تَعِشْ رَاشِدًا وَاعْطِفْ عَلَى الْأَدْنَى تَكُنْ سَيِّدًا

ويقول (٣) :

تَمَهَّلْ وَلَا تَعْجَلْ إِذَا رُمْتُ حَاجَةً فَقَدْ يَلْحَقُ الْخُسْرَانُ مَنْ يَتَوَرَّطُ (٤)

ونجد معنى الأبيات السابقة في قول النبي ﷺ . لعائشة . رضي الله عنها . : "إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ " (٥) . وقريب من معنى هذا الحديث الشريف أيضاً قول البارودي (٦) :

فَذُو الْحَزْمِ يَرْعَى الْقَصْدَ فِي كُلِّ حَالَةٍ وَذُو الْجَهْلِ إِمَّا مُفْرِطٌ أَوْ مُفَرِّطٌ (٧)

فيقول : إن الحازم العاقل ، ذو الحنكة هو الذي يضبط أموره ، وينتهج سبل الاعتدال أما الغرّ الجاهل فهو الذي يُفْرِطُ ، ويجاوز الحد ، أو يُفَرِّطُ في الأشياء فيضيعها .

ويقول البارودي حاثاً على التوادر ، والمحبة (١) :

(١) ديوان البارودي ٦١/١ .

(٢) ديوان البارودي ١٩٤/١ .

(٣) المرجع السابق ١٧٣/٢ .

(٤) رمت : طلبت . يتورط : يرتبك ويقع في الورطة والمشقة ، و المراد به المتهور .

(٥) رواه مسلم في صحيحه ، كتب البر والصلة ، باب : فضل الرفق ، حديث رقم ٦٦٠٢ ، صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، طبعة دار السلام للنشر ، والتوزيع ، (ط١) ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م .

(٦) ديوان البارودي ١٧٣/٢ .

(٧) الحزم : ضبط الإنسان أموره وأخذه فيها بثقة . يرعى : يلاحظ ، و يتابع . القصد : الاستقامة ، والاعتدال ، والتوسط بين الإفراط ، والتفريط . الإفراط : مجاوزة الحد . التفريط : التقصير ، وتضييع الشيء .

تَحَبَّبَ إِلَى الْإِخْوَانِ بِالْحِلْمِ تَغْتَنِّمَ مَوَدَّتَهُمْ فَالْحِلْمُ لِلشَّرِّ يَرْحَضُ (٢)

فالبارودي ينصح بالتحبب ، والتودد إلى الإخوان ، والأصدقاء ، والمعارف ، ومعاملتهم بالتسامح ، وسعة الصدر ، ويقول النبي ﷺ : " ... أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ " (٣) .

لم يقف تأثير التيار الديني على تناول القيم الإسلامية فحسب ، بل امتدت لتشمل معاني البطولة ، والفروسيّة ، وهذا إذا وضعنا في الاعتبار قوة الارتباط بين البطولة ، والإسلام ، فقد أقسم الله تعالى بالخيال السريعة التي تثير غباراً في ركضها ، وتطير شراراً بضربها الأرض بسنابكها فيقول : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَنْزَرَ بِهِ نَقْعًا ﴾ (٤)

فقد قال البارودي يصف خيله الذي يحارب عليها (٥) :

فَإِذَا عَلَا حَزْنًا أَطَارَ شَرَارُهُ وَإِذَا أَتَى سَهْلًا أَطَارَ دُخَانَا (٦)

وقال البارودي يعبر عن بطولته ، ومكانته في القلوب ، وهيبته في النفوس

: (٧)

إِذَا أَشْرْتُ لَهُمْ فِي حَاجَةٍ بَدَرُوا قَضَاءَهَا قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلِمَاعِي (٨)

(١) ديوان البارودي ١٦٢/٢ .

(٢) يرحض : يغسل ، ويزيل .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان ، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها ، حديث رقم ١٩٤ .

(٤) سورة العاديات ، الآية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٥) ديوان البارودي ٨٨/٤ .

(٦) الحزن : ما ارتفع من الأرض ، و صلب . الدخان : الغبار الكثيف ، أو النقع .

(٧) ديوان البارودي ٢٢٨/٢ .

(٨) بدرُوا : اسرعوا . الماع : إشارة الأصبع .

وهاهو البارودي بهيبته ، ورهبته في القلوب ، مطاع في قومه ، حتى إذا أشار بإصبعه أسرعوا بتنفيذ أمره قبل أن تنتهي إشارته ، وهذا المعنى الدقيق في قول الجبار عز وجل : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ... ﴾ (١) .

والنبي . ﷺ . يخبر عن الخيل وكرمها بقوله : " الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " (٢) ، وهذا المعنى نجده في قول البارودي في سياق تعبيره عن بطولته (٣) :

نِعْمَ الْعَتَادُ إِذَا الشِّفَاةُ تَقَلَّصَتْ يَوْمَ الْكَرْيَةِ فِي الْعَجَاجِ الْأَرِيدِ (٤)

ويقول البارودي عن الخيل أيضاً (٥) :

وَالْخَيْلُ أَكْرَمُ صَاحِبِ يَوْمِ الْوَعَى وَفِي السَّلْمِ تَبَعْتُ غَارَةً وَرِهَانَا

فمعنى الشطر الأول نجده في قول المولى عز وجل : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ... ﴾ (٦) ونجد معنى الشطر الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) .

الاتجاه الثاني : تناول المعنى المقتبس تتاولاً عرضياً ، وذلك لاتحاد المقصد في الدعوة إلى الفضائل ، وحلو الشمائل .

وهذا التناول العرضي لمعاني القرآن يكثر في شعر البارودي عموماً كثرة مفرطة ؛ فالشاعر لا يكاد يجد فكاً من تلك المعاني المزدحمة في مخيلته ، وهذه المعاني الإسلامية التي يتناولها البارودي تكتسب أهمية خاصة من جهة كونها تعتبر تفسيراً ، وتيسيراً لبعض معاني القرآن الكريم .

(١) سورة النمل ، الآية : ٤٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ١٦/١٣ .

(٣) ديوان البارودي ١٢٥/١ .

(٤) العتاد : عدة الحرب . الشفاة : الشدة في الحرب . تقلصت : شمرت ، واستعدت ، وتهيأت . العجاج الأريد : الغبار الكثيف الأسود .

(٥) ديوان البارودي ٨٩/٤ . (٦) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠ .

(٧) سورة النحل ، الآية : ٨ .

ومن ذلك قوله في الموعظة مذكراً للناس بالموت ، ومقرّعاً المتغافلين

عنه (١) :

لَيْسَ ابْنُ آدَمَ ذَا جَهْلٍ بِمَصْرَعِهِ لَكِنَّهُ يَتَنَاسَى الْجِدَّ بِاللَّعِبِ
تَرَاهُ يَلْهُو وَلَا يَنْفَكُ فِي حَذَرٍ وَرَاحَةِ النَّفْسِ لَا تَخْلُو مِنَ التَّعَبِ

يخبر البارودي بأنّ الإنسان يعلم بحتمية الموت ، وحقيقة الفناء ، ولكنه يلهو ، ويلعب ، والأجل قريب ؛ فهذا المعنى قريب من معنى قول العزيز عز وجل : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ ﴾ (٢) .

ويقول البارودي في موضع آخر (٣) :

قَدْ عَرَفْنَا مَا كَانَ مِنَّا قَرِيبًا وَجَهْلُنَا مَا لَا تَرَى الْعَيْنَانِ (٤)
فَدَعَ الْقَوْلَ فِي التَّفَلُّسِ وَأَخْضَعَ لِجَلَالِ الْمُهِيمِ الدِّيَانِ (٥)

البارودي يقول إنّ الإنسان قد عرف أمر الموت ، ولقاء الله ، وجهل كثيراً من الأشياء الغائبة عنه فما عليه . والحالة هذه . إلا الخضوع لله والتطامن ، والانقياد له ، وعدم اتباع الأقوال المضللة ، والابتعاد عن التعمية ، والتعقيد ، ومواضع الشبهة ، والتشكيك ، فكل ذلك يصرف الأذهان عن التفكير السليم ، وفي قول البارودي نهى ضمني عن اتباع فلاسفة السوء ، والضلال ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٦) .

(١) ديوان البارودي ٦١/١ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ١ .

(٣) ديوان البارودي ١١٣/٤ .

(٤) ما لا ترى العينان : كل ما غاب عن إدراك الإنسان من الغيبات .

(٥) المهيم الديان : هو الله تعالى .

(٦) سورة النجم ، الآية : ٢٨ .

والله سبحانه وتعالى وصف المال بأنه زينة الحياة الدنيا فقال : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴾ (١) .

و قريب من هذا المعنى قول البارودي معبراً عن نعم الله ، وفضله عليه (٢) :

فَإِنْ أَكُنْ جَرَّدْتُ مِنْ ثَرَوَتِي فَفَضْلُ رَبِّي حُلِيَّةُ الْعَاطِلِ (٣)

وهنا يخبرنا البارودي بأنه بعد أن جرد من ماله . وهي زينته في الدنيا . تداركه الله بفضله فزيّنه بالإيمان والأدب الإسلامي .

وقال البارودي يعظ ، ويذكر الناس بالموت (٤) :

وَالْمَوْتُ أَسْبَابٌ يَنَالُ بِهَا الْفَتَى فَمَنْ بَاتَ فِي نَجْدٍ كَمَنْ مَاتَ فِي وَهْدٍ (٥)

البارودي يذكر بأن الموت آت لا محالة ، ويدرك الإنسان في أي مكان ، فلا ينجو منه ناج ، و هذا المعنى قريب من قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ ... ﴾ (٦) .

وفي موضع آخر يقول البارودي محدّراً من الركون إلى نعيم الدنيا فهي سريعة التقلب و الغدر (٧) :

وَاحْذَرِ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ بِالْبِشْرِ فَهِيَ كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ

وقريب من معنى هذا البيت قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (٨) .

(١) سورة الكهف ، الآية : ٤٦ .

(٢) ديوان البارودي ٢٠٠/٣

(٣) الحلية : الزينة . العاطل : الخالي من الزينة .

(٤) ديوان البارودي ٢٠٢/١ .

(٥) نجد : المرتفع من الأرض . وهـد : المنخفض من الأرض .

(٦) سورة النساء ، الآية : ٧٨ .

(٧) ديوان البارودي ١٤٣/٤ .

(٨) سورة لقمان ، الآية : ٣٣ .

ويخبرنا القرآن بأن الأرض سوف تبدل ، وتغير عند انقضاء عمر الدنيا حيث يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ^(١) وقريب من معنى هذه الآية يقول البارودي في الموعظة ^(٢) :

كُنَّا لِلْفَنَاءِ أَوْ تَصْعَقَ الْأَرْضُ م وَتَأْتِي بَعْدَ الشُّؤُونِ شُؤُونُ

صعق الأرض يقصد بها فناءها ، وزوالها بحيث تحل محلها أرض أخرى تجري عليها شؤون القيامة .

ويقول البارودي في النصيح والإرشاد ^(٣) :

وَمَنْ حَدَّثَتْهُ النَّفْسُ بِالْغَيِّ بَعْدَ مَا تَنَاهَى إِلَيْهِ الرُّشْدُ سَارَ عَلَى بُطْلٍ

فالذي يرجع إلى الضلال بعد أن يذوق حلاوة الإيمان يدخل في حكم من يشتري الضلالة بالهدى ، وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ ^(٤) .

٢. تيار التراث العربي المشتتل على الشعر ، و الحكم ، والأمثال حيث الأصالة ، ومدارس البطولة ، ومنابع الحماسة والمفاهيم الرفيعة ، والتفنن في إيراد المعاني ، وابتداعها ، وقد أثر هذا التيار في شعره البطولي ، والحماسي ، وأثر في بعض شعره الديني ؛ فهناك بعض القيم النبيلة التي بقيت خالدة ساطعة عبر العصور ، والأزمنة .

فقد قال البارودي معبراً عن شجاعته ، وجسارته في الحرب ^(٥) :

وَلَوْ صَاحَ بِي فِي غَارَةٍ لَوَزَعْتُهَا عَلَى مَتْنٍ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ بِمُرْهَفٍ ^(٦)

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨ .

(٢) ديوان البارودي ١٥٥/٤ .

(٣) المرجع السابق ٨٨/٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٧٥ .

(٥) ديوان البارودي ٢٣٥/٢ .

(٦) وزعتها : رددتها ، وكففتها . محبوك : قوي شديد . السراة : الظهر ، وسراة كل شيء أعلاه . المرهف :

السيف القاطع الحاد .

يقول البارودي إنه ينجذ الذي يستتجد به ، ويدافع عنه بسيفه القاطع البتار ،
راكباً على فرسه القوي الشديد ، ونجد هذا المعنى في قول دريد بن الصمة ^(١)
، (٢) :

دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ وَعِنْدَمَا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِقُعْدَدٍ ^(٣)

فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَتَهَنَّهُتُ وَحَتَّى عَلَانِي كُلُّ أَشْقَرٍ مُزِيدٍ ^(٤)

و في الأبيات التالية يعبر البارودي ن معاني العزة ، والشجاعة فيقول ^(٥) :

فَابْعَثِيهَا شَعْوَاءَ يَحْكُمُ فِيهَا مُنْصُلُ صَارِمٍ وَرُمَحٌ مِثْلُ

هُوَ إِمَّا الْحِمَامُ أَوْ عَيْشَةُ خَضْرَاءُ م فِيهَا لِمَنْ تَفِيًّا ظِلُّ

فالبارودي يدعو إلى الشدة في الحرب ، والصدق في الحملة لتحقيق حياة
العزة ، أو الموت بشرف ، وكرامة ؛ ولا كرامة إلا في الجهاد ، والقتال ، ونجده في
هذا المعنى متأثراً بقول المتنبي ^(٦) الذي يقول فيه ^(٧) :

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مِتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْنِ الْقَتَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ ^(٨)

فَرُؤُوسُ الرِّمَاحِ أَذْهَبُ لِلْغَيْظِ م وَأَشْفَى لِقُلِّ صَدْرِ الْحَقُودِ

وأثر هذا التيار في معاني القيم الإسلامية التي تناولها البارودي ، فقد قال
في مجال النصيح ، والحث على طلب العزة ، ورفض المهانة ، والمذلة ^(٩) :

(١) هو دريد بن الصمة من بني جشم ، يكنى أبا قرة ، وهو أحد الشجعان المشهورين ، وذوي الرأي في الجاهلية
، قتل يوم حنين مع جملة المشركين .

(٢) الشعر والشعراء : عبد الله بن سلام ٦٣٦/٢ ، طبعة دار الثقافة . بيروت . لبنان ، سنة ١٨٩٠م .

(٣) القعدد : الجبان المتخاذل الذي يتقاعد عن الحرب ، والنجدة .

(٤) تتهنعت : كفت ، وتراجعت . الأشقر : الفرس الأحمر الضارب لونه إلى السواد . مزيد : الزيد وهو اللغام .

(٥) ديوان البارودي ٢٣٤/٣ .

(٦) سبقت ترجمته ص : ٤٤ .

(٧) ديوان المتنبي ٣٣/٢ .

(٨) البنود : الأعلام والرايات الكبيرة .

(٩) ديوان البارودي ١٥/٤ .

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي الْمُدُنِ مَا شِئْتَ مِنْ قَرَى فَأَصْحِرْ فَإِنَّ الْبَيْدَ خَيْرٌ مِنَ الْمُدُنِ (١)

ونجد هذا المعنى في قول الشنفرى (٢) الذي يقول فيه (٣) :

وَفِي الْأَرْضِ مَنَاءٌ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقُلَى مُتَعَزِّلٌ (٤)

والشاعران يتفقان في رفض الذل ، وطلب العزة في أي مكان ، ومن هنا فإن الهجرة واجبة في مثل هذه الظروف .

ويقول البارودي في الحكمة (٥) :

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ عَقْلٌ يَرُدُّهُ إِلَى الْحِلْمِ يَبْرَحْ مَدَى الدَّهْرِ عَاتِبًا

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَصْنَفْ عَنِ الْخَلِّ إِنْ هَفَا أَقَامَ وَحِيدًا أَوْ قَضَى الْعُمْرَ غَاضِبًا

يرى البارودي أن العقل هو الذي يرد الإنسان عن الطيش ، والجهل إلى الحلم ، وحسن التصرف ، ويبعده عن كثرة اللوم ، والعتاب ، ويحمله على الصفح الجميل ، ونجد هذا المعنى في قول (٦) بشار بن برد (٧) :

عَشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ تَارَةً وَمُجَانِبُهُ

إِنْ كُنْتَ فِي كُلِّ الذُّنُوبِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

ويقول البارودي في الموعظة (٨) :

كُلُّ أَمْرٍ عَرَضٌ لِلدَّهْرِ يَرِشْقُهُ بِأَسْنِهِمْ لَا تَقَى أَمْثَالَهَا الْجُنُنُ (٩)

(١) أصحر : فعل أمر بمعنى عش في الصحاري .

(٢) سبقت ترجمته ص : ١٤٥ .

(٣) من روائع الشعر العربي ، خليفة محمد التليسي ٥١٤/٢ ، طبعة الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، سنة

١٩٨٥م

(٤) منأى : مكان بعيد يذهب إليه الإنسان . الأذى : يقصد به الذل ، والإهانة . القلى : البغض ، والكراهية ، وربما يقصد بها الذل أيضاً . متعزّل : وهو المكان البعيد الذي ينعزل فيه الإنسان ليعيش بمفرده .

(٥) ديوان البارودي ٦١/١ .

(٦) ديوان بشار بن برد ، محمد ناصر الدين ص : ١٤١ ، طبعة دار الكتب العلمية . لبنان ، بدون تاريخ .

(٧) هو : بشار بن برد بن يرجوخ (٩٦ . ١٦٨هـ) فارسي الأصل ، ولد بالبصرة مكفوف البصر ، وأصيب بالجدري ، وهو صغير فقبح منظره ، وما كان إلا شاعراً مجيداً هجاءً ، زنديقاً .

(٨) ديوان البارودي ٣٧/٤ .

(٩) يرشقه : يرميه . الجنن : جمع جنة ، وهو الدرع ، وكل ما بقي الإنسان ، ويحميه .

يخبر البارودي بأن الإنسان لا ينجو من سهام المنية مطلقاً ، ولو حاول التخفي ، وهذا المعنى نجده في قول كعب بن زهير ^(١) في لاميته (بانت سعاد) التي مدح بها النبي ﷺ . واعتذر فيها ، فقال عن حتمية الموت ^(٢) :

كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولٍ ^(٣)

ويقول البارودي في الموعظة الممتزجة بالحكمة ^(٤) :

يَظُنُّ عَلِيلُ الْقَوْمِ فِي الطَّبِّ بُرَاهُ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الطَّبَّ لَيْسَ بِسَالِمٍ ^(٥)

يقول البارودي إن العلاج لا ينجي من الموت ؛ فالطبيب الذي يداوي الناس لا ينجو من المرض ، ولا يسلم من الموت ، ونجد هذا المعنى في قول المتنبي ^(٦) حيث يقول ^(٧) :

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ مَوْتَةً جَالِينُوسَ فِي طَبِّهِ ^(٨)

ومن القيم الإسلامية التي يعبر عنها البارودي ، صفاء الوداد ، وصدق المودة التي جعلت منه وصديقه أكثر من أخوين شقيقين ، فقال ^(٩) :

وَبَلَّغْنَا بِالْوُدِّ مَا لَمْ يَنْلُهُ بِحَيَاةِ الْقُرْبَى دُؤُو الْأَرْحَامِ

فالبارودي بلغ مع صديقه . بفضل المودة الصادقة . مرتبة الاخوة الحقيقية التي قد لا يظفر بها من تربطهم القرى ، والدم ، والمثل العربي يقول في

(١) هو : كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني ، هجا النبي ﷺ . ، ثم ندم على ذلك ، فجاءه واعتذر إليه بقصيدته اللامية المشهورة ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقد أهداه النبي ﷺ . برده .

(٢) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ص : ٦٣٨ ، ضبط وتحقيق محمد على البجاوي الطبعة الأميرية . مصر ، بدون تاريخ .

(٣) ابن أنثى : الإنسان . آلة حدباء : النعش ، أو سرير الميت .

(٤) ديوان البارودي ٤٦٣/٣ .

(٥) الطَّب : الطبيب .

(٦) سبقت ترجمته ص : ٤٤ .

(٧) ديوان المتنبي ٢٣٦/١ .

(٨) جالينوس : طبيب حاذق عاش في قديم الزمان .

(٩) ديوان البارودي ٣٨١/٣ .

الصديق : الذي يتوفر فيه الصفات المطلوبة في الصداقة : (رب اخ لك لم تلده أمك) (١) .

هكذا صاغ البارودي معانيه في البطولة ، والقيم الإسلامية بحيث يجمع فيها فرائد التراث العربي ، وحلاها من درر القرآن ، وجواهر الحديث النبوي فجاءت معانيه براقعة رائعة .

❖ أثر النواحي الفنية في شعره :

١- تكشف هذه الدراسة عن أساليب البارودي في تقرير مبادئه الفكرية فيما يتعلق بالنواحي الدينية ؛ فهو يستخدم أساليب شتى في تأييد قضاياها السياسية ، والاجتماعية ، فهو ينادي بالعدالة ، ومحاربة الظلم ، والبعد عن الرذائل ؛ فقد كان يمتدح الصفات الكريمة ، ويبتهل إلى ربه طالباً أن تسود المجتمع قيم المساواة ، والرحمة ، والمبادئ المحمودة ، ويتهم من تصرفات بعض الساسة ، والحكام ، ويهجو أهل السوء ، ويبرزهم في صور قاتمة كريهة لينفر الناس من أن يردوا مواردهم ، ويظهر الغضب لخنوع الشعب ، واستكانته للذل ، ويحثهم على المقاومة ، والمثابرة ، ويتعمد استفزاز مشاعرهم ، ويشجعهم على التمسك بالموارد ، ويرسم لهم سبيل الخلاص ، ويزين لهم الثورة ، والانتفاض ، ويضرب لهم الأمثلة ، ويقدم لهم الموعظة .

وتأثره بالأسلوب القرآني جعله ينتهج أساليب القرآن ؛ فهو يدعو إلى الاعتبار بالأمم السابقة ، وهو خلال هذه النظرة التأملية يقلب صفحات التاريخ أمام العيون حتى تستخلص العبر ، والمواعظ ، وإدراك الغاية من الحياة ، وما ينتهي إليه الإنسان ، وما يؤول إليه أمره بعد الموت ، والزوال ، وكلها أساليب تتناسب الأغراض التي جاءت في صياغتها .

وأسلوب البارودي في تناوله للحكم ، والمواعظ تؤكد على تجارب عميقة ممتزجة بشيء من فلسفته الخاصة ، ومن ناحية تدل على مذهبه في الحياة ، و

(١) مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني ٣٧٢/١ ، تعليق حسن زرزور ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، بدون تاريخ .

نهجه فيها ، فهو يميل إلى تحليل الحياة ، وسبر أغوار النفس الإنسانية حتى يتمكن من رسم المنهج التربوي .

٢. مجازاة البارودي للأقدمين أثر في شعره من نواح عدة :

أ . الاعتماد في تعبير عن البطولة ، والقيم الإسلامية على الصورة الشعرية الحيّة المليئة بالعواطف ، والأخيلة التي تجسم المعاني ، وتبرزها في قوة ، وجلاء (١) ، ولكن نلمس شيئاً من التكلف في تقليده للأقدمين واحتذاء أساليبهم .

ب . الاعتماد على الجرس الموسيقي الداوي ، والبحور الشعرية الطويلة التي تحقق له العبارة الشعرية الفخيمة .

ج . الاعتماد على جزالة الألفاظ ، وقوة التراكيب (٢) حتى يتحقق لشعره أكبر قدر من الفصاحة ، والبداوة .

٣. يعرض البارودي معانيه الشعرية . على الرغم من التقليد . عرضاً جديداً شائقاً مهّد به الطريق لمن يأتي بعده فضلاً عن فخامته ، وبعده عن الزخارف ، والحلي اللفظية التي تغطي أحياناً فتذهب ببهاء القصيدة ، وروعها .

٤. أسهم موسيقى شعر البارودي في خلق الإحساس بأجواء الحرب ؛ فالموسيقى عنده ترتبط بالمواقف التي يصورها ، والمعاني التي يجسدها ، فهو في شعره البطولي المتعلق بالحماسة ، والفخر ، ووصف المعارك ، وما فيها من حركة واضطراب ، وما فيها من التوتر ، والعنف نجد موسيقاه يتغير ، ونبرة إيقاع الألفاظ شديدة الصخب مما يتلاءم وحركة الحروب ، وصليل السيوف ، وقصف المدافع .

❖ صياغة البارودي للمعاني :

١. الموهبة الفنية :

المعاني التي تناولها البارودي تدل على موهبته الفنيّة الرائدة ، ومقدرته الشعرية

(١) في الأدب الحديث ٢٢٥/٣ .

(٢) المرجع السابق ١٩٠/٣ .

الممتازة ؛ فهو يستطيع أن يسلك طريقه في الاقتباس ذللاً ، فيجمع الرحيق من أزهار متنوعة ، ثم يخرج شراباً روحياً فيه شفاء للناس ، ومن ذلك قوله (١) :

دَعِ الْهَزْلَ وَاحْذَرْ تُرْهَاتِ الْمُنَادِمَةِ فَكَمْ مِنْ غَوِيٍّ قَدْ أَسَالَ الْمُنَى دَمَهُ (٢)
فَمَهْ لَا تَفْهَمْ بِالْقَوْلِ قَبْلَ انْتِقَادِهِ قَرَبَ كَلَامٍ فَضَّ مِنْ قَائِلٍ فَمَهُ (٣)

الشاعر ينهى عن الهزل الممقوت ، ويحذر من التفوه بالكلمات غير المؤسسة على حق ، فإن ذلك انهماك في الجهل ، وانقياد للهوى ، وإمعان في الضلال لا يعود على صاحبه إلا بالخيبة ، والشر ، والبوار ؛ فللقول آفات يجب تجنبها ، وعلى المرء ترك فضول الكلام ، والالتزام بنقد الكلام وتهذيبه ، وفي ذلك يقول المولى عز وجل : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٤) ويقول النبي ﷺ : " ... وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ " (٥) ويقول ﷺ : " ... وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يُلْقَى لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا " (٦) ، والمثل العربي يقول : (رب رأس حصيد لسان) (٧) .

٢. قوة المعاني :

اعتماد البارودي في معانيه على الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، والتراث الأدبي العربي منح شعره قوة ، وجمالاً ، وجعل له تأثيراً في النفوس خاصة المواعظ ، والحكم ، حيث جاءت مدعمة بما يشبه البراهين ، أما معانيه البطولية فقد كانت قوية أيضاً ؛ إذ كانت وثيقة الصلة بالماضي .

(١) ديوان البارودي ٥٢٨/٣ .

(٢) الترهات : الأباطيل ، وكل ما لا نفع فيه من الأقاويل .

(٣) مه : اسم فعل أمر ، بمعنى : اكفف ، وامتنع . لاتفه : لا تتطرق . انتقاد القول : فحصه ، وتدبره لمعرفة عيوبه . فمه : الفم . (٤) سورة ق ، الآية : ١٨ .

(٥) رواه الترمذي في سننه ، باب ما جاء في حرمة الصلاة ، حديث رقم ٢٦١٦ ، جامع الترمذي تصنيف أبو عيسى محمد بن عيسى سورة الترمذي ، طبعة بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ .

(٦) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب : حفظ اللسان ، حديث رقم ٦٤٧٨ .

(٧) مجمع الأمثال ، للميداني ٣٨٩/٢ .

٣. المعاني المطروقة :

المعاني التي تناولها البارودي في البطولة ، والقيم الإسلامية أغلبها مكررة ، ومطروقة سواء في القرآن ، أو السُّنة ، أو التراث الأدبي العربي ؛ من شعر ، وحكم ، وأمثال ، وأقوال مأثورة ، ولكنه صاغ تلك المعاني صياغة جديدة ، وألبسها ثوباً قشيباً ، وأبرزها للناس رائقة زاهية كما استطاع أن يلائم بين المعاني ، والمناسبات ، ويصورها بخياله البديع فجدد بناءها.

ومن ذلك قوله في المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن ^(١) :

وَذِي وَجْهَيْنِ تَلْقَاهُ طَلِيقًا مُحِيَّاهُ وَبَاطِنُهُ حَزِينُ ^(٢)

يُعَاطِيكَ الْمُنَى بِلِحَاطِ رِيمٍ وَبَيْنَ ضُلُوعِهِ ضَبٌّ كَمِينُ ^(٣)

فهذا المعنى الذي يصور المنافق الحاقداً كثير شائع في الأدب العربي قديمه ، وحديثه . قال ^(٤) أبو تمام ^(٥) :

لَيْسَ الصَّدِيقُ مَنْ يُعِيرُكَ ظَاهِرًا مُتَبَسِّمًا عَلَى بَاطِنٍ مُتَجَهِّمٍ ^(٦)

وقال ^(٧) أحمد شوقي ^(٨) :

فَيَا رُبَّ وَجْهِ صَافِي النَّمِيرِ تَشَابَهَ حَامِلُهُ النَّمَرِ

وقال ^(٩) أبو فراس الحمداني ^(١٠) :

وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسِ إِلَّا أَقْلَهُمْ ذَنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ

(١) ديوان البارودي ١٣١/٤ .

(٢) المحيا : الوجه .

(٣) الريم : صغيرة الطيبة ، وتمتاز بجمال العينين . الضب : الحقد ، والغل الكامن من الصدر . كمين : كامن خفي .

(٤) ديوان البارودي ١٣١/٤ ، الهامش .

(٥) سبقت ترجمته ص : ١٢٧ .

(٦) متجهم : مسود بالحقد .

(٧) الشوقيات : ، أحمد شوقي ١٣٤/١ ، طبعة دار الكتاب العربي . بيروت ، بدون تاريخ .

(٨) سبقت ترجمته ص : ٢٠٨ .

(٩) ديوان أبي فراس الحمداني ، عباس عبد الساتر ص : ١٤ ، طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ، بدون تاريخ .

(١٠) سبقت ترجمته ص : ٤٤ .

وقال (١) الأبيوردي (٢) .

يُلْقَاكَ وَالْعَسَلُ الْمُصَفَّى يُجْتَنَى مِنْ قَوْلِهِ وَمِنْ الْفِعَالِ الْعَلَقُ

وقال الشريف (٣) الرضي (٤) :

لَا تَجْعَلَنَّ دَلِيلَ الْمَرْءِ صُورَتَهُ كَمْ مُخْبِرٍ سَمَجٍ عَنْ مَنْظَرٍ حَسَنِ

إلى غير ذلك من أقوال الشعراء في هذا الباب

٤. تداخل المعاني :

المعاني التي تناولها البارودي تأتي متمازجة متداخلة ، وذلك لوحدة الشعور النفسي ؛ فهي في مجملها تقريباً تدل على تدين الشاعر ، وصحة عقيدته ، وقوة إيمانه بالله ، وذلك يبدو من خلال خشوعه لله عز وجل ، واسدائه للنصح ، والارشاد ، وتقديمه للمواعظ ، والحكم ، والتعبير عن الشجاعة ، والإقدام ، وبغضه للدنيا ، وأسباب الانحطاط ، وبعده عن كل ما يشين .

وفي قصائده التي يتناول فيها أغراضاً أخرى غير البطولة ، والقيم الإسلامية ، نجد فيها أيضاً اتجاهاً إسلامياً . ولو خفياً . سواء كان من حيث الفكرة ، أو الفلسفة التي لا تخرج تجربته عن دائرة المفهوم الإسلامي الذي يسع الحياة كلها . ومن ذلك . على سبيل المثال . قصيدته التي قالها في شكيب أرسلان (٥) حيث سلك فيها مسلكاً يدل على تدينه ، وسلامة عقيدته ، وتشربه

(١) ديوان البارودي ٤ / ١٣١ ، الهامش .

(٢) هو أبو المقفر محمد أبي العباس أحمد بن أبي العباس الأبيوردي نسبة إلى أبيورد ، وهي مدينة بخراسان ، كان فاضلاً في العربية ، والعلوم الأدبية ، وكان نسابة ليس مثله مبتكراً ، مغروراً ، وكان شاعراً مجيداً .

(٣) ديوان البارودي ٤ / ١٣١ ، الهامش .

(٤) سبقت ترجمته ص : ٤٤ .

(٥) هو شكيب أرسلان بن الأمير حمود بن حسن الأرسلاني ، ولد سنة ١٨٦٩م ، ويلقب بأمرير البيان ؛ فقد كان أديباً ، وناقداً ، ولغوياً ، وخطيباً ، وصحفيّاً ، ومؤرخاً ، وسياسياً عمل على توحيد العرب ، وكان متديناً محافظاً على الصلاة ، عقيدته عقيدة أهل السنة وينسب إلى دروز لبنان ، وهم فرقة من الشيعة ، توفي سنة ١٩٤٦م .

بالمفاهيم الإسلامية ؛ فقد عبّر عن الحب الصادق ، والود الخالص ، والوفاء التام ، وساق الحكمة الحسنة ، وضرب الأمثلة التي تلمع بينها النصح ، والإرشاد إلى غير ذلك .

٥. المبالغات:

لا يخلو معاني البارودي من المبالغات غير الممقوتة التي تقوي المعنى ، ويجعل له بريقاً ، وطعماً حلواً ، حتى إن القارئ يجد في نفسه رغبة في أن يعيد قراءتها ، والوقوف عندها ، ومن ذلك وصفه لسيفه الذي يقارع به الأبطال ؛ فهو سيف حادّ ، ماض ، لا تشوبه الدماء لسرعة قطعه ، بل إن المقتول به لا يدري بأنه قد مات فقال (١) :

يَمُرُّ بِالْهَامِ مَرَّ الْبَرْقِ فِي عَجَلٍ وَفَتَ الضَّرَابِ وَلَمْ يَغْلُقْ بِهِ بَلَلٌ (٢)
تَرَى الرَّجَالَ وَقُوفًا بَعْدَ فَتَكَتِهِ بِهِمْ يُظَنُّونَ أَحْيَاءَ وَقَدْ قُتِلُوا

وهذا السيف لشدة توهجه كأنه شعلة من النار تميلها الريح ، وتحركها :

كَأَنَّهُ شُعْلَةٌ فِي الْكَفِّ قَائِمَةٌ تَهْفُو بِهَا الرِّيحُ أَحْيَاءًا وَتَعْتَدِلُ

ويكاد هذا السيف يشتعل ناراً لفرط توهجه ، ولمعانه ، ولكن الدماء التي

ترويه تمنع اشتعاله :

لَوْلَا الدِّمَاءُ الَّتِي يُسْقَى بِهَا نَهْلًا لَكَادَ مِنْ شِدَّةِ اللَّأْلَاءِ يَشْتَعِلُ

فرغم المبالغة إلا أن المعنى قوي ، ورائع .

أما في مراثيه ففيها بعض من القيم الدينية بعيداً بعض الشيء عن المبالغات الجارفة التي تكون . عادة . في مثل هذه المواقف ، ولكن نحس بلوعة الحزن التي تبعثها في نفسه عاطفة الوفاء ، والحزن لفقد الأحباء ، كما نحس فيها روح الزهد النابع من تأمل الشاعر في خطوب الدنيا ، وأحداثها (٣) .

(١) ديوان البارودي ١٦٢/٣ .

(٢) الهام : الرأس .

(٣) في الأدب الحديث ٢٢٦/٣ .

الخاتمة والنتائج :

أما بعد :

تناولت في هذا البحث البطولة ، والقيم الإسلامية في شعر محمود سامي البارودي ، وتناولت أبرز الملامح البطولية ، وأبرز ملامح القيم الإسلامية في شعره ، ثم حللت بعض النصوص الشعرية التي تمثل تلك الملامح ، ثم درست شعره من الناحية الفنية ، وتوصلت بعد ذلك إلى النتائج التالية :

١. دراسة شعر البارودي من حيث البطولة ، والقيم الإسلامية قادتنا إلى تناول أمور لا تستقيم دراسة شعره دراسة أدبية منصفة حتى نتمثلها على وجهها ، وهي الإمام بأبعاد آفاق الرجل الفكرية ، واهتماماته السياسية ، والاجتماعية ، وانعكاس ذلك على شعره ، وبذلك اتضح لنا مدى أصالة مضامينه البطولية ورؤيته الدينية .

٢. كشفت هذه الدراسة أن كل معاني البارودي في مجال الفروسية ، والقيم الإسلامية لا تصدر عن الخارج إنما هي تجارب ذاتية عميقة الغور في أعماق نفسه ، وثيقة الصلة بثقافته ، وكيانه ، ومجتمعه ، وواقعه ، وواقع أمته ، وإفرازات سياسة المستعمر ، فبين لنا العوامل التي أسهمت في تكوين شخصيته فارساً ، وواعظاً دينياً رفيع الثقافة ، ومع ذلك لا يخفى ما في نفسه من ميل إلى تحقيق الطموحات الشخصية .

٣. القضايا السياسية ، والاجتماعية التي تناولها البارودي مثل الحرية ، ونظام الحكم ، وتقويم السلوك الفردي ، والاجتماعي ، هي في مجملها تمثل القضيتين المحوريتين اللتين دار حولهما شعر البارودي البطولي ، والديني ، بل تكاد تتسحب على أغلب أغراض شعره الأخرى في مختلف مراحل حياته ، وهما القضيتان اللتان كانتا تشغلان بال المفكرين في عصره ، ومن هنا كان شعر البارودي في مجال البطولة ، والقيم

الإسلامية انعكاسات لاهتمامات رموز حركة البعث

الحضاري مثل : الطهطاوي ^(١) ، والأفغاني ^(٢) ، ومحمد عبده ^(٣) ، والمرصفي ^(٤) ، وصدى لضمير الأمة الذي كان خافئاً فصاح بها البارودي في شجاعة ، وجراً لا يخفى ما فيها من الرؤية الدينية الواعية ، كما لا يخفى أن شاعرنا قد اعتنق مبادئ الثورة الفرنسية ، وربما جال بخاطره بأنه ميرابو ^(٥) مصر .

٤- الشعر الديني لدى البارودي يحمل طابعاً اجتماعياً مما يدلنا على الفكر الاجتماعي الذي بدأ يعرف طريقه إلى عالمنا العربي حينذاك بعد أن راجت في الغرب ، والبارودي باعتباره أحد رواد حركة المثقفين كان يمثل بمواقفه الدينية حلقة الوصل بين الجناح الوطني ، والعسكري ، والجناح الخلقي المرتبط بالتربية الدينية الأصيلة ، وحرص على أن يظهر أميناً على الحركة الشعبية ، وحامل مشعل الكفاح الفكري ، والعسكري ، وعبر عن تجاربه بشتى الصور المترعة بالقيم الإسلامية ، تلك الصور التي تمتاز بخصوصية فكر البارودي ، و نهجه ، وفلسفته .

(١) هو رفاعه بن رافع الطهطاوي ، ولد بمدينة طهطا المصرية سنة ١٨٠١م ، وهو مصري من أقصى الصعيد ، وكان أبواه فقيرين ، تلقى تعليمه في الأزهر الشريف ، وصار من كبار علمائه ، وكان عالي النفس ، ماضي العزيمة ، حاد الذكاء ، مشغوفاً بالعلم ، هاجر إلى فرنسا ، ونهل من آدابها ، وأسهم في النهضة العلمية ، وأنشأ مدرسة الألسن ، وهي من أكبر المعاهد الثقافية حينذاك ، توفي سنة ١٨٧٣م .

(٢) ولد جمال الدين الأفغاني في قرية أسعد أباد قرب كابل بأفغانستان عام ١٨٣٨م ، وكان من بيت علم وفضل ، ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه ، رحل إلى القاهرة بمصر ، وأخذ يبيت تعاليمه في المساجد ومن تلاميذه : محمد عبده ، والبارودي ، وعبد الله نديم ، وتميز الأفغاني بقوة شخصيته ، وكان حاد الذكاء ، واسع الأفق ، قوي الشكيمة ، معتداً بنفسه ، توفي سنة ١٨٩٧ م .

(٣) ولد الشيخ محمد عبده سنة ١٨٤٩م وحفظ القرآن ، ودرس في الأزهر الشريف ، وسافر إلى فرنسا ، وأصدر من باريس صحيفة (العروة الوثقى) ، واحتل مركز الصدارة بين رجال العرب ، ومفكرهم ، واشترك في الحركة العربية ، ونفي ١٨٨٢م ، وعاد من المنفى سنة ١٨٨٩م ، ومن مؤلفاته (الإصلاح الفكري التربوي) و (إصلاح القطر السوري) ، و (إصلاح التربية في مصر) .

(٤) المرصفي : سبقت ترجمته ص: ٨ .

(٥) ميرابو : هو أحد أفصح خطباء الثورة الفرنسية .

٥- رغم أن البارودي نال ريادته في الشعر الحديث بأصالة شعره ، وقوة معانيه ، وإحكام صياغته ، وبتخلّصه من قيود البديع ، والسخف ، والضحالة إلا إنه نال تلك الريادة أيضاً بالتقليد الآلي لشرازمة فرسان العرب في بطولاتهم التي كانت تقوم أيضاً على العصبية الهوجاء ، و العنصرية البغيضة ، ونجده . بلا استحياء . في كثير من شعره كأنه يركب جواده ، ويتوشح سيفه ، ويجوب طرقات القاهرة إلى جانب السيارات ؛ فدراسة شعره البطولي بكل أبعاده تعيننا على وضع الرجل في إطاره الفني ، والفكري السليم الذي لا ينقص من حقه ، ومكانته رائداً لنهضة أدبية لأمة عريقة أضاعت الكثير .

٦- تناول البارودي من خلال القيم الإسلامية ، والبطولة يعطينا صورة حقيقية ، ومتكاملة له ، أما تصنيف شعره إلى أغراض ظاهرة مثل : الغزل ، والثناء ، والهجاء ، والحنين ، والفخر فإنها لا تعطينا مضامين فكره وأبعاد شخصيته ؛ فشعر البارودي انعكاس صادق لصراعات عصره ، وتياراته ، وآماله ، هممه النفسية ، طموحاته ، وآرائه ؛ فشعره مرتبط بكل القضايا الإنسانية ، والوطنية ، فسلك فيها جميعاً طريقين هما : البطولة ، والقيم الإسلامية ، فلبس لكل حال لبوسه ، فنجده فارساً شهماً غيوراً ذا روح قيادية تحوطه هالة من غبار الحروب تعلوها صفات النبل ، والشرف ، ونجده واعظاً بليغاً ، وناصحاً فطناً تتلأأ حواليه أنوار الهداية ، والاعتدال تعلوها الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومن هنا فدراسة شعر البطولة ، والقيم الإسلامية لدى البارودي يبين لنا حقيقة شخصية الرجل ، وطبيعة فكره ، والعوامل المؤثرة فيها .

٧- شعر البطولة ، والقيم الإسلامية هما سرّ تميّز البارودي بالقياس إلى معاصريه فقد عبّر عن الغرضين بما يمكن أن نسميه بالتجربة الإنسانية في تاريخ الشعر العربي ، ولا أقصد بها البداية التاريخية ، بل أقصد بها بداية الجمع بين إجادة الصياغة ، والعناية بالمضمون ، والفحولة ، والتحليق في آفاق جديدة مرتبطة بحياة الناس ، وعقيدتهم ، وماضيهم ، وتقاليدهم ، وقيمهم الموروثة . وقد تركت هذه الناحية أثرها في شعر البارودي مادةً ، وبناءً ، وإيقاعاً ؛ فمضمون قصائده ما هي إلا انعكاس لآفاقه الدينية . فموضوعاته شديدة الصلة بأعماقه ، واهتماماته

الاجتماعية والقومية وفق النظرة الدينية ، والنفسية ، ولذا فإن شعر التجربة الإنسانية عند البارودي تخرج به من نطاق سذاجة القصيدة العمودية إلى مصاف قصائد التجديد الملتحمة المتماسكة البناء ذات الوحدة العضوية .

٨. هناك اتجاهات في تعبير البارودي عن بطولته :

الأولى : الاتجاه الحقيقي : ، وهو الذي صور فيه بطولته تصويراً واقعياً من خلال وصف المعارك التي خاضها ، والأهوال التي تعرض لها والأخطار التي واجهها خلال مغامراته ، ومن خلال وصفه لآماله وهممه النفسية و طموحاته العلية.

والثانية : الاتجاه الخيالي : الذي صور فيه بطولته تصويراً لا علاقة له بالواقع ، وإنما هي أحلام تجول بخواطر الشاعر ، فرضته عليه ظروف ، وأوضاع معينة ، خاصة بعد أن هُزم ، ونُفي ، وشُرد ، وصُودرت أملاكه ، وهُضمت حقوقه ، وأخفقت ثورته ، وضاعت آماله ، وأمانيه ، فكلما اجتر مرارة واقعه فزع إلى ماضيه ، واستمد منه جذوة النخوة ، والحماسة ، كما كان يفزع إلى ماضي أجداده ، وآبائه أهل الملك ، والسلطان ، وإلى ماضي أمته العربية ، حيث النخوة ، والعزة ، وإباء الضيم ، وتصغير الخد ؛ فيجد نفسه في رحاب الماضي المشرق ، فيصورها فارساً ، وبطلاً مستلماً ، يقارع ، و يصول ، ويركض بجواده فيكر ، ويفر في الهواء .

٩- تقليد البارودي للأقدمين عموماً ، أثبت أن الشعر العربي سلسلة ممتدة ، قد تنفصل أحياناً ، ولكنها تعود فتلتئم بسرعة متى ما تهيأ لها أسباب الالتئام ، وأثبت أيضاً أن الشعر العربي فيه من القوة ، والمرونة ، والخصوبة ما يمكنه من مغالبة العصور ، والازدهار في كل البيئات ، وأثبت أن الشعر العربي ليس جامداً ^(١)

بل هو في غاية المرونة ، بحيث يمكن تطويعه بسهولة ؛ لتناسب أهل كل عصر ، وثقافتهم ، وتلائم ذوق كل جيل ، وحضارتهم .

(١) الشعر العربي الحديث والمعاصر ص : ٦٣ .

والتأثر بالقديم عموماً دليل على ما فيه من الحياة ، والحيوية ، والأصالة ، والتفوق .

١٠- البارودي في دعوته إلى القيم الإسلامية يتطلع إلى نماذج إنسانية بأبعادها الواسعة ، وقد اتبع في ذلك منهج المزوجة بين القيم التربوية الرفيعة ، والأفكار التي تخدم التوجه الاجتماعي السليم ، والمصالح الوطنية ، ونستطيع أن نسمي هذه الدعوة التي قام بها البارودي حركة إصلاح ديني اجتماعي هدف منه إلى تهيئة الروح الوطنية ليتسنى له قيادتهم ، ثم استحالت هذه الدعوة إلى دعوة دينية خالصة بعد نفيه هدف منها التزهيد في الدنيا ، والدعوة إلى التعلق بالآخرة .

١١- رفع البارودي مستوى لغة الشعر عندما عاد به إلى الجزالة التي كانت سائدة في العصور العربية الزاهرة ، وارتقى بمضامين الشعر ، وبرزت شخصيته من خلال ألفاظه !! ، وإن كانت جزالة الألفاظ ، ورصانتها لا تفسر الشاعر كما أن بعض الشعراء الذين مالوا إلى الجزالة لم يكونوا كلهم أبطالاً^(١) إلا أن الكثيرين منهم كانوا كذلك ، هذه من ناحية ، ومن ناحية أخرى ؛ فإن الشعراء الفرسان في العصور العربية الذهبية كانوا يميلون إلى قوة الألفاظ ، وجزالتها بطبعهم ، وسليقتهم الفطرية ، فإن تعمد البارودي لاختيار تلك الألفاظ كان في إطار الصنعة ، وهي تدل على ما كانت تملأ نفسه من النزعات البطولية التي كانت تدفعه لتقليد الفحول فانعكس ذلك على رفع مستوى اللغة ، والألفاظ .

١٢- شعر البارودي من حيث البناء ، جاءت هيكل قصائده ، وبنائها من طبيعة قصائده القائمة على الفخامة ، والجزالة ، و المعاني الجهيرة ، المؤسسة على الوحدة العضوية ، ووحدة العاطفة التي تعتمل في أعماقه ، كما كانت تعتمل في أعماقه نزعات قوية جامحة تسيطر على كيانه .

كما جاء البناء الشعري من بعض المواقف الاجتماعية ، والنفسية العنيفة التي كان يعمل على معالجتها . ولا يخفى علينا أثر الغضب ، والثورة في تكوين هياكل

(١) أضواء على الأدب العربي ص : ١٣٧ .

القصائد . مما يجعلني أقول إن البارودي في بنائه لقصائده لم يأخذ من القصيدة العمودية إلا شكلها ، واحتفظ للعصر بالرمز الفني لأهدافه .

١٣ . النظرة الدينية العميقة للبارودي حملته على تذكر الموت ؛ فأكثر من الحديث عنه في شعره ، وعبر عنه بطرق مختلفة ، وهو الذي دفعه إلى الزهد في الدنيا ؛ فتحول إلى واعظ ديني قدم أروع المواعظ الدينية التي تدل بدورها على سعة ثقافته ، وغزارة علمه ، وأحاطته بمشاكل المجتمع ، فأكثر من ذكر الموت الذي تخشع له النفوس ، وتهتز له العروش .

١٤ . كشفت هذه الدراسة العلاقة الوطيدة بين الشعر عند البارودي ، والواقع السياسي ؛ فقد حمل البارودي لواء تحرير الشعر ، ونقله من مرحلة الركود ، والجمود إلى مرحلة الحيوية ، والازدهار ، وكذلك حمل لواء النضال الوطني ^(١) ، ونقل شعبه ، وأمته من مرحلة الخنوع ، والركود إلى مرحلة الثورة ، والانتفاض ، والمطالبة بالحقوق .

كما كشفت هذه الدراسة العلاقة الوثيقة بين الشعر عند البارودي ، والواقع الاجتماعي ؛ فقد دعا البارودي إلى إخراج الشعر من مستنقع القيود البديعية ، والسخف ، والتفاهة ، والانحطاط ، وكذلك دعا إلى إخراج الأخلاق من حمأة الرذائل ، والقبائح ، والانحطاط ، ودعا إلى التمسك بالقيم الفاضلة التي اشتمل عليها الإسلام .

(١) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص : ١٣٦ .

الفهارس الفنية

المحتوى

- أولاً : فهرس الآيات القرآنية .
- ثانياً : فهرس الأحاديث الشريفة .
- ثالثاً فهرس الشواهد الشعرية .
- رابعاً : فهرس الأعلام .
- خامساً : فهرس المصادر والمراجع .
- سادساً : فهرس الموضوعات .

❖ فهرس الآيات القرآنية :

الآية	رقم الآية	الصفحة
	١. سورة الفاتحة	
﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾	٤	١٥٨
	٢ . سورة البقرة	
﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ...﴾	١٥٦ ، ١٥٧	
١٢٢		
﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾	١٦٨ ، ١٦٩	١٤١
﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ...﴾	٢٦٩	١٢٦
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ...﴾	١٧٥	٢٤٦
	٣ . سورة آل عمران	
﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى...﴾	١٠٤	١٠٧
﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾		١٣٣ ، ١٣٤
٨٣		
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...﴾	١٥٩	١٥١
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ...﴾	١٨٥	١٣٤ ، ٢٤٢
	٤ . سورة النساء	
﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ...﴾	٧٨	٢٢٠ ، ٢٤٧

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ...﴾ ١٧١ ١٤١
٥. سورة المائدة
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ...﴾ ٩٠ ٢٠١
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ ١٠٥ ٢٣٩
٦. سورة الأنعام
- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ ٩٩ ١٤١
- ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...﴾ ١٠٣ ١٤١
٧. سورة الأنفال
- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ...﴾ ٦٠ ٢٤٥ ، ٣٧
٨. سورة يونس
- ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ...﴾ ٢٢ ١٩٩
- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا...﴾ ٤٥ ٢٤١
٩. سورة يوسف
- ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ...﴾ ٥٣ ١٦١
١٠. سورة الرعد
- ﴿... طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ ٢٩ ١٨٧
١١. سورة إبراهيم
- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ...﴾ ٤٨ ٢٤٨
١٢. سورة النحل
- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ...﴾ ٨ ٢٤٥ ، ٣٧
١٣. سورة الإسراء
- ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ...﴾ ١٣ ٢٤٢
- ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ...﴾ ٢٤ ٢١٨
- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ...﴾ ٦٧ ١٩٩
١٤. سورة الكهف
- ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةٌ...﴾ ٤٦ ٢٤٧

- ١٥ . سورة طه
 ٢٤٠ ١٢ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ...﴾
- ١٦ . سورة الأنبياء
 ٢٤٦ ١ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ...﴾
 ١٨٩ ١٥ ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ...﴾
- ١٧ . سورة الحج
 ٢١٩ ، ١٩٨ ٢ ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ...﴾
 ٢٤٠ ٥٠ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ....﴾
- ١٨ . سورة المؤمنون
 ٢٤١ ١١٥ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾
- ١٩ . سورة الفرقان
 ١٠١ ٢٨ ، ٢٩ ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ...﴾
- ٢٠ . سورة النمل
 ٢٤٥ ٤٠ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ...﴾
- ٢١ . سورة القصص
 ١٨٨ ٣١ ﴿...فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ...﴾
 ٩٨ ٧٧ ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾
 ٢٤٢ ، ٢٤١ ٨٨ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾
- ٢٢ . سورة العنكبوت
 ٢٤٢ ٥٧ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾
 ٩٤ ٦٤ ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...﴾
- ٢٣ سورة لقمان
 ٢٤٧ ، ٢٣٩ ٣٣ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾
- ٢٤ . سورة الأحزاب
 ١١٤ ٦ ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾

٢٥ . سورة فاطر

﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾ ١٣ ٢٤٢

٢٦ . سورة يس

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا...﴾ ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ١٤٠

٢٧ . سورة الصافات

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ﴾ ٥٦ ١٠١

٢٨ . سورة ص

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ...﴾ ٣٢ ٣٧

٢٩ . سورة الزمر

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى...﴾ ٥٣ ١٤٠

٣٠ . سورة غافر

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ...﴾ ٢٠ ٢٤١

٣١ . سورة الشورى

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...﴾ ٣٨ ١٥١

٣٢ . سورة محمد

﴿... وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ...﴾ ٣٠ ١٨٧

٣٣ . سورة الحجرات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا...﴾ ١٢ ٢٤٠ ، ١٦٠ ، ١٠٦

٣٤ . سورة ق

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ...﴾ ١٨ ٢٥٤

٣٥ . سورة الطور

﴿... كُلُّ امْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ ٢١ ٢٣٩

٣٦ . سورة النجم

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ...﴾ ٢٨ ٢٤٦

٣٧ . سورة الرحمن

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ...﴾ ١٤ ، ١٥ ١٤٠

- ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ...﴾ ٢٧ ، ٢٦ ٢٤٢ ، ١٤٥
- ٣٨ . سورة الحشر
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...﴾ ١٨ ٢٤٢
- ٣٩ . سورة الملك
- ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا...﴾ ٧ ١٨٧
- ٤٠ . سورة القلم
- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ٤ ١١٤
- ٤١ . سورة المعارج
- ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا...﴾ ٤٢ ١٨٨
- ٤٢ . سورة القيامة
- ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى...﴾ ٣٦ ٢٤١
- ٤٣ . سورة المرسلات
- ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ...﴾ ٣٢ ١٨٨
- ٤٤ . سورة النازعات
- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ...﴾ ٤١ ، ٤٠ ١٦١
- ٤٥ . سورة الأعلى
- ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ ١٧ ، ١٦ ٩٤
- ٤٦ . سورة الفجر
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ...﴾ ٨ ، ٧ ، ٦ ١٤٤
- ٤٧ ، سورة الشرح
- ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَانصَبْ...﴾ ٤ ، ٣ ١٦١
- ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ٦ ٢٤٠
- ٤٨ . سورة العاديات
- ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا...﴾ ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ ٢٤٤ ، ٦٣

❖ فهرس الأحاديث الشريفة

الصفحة	الحديث
٤١	١. " أعلى الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر "
٢٤٤	٢. " ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ... "
٢٤٣.....	٣. " إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع ... "
٣.....	٤. " إنما بعثت للأتمم مكارم الأخلاق ... "
٩٩.....	٥. " بلغوا عني ولو آية "
٢٤٥، ٣٧.....	٦. " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة "
١١٥	٧. " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه ... "
١٠٧	٨. " مثل الجليس الصالح والجليس السوء ... "
١٠٧	٩. " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ... "
٢٥٤.....	١٠. " وإن العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً ... "
٢٥٤	١١. " وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ... "

❖ فهرس الشواهد الشعرية :

البيت	الشاعر	الصفحة
١. تلقى الجبان على جراءة حده * مثل الجبان بكف كل جبان	المتنبي	٦٧
٢. إن السيوف مع الذين قلوبهم * كقلوبهم إذا التقى الجمعان	المتنبي	٦٧
٣. إن كنت في كل الذنوب معاتباً * صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه	بشار	٢٥٠
٤. يموت راعي الضأن في جهله * موة جالينوس في طبه	المتنبي	٢٥١
٥. عش واحداً أو صل أخاك * فإنه مقارف ذنب تارة ومجانبه	بشار	٢٥٠
٦. وقد صار هذا الناس إلا أقلهم * ذئاباً على أجسادهن ثياب	أبوفراس الحمداني	٢٥٥
٧. فطاعنت عنه الخيل حتى تنهنت * وحتى علاني كل أشقر مزبد	دريد بن الصمة	٢٤٩
٨. دعاني أخي والخيـل بيني وبينه * وعندما دعاني لم يجدني بقعد	دريد بن الصمة	٢٤٩
٩. لا بقومي شرفت بل شرفوا بي * وبنفسي فخرت لا بجدودي	المتنبي	٧٤
١٠. فروؤوس الرماح أذهب للغـيظ * وأشفى لغـل صدر الحقود	المتنبي	٢٤٩
١١. عش عزيزاً أو مت وأنت كريم * بين طعن القنا وخفق البنود	المتنبي	٢٤٩
١٢. فيا رب وجه صافي النمير * تشابهه حامله النمر	أحمد شوقي	٢٥٥
١٣. وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى * وفيها لمن خاف القلى متعزل	الشنفرى	٢٥٠
١٤. كل ابن أنثى وإن طالت سلامته * يوماً على آلة حذاء محمول	كعب بن زهير	٢٥١
١٥. يلقاك والعسل المصفى يجتنى * من قوله ومن الفعال العلقم	الأبيوردي	٢٥٦
١٦. من معشر سنت لهم أبأؤهم * و لكل قوم سنة وإمامها	لبيد بن ربيعة	٧٤
١٧. ليس الصديق من يعيرك ظاهراً * متبسماً على باطن متجهم	أبو تمام	٢٥٥
١٨. لا تجعل دليل المرء صورته * كم مخبر سمج عن منظر حسن	الشريف الرضي	٢٥٦

❖ فهرس الأعلام

العلم	الصفحة
١ . الأبيوردي	٢٥٦
٢ . أحمد شوقي.....	٢٠٨
٣ . الأحنف بن قيس	١٥٣
٤ . أرسطاليس	١٥٣
٥ . إسماعيل باشا.....	١٥٣
٦ . الأفغاني.....	٢٥٩
٧ . امرؤ القيس	١٤٥
٨ . بشار بن برد.....	٢٥٠
٩ . البوصيري	١١٥
١٠ . أبو تمام.....	١٢٧
١١ . ثعل	١٢٦
١٢ . جالينوس.....	٢٥١
١٣ . جمشيد.....	١٤٥
١٤ . حاتم الطائي	١٥٤
١٥ . دريد بن الصمة	١٤٩

- ١٦ . سابور ١٤٣
- ١٧ . سايك بن سلكة ٦٠
- ١٨ . الشدياق ٢٣٠
- ١٩ . الشريف الرضي ٤٤
- ٢٠ . شكيب أرسلان ٢٥٦
- ٢١ . الشنفرى ١٤٥
- ٢٢ . الطهطاوي ٢٥٩
- ٢٣ . عبد الله فكري ١٥٢
- ٢٤ . أبو العتاهية ٢٣٥
- ٢٥ . عمرو بن معد يكرب ١٥٤
- ٢٦ . عنتر بن شداد ٤٥
- ٢٧ . أبو فراس الحمداني ٤٤
- ٢٨ . قيس بن ساعدة ١٤٥
- ٢٩ . كسرى أنو شروان ١٤٥
- ٣٠ . كعب بن زهير ٢٥١
- ٣١ . لييد بن ربيعة ٧٤
- ٣٢ . المتنبي ٤٤
- ٣٣ . محمد عبده ٢٥٩
- ٣٤ . المرصفي ٨
- ٣٥ . ميرابو ٢٥٩
- ٣٦ . أبو نواس ١٢٩
- ٣٧ . ابن هشام ١١٥

❖ فهرس المصادر والمراجع :

* القرآن الكريم

- ١ . الأدب العربي المعاصر في مصر ، د . شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف . مصر ، بدون تاريخ .
- ٢ . الأدب العربي وتاريخه ، محمود مصطفى ، طبعة مصطفى الحلبي . مصر ، سنة ١٩٣٧ م .
- ٣ . أدب وتاريخ ، محمد صبرة ، طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ، سنة ١٩٢٧ م .
- ٤ . الأدب ومذاهبه ، محمد مندور ، طبعة دار نهضة مصر للطباعة ، والنشر . القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٥ . أسباب النزول ، الإمام أبو الحسن بن علي بن أحمد الواحدي ، طبعة دار الحديث . القاهرة ، سنة ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م .
- ٦ . أضواء على الأدب العربي المعاصر ، أنور الجندي ، مطبعة دار الكتاب العربي . القاهرة ، سنة ١٩٦٨ م .
- ٧ . أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية ، د . محمد زكي العشماوي ، طبعة دار المعرفة الجامعية . مصر ، سنة ١٩٩٧ م .
- ٨ . البارودي رائد الشعر الحديث ، د . شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف . مصر ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .
- ٩ . بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ، شرح محمد بهجة الأثري ، المطبعة الرحمانية . مصر ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٤٢ هـ . ١٩٢٤ م .
- ١٠ . تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ، د . إبراهيم أبو الخشب ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الرابعة ، سنة ١٩٩٢ م .

- ١١ . تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري ، المطبعة البوليسية ، سنة ١٩٥٥ م .
- ١٢ . تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ، طبعة دار مكتبة الحياة . بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .
- ١٣ . التصوف الإسلامي ، وتاريخه ، نيلكسون ، طبعة لجنة التأليف ، والترجمة ، والنشر ، والتوزيع ، سنة ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م .
- ١٤ . جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ضبط وتحقيق محمد علي البجاوي ، المطبعة الأميرية ، بدون تاريخ .
- ١٥ . دراسات في الأدب العربي على مرّ العصور ، د. عمر الطيب الساسي ، طبعة مكتب دار زهران ، سنة ١٩٩٥ م .
- ١٦ . دراسات في تطور الأدب العربي الحديث ، عبد المحسن طه بدر ، طبعة دار المستقبل العربي . القاهرة ، سنة ١٩٩٣ م .
- ١٧ . ديوان أبي فراس الحمداني ، عباس عبد الساتر ، طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .
- ١٨ . ديوان البارودي ، تحقيق علي الجارم ، محمد شفيق معروف ، مطبعة الأميرة . القاهرة ، مصر سنة ١٩٥٤ م .
- ١٩ . ديوان بشار بن برد ، مهدي محمد ناصر الدين ، طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .
- ٢٠ . الزعيم الثائر أحمد عرابي ، عبد الرحمن الرفاعي ، طبعة دار الشعب ، مصر سنة ١٩٦٨ م .
- ٢١ . سنن النسائي ، للإمام النسائي ، طبعة دار المعرفة . بيروت ، حققه ، وقيمه ووضع فهرسه مكتب تحقيق التراث الإسلامي ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤١٢ هـ . ١٩٩٢ م .
- ٢٢ . شرح ديوان فقيده السيف والقلم من أحياء دولة الشعر بعد العدم ، طبعه وشرحه محمود الإمام المنصوري ، طبعة مطبعة الجريدة . القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٢٣ . شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتب العلمية . بيروت ، لبنان ، سنة ٢٠٠١ م .

- ٢٤ . شرح المعلقات السبع ، الزوزني ، طبعة دار إحياء العلوم . بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، تحقيق د . محمد خير أبو الوفاء ، مصطفى قصاص ، سنة ١٩٩٠ م .
- ٢٥ . شعراء خالدون ، السيد إبراهيم ، طبعة دار حميد ومحيو . بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٣٧ م .
- ٢٦ . شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، طبعة دار الهلال . القاهرة ، سنة ١٩٣٧ م .
- ٢٧ . شعراء الوطنية في مصر ، عبد الرحمن الرافعي ، طبعة الدار القومية للطباعة ، والنشر . مصر ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٦ م .
- ٢٨ . شعراء الثورة في الأدب العربي المعاصر ، عبد الرحمن حوطش ، طبعة مكتبة دار المعارف . الرباط ، سنة ١٩٨٧ م .
- ٢٩ . الشعر العربي الحديث والمعاصر ، د . محمد شوكت ، ود . رجاء عيد ، طبعة دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .
- ٣١ . الشعر والشعراء ، عبد الله بن سلام الجمحي ، طبعة دار الثقافة . بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٨٠ م .
- ٣١ . الشعر واللغة ، لطفي عبد البديع ، دار المريخ للطباعة ، والنشر . الرياض ، سنة ١٩٩١ م .
- ٣٢ . الشوقيات ، أحمد شوقي ، طبعة دار الكتاب العربي . بيروت ، بدون تاريخ .
- ٣٤ . صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، طبعة بيت الأفكار الدولية للنشر ، والتوزيع ، سنة ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م .
- ٣٥ . صحيح الإمام مسلم ، للإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، طبعة دار السلام للنشر ، والتوزيع ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م .
- ٣٦ . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، لبنان الطبعة الخامسة ، سنة ١٩٨١ م .

- ٣٧ . **العصر الجاهلي** ، د . شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف . مصر ، الطبعة التاسعة ، بدون تاريخ .
- ٣٧ . **في الأدب الحديث** ، عمر الدسوقي ، طبعة دار الفكر العربي . القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٣٨ . **كتاب الحيوان** ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، طبعة دار مصعب . بيروت . لبنان ، سنة ١٩٧٨ م .
- ٣٩ . **قراءة ثانية في شعر البارودي** ، عمر محمد الطالب ، طبعة منشورات جامعة الموصل ، سنة ١٩٨١ م .
- ٤٠ . **مجمع أمثال العرب** ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني ، تعليق نعيم حسن زرزور ، طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ، بدون تاريخ .
- ٤١ . **محمود سامي البارودي شاعر النهضة** ، د . علي الحديدي ، طبعة مكتبة الإنجلو المصرية . القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- ٤٢ . **محمود سامي البارودي** ، علي الحديدي ، سلسلة الأعلام رقم ٦٥ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر . القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م .
- ٤٣ . **معارضات البارودي** ، محمد بوزينة ، منشورات ، محمد بوزينة ، تونس ، الطبعة الأولى ، بدون تاريخ .
- ٤٤ . **مختارات البارودي** ، طبعة دار العلم للملايين . بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .
- ٤٥ . **معالم الفكر العربي** ، أنور الجندي ، مطبعة الرسالة ، بدون تاريخ .
- ٤٦ . **من روائع الشعر العربي** ، خليفة محمد التليسي ، طبعة الدار العربية للكتاب . ليبيا ، سنة ١٩٨٥ م .
- ٤٧ . **مهرجان محمود سامي البارودي** ، عمر الدسوقي ، منشورات المجلس الأعلى للفنون . القاهرة ، سنة ١٩٥٨ م .
- ٤٨ . **موطأ الإمام مالك بن أنس** ، طبعة دار الحديث . القاهرة ، بدون تاريخ .



الإهداء

المقدمة

التمهيد	١
الباب الأول : البطولة في شعر البارودي	٢٠
الفصل الأول : أبرز الملامح البطولية في شعر البارودي	٢١
١. وصف المعارك الحربية	٢٢
٢. إيضاح سبل البطولة ، ومناهجها	٢٥
٣. الاعتداد بالنفس	٢٧
٤. تمجيد البطولة ، والحضّ عليها	٣٢
٥. الاعتداد بالأهل والعشيرة	٣٣
٦. تصوير الهمة ، والتعبير عن الخلجات النفسية	٣٥
٧. وصف الفرس	٣٦
٨. حب المعالي ، وركوب الصعاب	٣٨
٩. التمسك بالمواقف الصلبة	٤٠
١٠. وصف السلاح ، وآلة الحرب	٤٢
١١. المنهج الشعري	٤٣
أثر البطولة في شعر البارودي	٤٧
الفصل الثاني : النصوص الشعرية ، وتحليلها	٤٩
١. شعر المعارك والحروب	٥٠
٢. شعر السيف والفرس	٦١
٣. شعر تمجيد البطولة ، والحضّ عليها	٦٨
٤. شعر الاعتداد بالآباء ، والعشيرة	٧٣
منهجه في التعبير عن البطولة	٨١
١. مزج البطولة بالغزل	٨١
٢. مزج البطولة بمكارم الأخلاق	٨٢

- ٣ . مزج البطولة بالفصاحة والعقل ٨٥
- ٤ . المغالاة في تصوير بطولته ٨٦
- ٥ . التسلي بالذكريات البطولية ٨٧
- الباب الثاني : القيم الإسلامية في شعر البارودي ٩١**
- الفصل الأول : أبرز ملامح القيم الإسلامية في شعر البارودي ٩٢**
١. الزهد ٩٤
٢. الاتجاه المثالي التربوي ٩٨
٣. المبدأ السياسي ١٠٣
٤. تقبيح الرذائل ، والتنفير منها ١٠٦
٥. تمجيد الفضيلة ١١٠
- أ . الفخر ١١٠
- ب . المدح ١١٣
- ج . الأمر بالمعروف ١١٥
- د . الرثاء ١١٦
٦. الدعوة إلى التأمل ، وتقدير القيم الدينية ١١٦
٧. النزعة الروحية ١١٨
- ٨ . الموعظة ١٢٣
- ٩ . الحكمة ١٢٥
- أثر القيم الإسلامية في شعر البارودي ١٣٠**
- الفصل الثاني : النصوص الشعرية ، وتحليلها ١٣١**
١. شعر الزهد ١٣٢
- ٢ . شعر الثناء على الله ١٣٧
- ٣ . شعر التأمل والموعظة ١٤٢

- ٤ . تمجيد الفضيلة ١٤٧
٥. شعر الحكمة ١٥٤
٦. شعر المواقف الروحية ١٥٧
- ٧ . شعر النصيح والإرشاد ١٦٠
- ٨ . مدح النبي صلى الله عليه وسلم ١٦٣
- ٩ . شعر تقبيح الرذائل ١٦٦
- طريقته في التعبير عن القيم الإسلامية ١٦٩**
- ١ . شيوع المعاني الإسلامية في شعره ١٦٩
- ٢ . تكرير بعض المعاني الشعرية ١٦٩
- ٣ . تداخل القيم الإسلامية ١٧٠
- ٤ . النزعة الحزبية ١٧٠
- ٥ . التوسط والإلتزام ١٧١
- الباب الثالث : الدراسة الفنية..... ١٧٢**
- الفصل الأول : بناء القصيدة ١٧٣**
- ١ . المطلع ١٧٥
- ٢ . المقدمة ١٨٠
- ٣ . الخاتمة ١٨٢
- ٤ . اللغة والألفاظ ١٨٥
- أ . اللغة ١٨٥
- ب . الألفاظ ١٨٦
- ٥ . الأسلوب ١٩١
- الفصل الثاني: الصور ، والأخيلة ، والموسيقى والوزن والمعاني..... ٢٠٩**
- ١ . الصور والأخيلة ٢١٠
- أ . الطرافة والروعة ٢١٢
- ب . المبالغة وتجاوز الحد ٢١٤

ج . التقليدية	٢١٥
د . الاقتباس من القرآن	٢١٨
هـ . قوة الصورة الشعرية	٢٢١
و . تعدد الصور الشعرية	٢٢٣
٢ . الموسيقى والوزن	٢٢٦
أ . الموسيقى	٢٢٦
ب . الوزن	٢٣٣
٣ . المعاني	٢٣٦
أثر النواحي الفنية في شعر البارودي	٢٥٢
صياغة البارودي للمعاني	٢٥٣
١ . الموهبة الفنية	٢٥٣
٢ . قوة المعاني	٢٥٤
٣ . المعاني المطروقة	٢٥٥
٤ . تداخل المعاني	٢٥٦
٥ . المبالغات	٢٥٧
الخاتمة	٢٥٨
الفهارس	٢٦٤
الآيات القرآنية	٢٦٥
الأحاديث الشريفة	٢٧٠
الشواهد الشعرية	٢٧١
الأعلام	٢٧٢
المصادر	٢٧٤
الموضوعات	٢٧٨